المشروع القومى للترجمة

التجربة الإغريقية

حركة الاستعمار والصراع الاجتماعى

(٨٠٠ - ٤٠٠ ق.م)

تأليف

روبرت ج. ليتمان

ترجمة وتقديم وتعليق

دكتورة منيرة كروان

المجلس الأعلى للثقافة

٢٠٠٠

هذه ترجمة كاملة لكتاب:

Robert Littman : The Greek Experiment

Imperialism and Social Conflict

800 - 400 B.C

Thames and Hudson . London . 1974.

مقدمة المترجمة

يؤثر الكثير من المؤرخين والباحثين المتخصصين فى الحضارة الإغريقية القديمة أن يغضوا الطرف عن الجوانب السلبية أو المظلمة فى هذه الحضارة ؛ وربما كان ذلك خضوعًا غير واع لنظرية «المعجزة اليونانية» التى سادت لفترات طويلة حقل الدراسات اليونانية القديمة. وربما كانت هناك عوامل أخرى متنوعة وراء ذلك الموقف الفكرى الذى صبغ الدراسات المتخصصة فى الحضارة الإغريقية القديمة بألوان زاهية براقة خرجت بها، أو كادت، عن نطاق الحضارة الإنسانية التى تجمع الألوان الزاهية بالألوان القاتمة والظلال . فرحلة الإنسان ، التى لم تتم بعد، عبر الزمان هى قصة النجاح والفشل، والرفعة والضعة، والتقدم والتخلف، والأمنيات والإحباطات ... هى باختصار قصة الإنسان فى الكون بكل ما تحمله من تفاصيل مشرقة، وأحداث محزنة ، ووقائع وحروب وإنجازات فى شتى جوانب الحياة. أما الصورة، التى سادت على مدى فترة طويلة من الزمان ، للحضارة الإغريقية القديمة فهى صورة آثر من رسموها من الباحثين والمتخصصين أن تكون وردية مشرقة، مثالية متألقة، فأغفلوا الجوانب التى لاتناسب هذه الصورة فى معظم الأحيان.

وقد اختار مؤلف هذا الكتاب «روبرت ج. ليتمان» أن ينهج نهجًا آخر فى دراسته ؛ فسلَّط الضوء على جوانب أخرى من الحضارة الإغريقية القديمة. إذ أنه اختار لكتابه هذا عنوانًا دالاً هو «التجربة الإغريقية – حركة الاستعمار والصراع الاجتماعى». وهو هنا جزء من تيار أكثر واقعية ، فى مجال الدراسات اليونانية القديمة، برز خلال هذا القرن يحاول أن يبحث فى الجوانب السلبية التى شابت الحضارة الإغريقية القديمة . ولست أظن أن المؤلف قد اختار هذا الموضوع لكتابه بدافع شرير ، كما أنه لم ينتهج

منهجًا انتقائيًا فى هذه الدراسة ليؤكد نظرة سوداوية لهذه الحضارة . ولكن نزعة مديح الذات التى سيطرت على الباحثين فى الغرب الأوربى والأمريكى على مدى فترة طويلة من الزمان قد أفسحت مكانها لنزعة موضوعية تسعى إلى رؤية التاريخ القديم من داخله؛ بكل ما يحمله هذا التاريخ من إيجابيات وسلبيات. وفى تقديرى أن روبرت ليتمان كان خروجا، أو شذوذًا ، عن هذا الموقف .

من ناحية أخرى ، فإن الدراسة التى نقدمها فى هذه الترجمة العربية تسعى نحو مزيد من الفهم للحضارة الإغريقية القديمة؛ فقد اهتم المؤلف بدراسة ما أسماه «الشخصية اليونانية» – وعلى الرغم من أن اعتراضات علمية كثيرة قد تثور حول مسألة «الشخصية القومية» بسبب الطبيعة الفضفاضة لهذا المصطلح وبسبب المشكلات المنهجية الكثيرة التى يثيرها هذا المصطلح – وركز المؤلف على عوامل الفُرقة والتشرذم والمنافسة ، الحميدة وغير الحميدة، التى ميزت سلوك الفرد اليونانى فى المدينة الدولة. وعلى الرغم من أن كثيرين فى العصور الحديثة صدقوا ما قاله أفلاطون وأرسطو أن المدينة الدولة (Polis) اليونانية هى النموذج الأمثل للوجود الإنسانى ؛ فإن المؤلف يكشف عن أن هذا الرأى لايصمد للنقد أمام الفحص التاريخى للمدينة الدولة.

لقد أوضح المؤلف أن الفُرقة والتنافس ، ومحاولة إثبات الذات المفردة، كانت صفات تشى بأن الإغريقى القديم كان على استعداد لأن يذهب فى منافسته وخصومته إلى الوقوف ضد مدينته ، كما بيَّن أن اللغة المشتركة ، ومجمع الأديان الواحد، لم تحلْ دون بروز النزعة الفردية فى أكثر صورها حدةً . وعلى الرغم من أن عصر النهضة الأوربية استلهم الروح الفردية التى ميزت الحضارة الإغريقية القديمة ، فإن الكتاب الذى بين أيدينا قد ركز على الجوانب السلبية فى هذه النزعة الفردية، أما المدينة الدولة فقد كانت مؤسسة اجتماعية سياسية استوعبت الحضارة الإغريقية القديمة فترة من الزمان حقًا، لكنها لم تكن ، أبدًا ، هى النموذج المثالى للوجود الإنسانى على ما زعم أفلاطون وأرسطو، ومثلما حاول من أخذوا برأيهما أن يبرزوه من خلال دراساتهم فالحرب والتنافس والروح الفردية ، ميزت المدينة الدولة اليونانية ، كما ميزت الفرد اليونانى نفسه . أما فى داخل المدينة الدولة، فلم تكن ثمة مساواة اجتماعية أو سياسية ،

وكانت المواطنة حقًا للقادرين وحدهم ، كما كانت الديموقراطية قاصرة على الفئات القادرة اقتصادياً . بيد أن أهم نقائص نظام المدينة الدولة تمثلت فى تلك الحروب التى كانت من حقائق الحياة الإغريقية حتى نهاية عصر المدينة الدولة .

ثم يتناول المؤلف حركة التوسع والاستعمار الإغريقى ؛ موضحًا ارتباط هذه الحركة بالتجارة من ناحية ، وحركة تأسيس المستعمرات باعتبارها وحدات مستقلة سياسيًا من ناحية أخرى. وكيف أن هذه الحركة نمت تحت ضغط الزيادة السكانية فى المدن الأم، وما نشأ عن ذلك بالضرورة من مشكلات سياسية وخصوصات عسكرية بالغة الأثر على مستقبل الحضارة الإغريقية نفسها وعلى المصير النهائى لهذه الحضارة. بيد أن إقامة المستعمرات لم يحل المشكلة الأساسية فى بنية الحضارة الإغريقية ؛ وهى مشكلة الفُرقة والتنازع. وهكذا كان الدواء أشد سوءًا وقسوة من الداء؛ إذ تفاقمت مشكلة الفُرقة بدلاً من أن يجد الإغريق القدماء حلاً مناسبًا لها .

وكانت أبرز مشكلات حركة التوسع الاستعمارى الإغريقية هى تلك التى تمثلت فى الدولة الكبرى التى بنتها اسبرطة من خلال مستعمراتها التى هزمت المدن المجاورة فى الشمال والجنوب تحت حكمها، وفى ظل نظام شديد الصرامة ، كثير القيود ، فى منح حقوق المواطنة – لكن المشكلة التى لم تستطع اسبرطة من حلها تمثلت فى افتقارها إلى الجنود اللازمين لمزيد من التوسع والهيمنة الاستعمارية .

وإذا كانت حركة التجارة والتصنيع قد نقلت بلاد الإغريق من حالة المجتمع الزراعى إلى مرحلة التوسع والاستعمار ، وكانت سببًا فى تلك الحروب الاستعمارية العديدة المدمرة ، فإن أهم نتائج حركة الاستعمار الإغريقية تمثلت فى ظهور الجندى ثقيل التسليح الذى كان ظهوره فى ميادين القتال نقطة تحول فارقة فى تاريخ الحرب والعسكرية الإغريقية القديمة . إلا أن أهم النتائج السلبية تمثلت فى تحطيم القوة الإسبرطية تماما بعد نهاية الحرب البلوبونيزية .

أما تجربة أثينا الاستعمارية فقد اتخذت مسارًا أكثر مرونة ، وحازت نتائج أكثر نجاحًا بطبيعة الحال. ذلك أن أثينا اتخذت فى سياستها الاستعمارية سلوكًا مرنًا كما أنها أحكمت قبضتها على مستعمراتها بشكل أو بآخر. وكانت حركة الاستعمار

الإغريقية عموما، أبلغ تعبير عن مشكلة الزيادة السكانية فى بلاد الإغريق من ناحية، كما كانت مرتبطة بحركة التجارة المتزايدة ونمو الصناعة من ناحية أخرى.

أما أهم موضوعات هذه الدراسة فى تصورى، فهى تلك التى أختار لها المؤلف عنوان «المشكلات الداخلية: الصراع الطبقى والحرب الأهلية» . ففى هذا الفصل عرض المؤلف لمشكلات بلاد الإغريق الداخلية الناجمة عن روح التشرذم والفرقة الإغريقية من ناحية، والنزعة الفردية التى أدت إلى تحول المنافسة إلى صراع. فقد كان المجتمع الإغريقى القديم مجتمعا طبقيًا صارمًا فى علاقاته وفى سلوكه العام، كما كانت الطبقية الحادة تحكم سلوك القوى الاجتماعية داخل المدن نفسها . إذ لم يكن كل سكان المدينة الدولة الإغريقية يتمتعون بحقوق المواطنة كما أن الطبقات الاجتماعية لم تكن فى حال من التعاون والوفاق الاجتماعى وإنما كانت تعانى من مشكلات الصراع لتحقيق مصالحها ، أو للحفاظ على مكاسبها الطبقية. وكانت النتيجة الطبيعية لهذا، أن تحول الصراع الطبقى داخل المدينة الدولة إلى سلسلة من الحروب الأهلية داخل المدن الإغريقية. وكانت أبرز نتائج الصراع الطبقى هى تلك التى تمثلت فى انكسار الهيمنة الاستقراطية وتدهور سلطانها ، بحيث أفسحت مكانها لظهور الحكام الطغاة الذين صبغوا شطراً كبيراً من التاريخ الإغريقى بصبغة الطغيان . وكان هذا كله نتاجًا للصراع على حقوق المواطنة ، وحقوق تولى الوظائف العامة والوظائف التشريعية فى المدينة الدولة .

على أية حال، فإن هذا الكتاب ، الذى نقدمه لقراء العربية للمرة الأولى، يمتاز بأنه يعرض للتجربة الإغريقية من داخلها ومن الخارج أيضا. والكتاب يجمع بين الدراسة التاريخية والدراسة الأدبية / الفنية . ويمتاز أسلوبه بالبساطة والسلاسة إلى حد كبير. كذلك فإنه يوفر للقارئ العادى، وللقارئ المتخصص أيضا كما مناسبًا من المعلومات المسكوت عنها فى الدراسات الكلاسيكية بشكل عام .

وقد اتبعت فى ترجمة الكتاب منهجًا جمع بين الترجمة والتحقيق ؛ إذ إننى حرصت على الترجمة الحرفية للنص من جهة، كما حرصت على تعريب الترجمة (أى صياغتها فى لغة عربية سليمة) من جهة أخرى. كما أننى زودت النص بعدد من الهوامش التى حوت التعريفات والتعليقات التى رأيت إضافتها لتوضيح النص المترجم

أمام عين القارئ العربي. وربما تكون هذه الإضافات ضرورية لكى تقترب الترجمة من الكمال. وأخيرا، فإننى إذ أقدم كتاب «التجربة الإغريقية» إلى القارئ العربى أرجو أن أكون قد وفقت إلى إضافة كتاب جديد ومفيد إلى المكتبة العربية فى الدراسات الكلاسيكية . وإذا كانت هناك أخطاء أو هنات أفلتت منى فى صفحات الكتاب فأرجو ألا تكون قد تسببت فى التقليل من قيمة هذا النص الهام . فالترجمة عمل علمى شاق بكل المقاييس، كما أنه نوع من إنكار الذات لأن المترجم يحبس نفسه داخل عقل المؤلف وفكره لكى يقدم لجمهور القراء أفكار المؤلف وآراءه ، على حين يكتفى المترجم بأن يأخذ لنفسه حيزا ضيقًا فى الهوامش والتعليقات ؛ ولكن متعة الترجمة تعتبر مقابلاً كافيًا يرضى من يقوم بالترجمة .

وإذا كنت قد أحسنت فهذا توفيق من الله ، وإذا لم أكن فهذا مبلغ علمى واجتهادى، وفوق كل ذى علم عليم . والله ولى التوفيق .

د. منيرة كروان

الهرم/ أكتوبر ١٩٩٨م

مقدمة المؤلف

منذ أرسى أفلاطون وأرسطو أسس النظرية السياسية الغربية ، اتخذت المدينة الدولة الإغريقية (Polis) صورة رومانسية باعتبارها نموذجا مثاليا لآية وحدة اجتماعية لبنى الإنسان؛ وكانت العظمة الثقافية والفنية لمدن مثل أثينا سببا فى تأكيد الإعجاب الذى أبداه أفلاطون وأرسطو بهذه المؤسسة فى نظر الناس . وعلى أية حال، فقد شهد هذا القرن بروز صورة أكثر واقعية عن المدينة الدولة . وعلى الرغم من إدراكنا لعظمتها الثقافية ، فقد توصلنا إلى أن ثمة شوائب شابت هذه المؤسسة الاجتماعية ، التى فرقتها الحرب الأهلية من ناحية ، كما شاعت الخيانة وعدم الثقة بين مواطنيها من ناحية أخرى . وفى هذا الكتاب أهدف إلى استعراض تطور المدينة الدولة باعتبارها مؤسسة ، وأن أركز على جوانب سلبية معينة فيها، لاسيما الفُرقة والحروب الأهلية داخل المدن الدول ، أو فيما بينها ، وبعض أسبابها، خاصة ممارسات المواطنة المقيدة ، والصراعات الطبقية .

ويقوم تقسيم هذا الكتاب على أساس موضوعى ، مع تتابع زمنى عام . ولهذا السبب اضطررت أحيانا إلى التحرر من ربقة التتابع الزمنى والتحرك إلى فترات سابقة ولاحقة ، كما كررت بعض الموضوعات فى سياقات مختلفة . ونظرًا للحدود التى تفرضها هذه السلسلة من الكتب ، آثرت حذف الحواشى ، كما أعطيت نفسى أحيانا حرية اتخاذ القرارات فى النقاط الخلافية دون مناقشتها .

هذا الكتاب يدين بالكثير لأعمال باحثين آخرين ؛ سواء بطريقة مباشرة أو غير مباشرة ، وقد أوردت أسماء كثيرين منهم فى قائمة المصادر والمراجع . كما أننى أدين لأصدقائى وزملائى الذين قرأوا هذا الكتاب فى صورته المخطوطة وأسدوا إلىَّ نقدا

مـفـيـدا . وأدين بشكر خـاص للأسـتـاذ لوسـادا L. A. Losada لأنه سـمح لى أن أرى كتـابه الذى نشـر حـديثا بـعنوان The Fifth Column in the Pelo- (Leiden 1972) ponnesian war عندمـا كان مـا يزال فى صـورته المخطوطة . كـمـا أن البـروفـيـسـور جيوفرى باراكلوف Geafffrey Barraclough المحرر العـام لهذه السلسلة قد أسـدى إلىَّ إرشـادات قيمة ونقدا مفيدا ، أمـا الإنسان الذى لم يكن ممكنا صدور هذا الكتـاب فعلا دون مؤازرته ، فهى زوجتى برنيس Bernice .

روبرت ج . ليتمان
جامعة هاواى هونولولو

الفصل الأول

الفُرقة والشخصية الإغريقية

اعتاد مؤرخو بلاد الإغريق القديمة أن يتناولوا انجازاتها ، وميراث الأفكار التى أورثتها لأوربا ، ثقافتها وحضارتها ، فضلا عن مساهمة أثينا فى الفكر السياسى . أما هذا الكتاب فينهج نهجا مختلفا . وليس معنى هذا أن الانجازات لم تكن عظيمة . ولكن التركيز على جانب واحد من تراث الثقافة الإغريقية خليق بأن يحجب جوانب أخرى من التجربة الإغريقية – وهناك الكثير الذى يمكن معرفته من خلال التحليل النقدى للمجتمع الإغريقى – من دراسة المشكلات التى كان عليه أن يواجهها وإلى أى مدى كانت حلول هذه المشكلات ناجحة ، وإذا لم تكن كذلك، بحثنا السبب فى ذلك – بنفس القدر المتاح من المحاولة التقليدية لمنح المجتمع الإغريقى مكانا فى تطور «التراث الغربى» . ويبدى المؤرخون المحدثون اهتماما أقل «بالتاريخ الذى يسير فى خط مستقيم» بحيث يتتبع انتقال الأفكار من جيل إلى جيل ، بيد أنهم يهتمون أكثر بالتاريخ التحليلى الذى يستقصى القوى الاجتماعية الفاعلة فى مجتمع ما ومدى تفاعل الجماعات الاجتماعية . وفى اعتقادهم أنه يمكنهم بهذه الطريقة أن يلقوا الضوء على عملية التقدم الاجتماعى، التى هى عملية عامة فى التجربة الإنسانية ، وإن اختلفت الظروف الموضوعية لكل مجتمع .

وكل من يحاول تناول بلاد الإغريق الكلاسيكية بهذه الطريقة سوف يواجه بتناقض ظاهرى كبير . ومثلما كتب بيفان (E.R.Bevan) ذات مرة ، فربما يكون «ما نسميه الروح الغربية فى حقيقته هو الهللينية وقد تجسدت مجددا». بيد أنه من الناحية

السياسية، كانت المدينة الدولة الإغريقية - التي ولدت في رحابها تلك الروح - فشلا نهائيا. ذلك أن تاريخها عبارة عن انشقاق وفرقة ، وحرب سواء بين المدن الإغريقية ، أو في داخل تلك المدن نفسها . وخلال القرنين التاسع والثامن قبل الميلاد ازدهرت المدينة الدولة باعتبارها مجتمعا زراعيا قائمًا على أساس صلة القربى، ومقسما إلى طبقة إرستقراطية وفلاحين . وطالما كانت التجارة في حدها الأدنى فإن التشرذم والانقسام الذي كان قائمًا لم يمنع المدينة الدولة من أن تكون وحدة فعالة . ولكن في أواخر القرن الثامن ومطلع القرن السابع أدت الزيادة السريعة في عدد السكان والنمو السريع للتجارة إلى خروج المدينة الدولة من عزلتها مجبرة ، إذ أنها لم تعد قادرة على أداء وظيفتها بوصفها مجتمعا زراعيا منفردا ، ومعزولا عن جيرانه، بكفاءة . وعلى أية حال ، فقد كانت المدينة الدولة تتمتع بقدر محدود من المرونة . وباعتبارها عضوا أحادي الخلية وغير قادر على التكاثر سوى من خلال الانقسام إلى وحدات أصغر ، فقد كانت قادرة على التكاثر غير المحدود ، بيد أن نتاجها لم يكن قادرا على التوحد معها في كيان موحد . ونتيجة لذلك فإنها لم تكن قادرة على أن توائم نفسها بنجاح مع العالم المتغير .

وقد ألقت التطورات الاقتصادية والاجتماعية التي جرت على بلاد الإغريق خلال القرنين السابع والسادس بالمدينة والدولة في أتون الفوضى السياسية والاجتماعية . وقد شهد القرن الخامس بدايات أشكال جديدة من الحكومات التي تجاوزت المدينة الدولة وكانت قادرة على توحيد عدة دول ؛ مثل الإمبراطورية الأثينية والحلف البلوبونيزي، وقد تلى ذلك في القرن الرابع دعوة القومية اليونانية وعدة محاولات للوحدة من خلال أحلاف قوية . وقد باءت هذه التجارب بالفشل ؛ إذ كانت روح الفرقة والتشرذم قد تأصلت بحيث لم تستطع جيوش فيليب المقدوني الزاحفة أن تحمل المدن الإغريقية على الوقوف معا . وقيض للوحدة أن تأتي من الخارج؛ إذ فرضها فيليب والإسكندر من بعده . وحتى ذلك الحين ، لم يحدث أن نعمت بلاد الإغريق بوحدة مستقرة حقا سوى بعد أن أحتلتها حامية رومانية سنة ١٤٦ ق.م .

كانت فرقة بلاد الإغريق وعدم وحدتها موضوعا لتفسيرات طرحتها نظريات شتى، بيد أن أيا منها لم تمتلك ناصية التفسير المقنع تماما. وقد اقترح كثيرون أن تكون جغرافية الأرض هي العامل الرئيسي الذي يمنع الوحدة . فقد امتدت المستوطنات

الإغريقية فى آسيا الصغرى، وجزر بحر ايجه ، فضلا عن أرض بلاد الإغريق نفسها . وساحل المنطقة كلها ملئ بالنتواءات وتكسره الخلجان كبيرها وصغيرها . وفى الداخل تنتشر الجبال والمناطق الوعرة التى ينتج عنها العديد من الأقاليم الصغيرة المنفصلة . وثمة اعتقاد بأن هذه التجزئة المادية قد أسهمت فى تطور المدينة الدولة ذات الطبيعة الفردية الحادة .

وعلى الرغم من وجاهة هذا الرأى ، فإنه رأى مبسط . ولاشك فى أن الجغرافيا قد لعبت دورا ما فى التطور السياسى لبلاد الإغريق ، بيد أن مدى تأثيرها كان محل مبالغة . وتلقى نماذج الاستيطان الإغريقى بعض الضوء على المسألة . فبغض النظر عن طبيعة الأرض، كان الإغريق متفرقين أينما حلوا . كما أن المستعمرات التى أسسوها فى جنوب إيطاليا مثل كروتون (Croton) وتارنتم (Tarentum) صارت دولا مستقلة. ومع هذا فعندما توسعت روما صوب الجنوب فى القرن الثالث قبل الميلاد لم تجد صعوبة تذكر فى ضم جنوب ايطاليا كلها فى منطقة متماسكة . وبالتدريج استوعبت روما وضمت إيطاليا فى البداية ثم منطقة البحر المتوسط بأسرها داخل الدولة الرومانية. فالأساس أن الرومان كانوا يوحدون ، على حين كان الإغريق يمارسون الفرقة والتشرذم فحسب. وهناك صدع آخر فى النظرية الجغرافية يتمثل فى حقيقة أن المدينة الدولة ازدهرت كأحسن ما تكون فى المناطق التى كانت الحواجز الطبيعية أقل، على حين أنها كانت أقل سرعة فى تطورها فى المناطق الأكثر جبلية مثل أركاديا (Arcadia) . وثمة مناطق أخرى كثيرة وبلاد فرقتها الطبيعة ، ولكنها لم تعرف المدينة الدولة نظاما لها .

وفضلا عن ذلك، فإنه على الرغم من أن العامل الجغرافى ربما قد شجع التمزق فى بلاد الإغريق ، كما أن طبيعة الأرض كانت متطابقة مع تكوين دويلات مستقلة عديدة، فإن الصراع الراسخ والشقاق المتأصل فى كل مدينة إغريقية ما يزال بحاجة إلى تفسير وتبرير ؛ حيث كانت الصراعات الطبقية ، والحرب الأهلية ، والخيانة وعدم الوفاق ، والشقاق الراسخ هو القاعدة . لقد ساهمت عوامل كثيرة فى الفرقة وعدم الاتحاد . وليس مجال هذه الدراسة تحليل الشخصية الإغريقية ، بيد أن أحد جوانبها على الأقل يبدو مسئولا إلى حد ما عن الفرقة وعدم الاتحاد، على المستوى القومى وعلى

مستوى كل مدينة على السواء . لقد كان الإغريق شعبا من أكثر الشعوب ولعا بالمنافسة فى التاريخ . إذ كان كل شئ محل منافسة بداية من الألعاب الرياضية حتى المهرجانات الرياضية الكبرى، مثل مهرجان الديونيسيا(*) (Dionysia) فى أثينا، حيث كان الكتاب يتنافسون فى سبيل الفوز بالجوائز . وقد اتخذ التنافس شكلا رسميا فى المسابقات الكبرى ، أثناء الاحتفالات العامة التى كان المتنافسون يتبارون فيها . وقد كانت جوائز الفوز بصفة عامة ذات قيمة رمزية ، على الرغم من أن الفائز قد يحصل على مكافآت سخية من مدينته بهذه المناسبة . وفقا لرواية هيرودوت فإن بعض الأركاديين ، الذين كانوا قد تخلوا عن الإغريق وذهبوا إلى الفرس، ومثلوا فى حضرة اكسركسيس (Xerxes) ملك الفرس، وعندما سئلوا عما كان يفعله الإغريق فى تلك اللحظة ، أجابوا بأنهم يحتفلون بالمهرجان الأوليمبى ، ويشاهدون المباريات وسباق الخيل. وعندما سأل اكسركسيس عن الجائزة ، أجابه الأركاديون أنها تاج من أغصان الزيتون فصاح أحد الفرس متسائلا : «يا إلهى ، أى نوع من البشر أولئك الذين جعلتنا نحاربهم يا ماردونيوس؟ إنهم لايتنافسون من أجل المال، وإنما من أجل المجد ». وعادة ما كانت هذه المسابقات دينية الأصل وتقام تحت حماية الآلهة . ومن أكثر المسابقات شهرة المسابقات الهللينية الرياضية ، والبيثية ، والنيمية والإثمية ، لقد كان الإغريق يتنافسون حتى فى الغناء ، وحل الألغاز ، والقدرة على الاستمرار بدون نوم، والرقص.

وكان الكثير من هذه المنافسات عقيما؛ إذ كانت ثقافة الإغريق ثقافة تخشى العار ولاتحفل بالذنب . ففى الحالة الأولى يكون إحساس الفرد بقيمته مرتبطا برأى الآخرين ، على حين أنه فى الحالة الثانية تتحكم فى السلوك الإنسانى عوامل نابعة من ذات الإنسان ، وكما هو الحال فى ثقافات الخجل ، كان الإغريق يعتبرون أى نوع من

(*) الديونيسيا Dionysia :

عيد الإله ديونيسوس أروع أعياد الإغريق . وكانت أسطورته تهز عواطف الناس وتحرك وجدانهم ، لذا كان ترقبهم لهذا العيد حماسيا واحتفاؤهم به عظيما ، لذلك كانوا يقصدون المسرح ذاكرين أيادى ديونيسوس عليهم فى رعاية كرومهم مهتزة وجداناتهم خشية وخضوعا . وإذا ما انطلق المنشدون فى إنشادهم استمعوا إليهم منصتين ، يفرحون مع ما يُفرح ويكتئبون مع ما يدعو للكآبة والحزن ، وفى هذا العيد يتوافد الناس إلى المسرح المكشوف الذى نحت بعضه فى سفح التل جنوبى الأكروبول ليشاهدوا العرض المسرحى الساحر وممثليه فى لباسهم الغريب والمجموعات الغنائية والإنشادية والزامرة . ويغادرون المسرح وملء قلوبهم إجلال لديونيسوس بعد أن أتيحت لهم فى هذا العيد شتى الفرص ، يأكلون حتى يتخموا ، ويشربون حتى الثمالة وتميد بهم النشوة فيرقصون ، غارقين فى المجون .

الهزيمة صنفا من صنوف العار، بغض النظر عن الظروف . ولكن لايمكن أن يكون هناك انتصار دون أن تكون هناك هزيمة لأحد ما فى مقابله . إن المجد الذى يحرزه المنتصر ، يأتى من خسران المهزوم لمجده . كما أن المهزوم لايمكن أن يخرج من المنافسة بنفس مكانته التى دخل بها . وقد أسهم شغف الإغريقى بالشهرة والشرف والإنجاز فى روح الخلاف والمنازعة .

إن روح المنافسة لدى الإغريق تضرب بجذورها فى نرجسيتهم التى دفعتهم إلى التصارع من أجل المجد الشخصى والشهرة ، ومن أجل الثروة والسلطة بالوسائل التى كانت متاحة لهم. كما أن شهوة الطموح الشخصى كانت مشتعلة لا تخمد. إذ إن رجالا مثل الكيبيادس (Alcibiades) الآثينى كانوا تجسيدا للنموذج الإغريقى ولتحطيم الذات المأساوى الذى كان كامنا فى ذلك النموذج. ففى أثناء الحرب البلوبونيزية، مثلا ، شجع الكيبيادس أثينا على أن تبعث به ليفتح جبهة ثانية بالحملة الصقلية ، على الرغم من احتمال اندلاع القتال مع أسبرطة مرة أخرى فى أية لحظة ، وكان ذلك كله من أجل المجد. وعندئذ ، قبل أن تبحر الحملة إلى صقلية بليلة واحدة حدث أن تعرضت الأعضاء التناسلية ووجوه التماثيل الدينية المعروفة باسم هرمس (Herms) والتى كانت قائمة أمام المساكن ، تعرضت للعبث والتشويه . وفى ذلك الوقت أيضا اتضح أن الكيبيادس وآخرين لم يقوموا فقط بمحاكاه طقوس الأسرار الأليوسية التى كانت تقام تكريما للربة ديمتير (Demeter) والربة برسيفونى (Peresphone) ، ولكنهم سمحوا لأشخاص غير مؤهلين بانتهاك هذه الأسرار بمشاهدة هذه المحاكاة . ونتيجة انغماس الكيبيادس فى اتهامات تتعلق بتدنيس المقدسات اضطر إلى التخلى عن المغامرة الصقلية . وعندئذ ، عندما شعر أن عظمته قد انتهكت ، رحل إلى إسبرطة لكى يقاتل من هناك ضد أثينا . وبعد أن بحث عن المجد فى ذلك المعترك لفترة من الزمن ، غادر اسبرطة إلى فارس ، ثم عاد فى نهاية المطاف إلى أثينا . ثم غادر أثينا مرة أخرى ، ولكن هذه المرة كان يتولى قيادة سفينة مسلحة لإقليم تراقيا ، وفيها حاول المحاولة الأخيرة لاستعادة المجد، الذى استمات فى البحث عنه، بأن يقف إلى جانب وطنه . ولكن المساعدة التى عرضها قوبلت بالرفض . ثم قُتل فى خلال فترة قصيرة وهو فى طريقه إلى فارس (بتحريض من الاسبرطيين الذين أرادوا التخلص منه خوفا من يصبح منقذ أثينا) .

لقد كان الكيبياديس أثينيا مخلصا ، ولكن إخلاصه اقتصر على الفترة التى كان هو الذى يدير شئون أثينا خلالها، كذلك يمكن تلمس الدوافع نفسها فى تصرفات الأوليجاركيين فى أثينا ، ففى سنة ٤٠٥ق.م . فضلوا خيانة مدينتهم لحساب إسبرطة على أن يتركوا حكمها للديموقراطيين . لقد كانت الخيانة وعدم الولاء بمثابة التسلية القومية لدى الإغريق . فعندما عزل هيبياس (Hippias) ، طاغية أثينا ، انضم إلى جانب الفرس وحارب معهم ضد أثينا والإغريق فى معركة ماراثون . وعندما طُرد ديماراتوس (Demaratus) ، ملك إسبرطة ، على يد شريكه فى الحكم ، هرب إلى فارس وساعد الجيوش الغازية ضد وطنه . كما لم يلبث ثيمستوكليس (Themistocles) ، صاحب الفضل فى الانتصار على الفرس فى الحرب الفارسية، أن هجر أثينا صوب فارس حيث حقق حياة ناجحة . إن عبارة «إننى أخشى الإغريق حتى لو كانوا يحملون الهدايا» تحمل قدرا كبيرا من الصحة .

لقد كان الإغريق يهتمون كثيرا بالاستحواذ على اعجاب أقرانهم ورضاهم وقد أدى هذا إلى خلق شخصية متفاخرة ، طموحة حسودة ، وشرسة . فضلا عن أن بروز الحسد والأخذ بالثأر كان أمرا لافتا لنظر . وقد لاحظ ثوكيديديس (Thucydides) ، مؤرخ الحرب البلوبونيزية، فى سياق الحرب الأهلية أنه : «... كان على الكلمات أن تغير معانيها لتكتسب تلك المعانى التى أعطيت لها الآن، إذ إن الاندفاع المتهور يعتبر الآن شجاعة الحليف المخلص ، على حين صار التأنى المتبصر جبنا خائبا . والاعتدال بات دليلا على انعدام الرجولة، كما صارت القدرة على الاحاطة بكافة جوانب الأمر دليلا على العجز عن التصرف فى أى مجال . لقد صار العنف المجنون قرين الرجولة، وصار الناس يقدرون الانتقام أكثر من تقديرهم لضبط النفس . أما يمين الصلح فهو أمر جيد طالما لم يكن ثمة سلاح آخر، ولكن عندما تسنح الفرصة ، فإن ذلك الذى خاطر فى سبيل الفوز بهذا الصلح وجعل عدوه يتخلى عن حذره ، كان يرى أن مثل هذا الانتقام الغادر أحلى من الانتقام الصريح ، طالما أن النجاح عن طريق الخيانة سوف يضمن له جائزة الذكاء المتفوق ، فضلا عن اعتبارات السلامة . حقا أنها بصفة عامة تلك الحال التى يكون فيها الرجال الشرفاء أكثر استعدادا لاستخدام الحيلة بدلا من الاعتماد على الشرف الساذج ... وكان سبب هذه الشرور جميعا هو شهوة السلطة النابعة من الطمع والطموح ...».

وحديثا طرح فيليب سلاتر (Philip Slater) فى كتابه «عظمة هيرا» (The Golry of Hera . Boston 1968) رأيا يقول أن النرجسية التى تفشت فى المجتمع الإغريقى ربما كانت من نتاج البناء العائلى؛ إذ كانت النساء والعبيد يعتبرون أدنى بحكم الطبيعة، على نحو ما أوضح أرسطو صراحة، ومن ثم اختصت النساء بانجاب الأطفال والواجبات المنزلية كما تمتعن بحقوق قانونية قليلة، وتلقين تعليما بسيطا ، وربما لم يكن يتلقين أى تعليم . وتم ابعادهن عن مجتمع الرجال . وقد أئتمنهن المجتمع على المنزل بدرجة كبيرة. وكانت المرأة التى تأكل مع الرجال تعتبر غانية. وكان الاتجاه الاجتماعى عامة يميل إلى ازدراء النساء. ولم يكن ممكنا أن تكون المرأة أكبر سنا من زوجها أو أن تتقاضى نفس الأجر الذى يتقاضاه الرجل عن نفس العمل. ولكنها كانت صاحبة الكلمة العليا فى المنزل ؛ إذ كانت تتحكم فى الوسط النسائى ، وفى سكان المنزل بما فيهم الأطفال والعبيد .

وكانت الفتاة اليونانية تنتقل فى سن مبكرة من بيت أبيها إلى بيت زوجها، الذى اختاره أبوها . ولما كان من عادة الرجل اليونانى أن يتزوج فى سن متأخرة ، على حين كانت المرأة تتزوج فى سن مبكرة ، فإن السن المثالى للزواج كان ١٦ سنة للمرأة و٣٠ سنة للرجل . وغالبا ما كانت تسود علاقة أخوية بين الزوجين بدلا من العلاقة الزوجية . وكان الإهمال دائما من نصيب المرأة ، فقد كان زوجها يولى حبه الحقيقى للحياة العامة ، وللعمل ، ولأصدقائه من الرجال ، أو للغانيات (Hetairai) ، وكن غانيات مثقفات يشبهن فتيات الجيشا اليابانيات إلى حد كبير . ولهذا هجر بركليس زوجته بعد أن فتن بالغانية أسباسيا (Aspasia) . ويؤكد سلاتر أن المرأة كانت تصب على أبنائها الذكور ذلك الاستياء الذى كانت تشعر به تجاه ابنها . فقد حاولت أن تجعل منه بديلا عن الزوج ، بيد أنها فى الوقت نفسه جعلت منه كبش فداء . ولهذا فإنها أعلت من شأن ابنها وحطت من قدره فى آن معا ، لقد كانت تطعم ابنها وتحطمه فى وقت واحد . فقد تعاملت معه باعتبارها بطلا من ناحية ، ورفضته من ناحية أخرى. لقد أنتج ذلك شخصية تتمركز حول ذاتها بدرجة كبيرة، وتركز على صورتها فى أذهان الآخرين على أساس معيار غير ثابت : لقد تمثل النتاج فى شخص يخاف النساء ويخشاهن ، وانعكس ذلك فى الصور المخيفة التى رسمتها التراجيديا والأساطير الإغريقية للمرأة ؛

فى شخصيات نسوة مثل ميديا (Medea) التى قتلت أبناءها وكليتمنسترا (Clytemmestra) التى قتلت زوجها . كما أن معظم المردة الأسطوريين كانوا مخلوقات أرضية نسائية مثل ميدوزا (Medusa) ، وسكيلا (Scylla) وخاريبديس (Charybdis) اللاتى كن الربات المنتقمات. وعندما قرر زيوس أن يعاقب البشر لأن بروميثيوس(*) (Prometheus) سرق النار ، كان أسوأ عقاب ابتدعه هو «النساء» ذلك الجنس الشنيع ... ذلك الوباء الذى يتحتم على الرجال أن يتعايشوا معه» . لقد قام كرونوس (Cronos) باخصاء أورانوس (Uranus) بينما كان يمارس الجنس مع جايا (Gaia) التى زودت ابنها بالسلاح ثم نصبت الكمين ، ان الرجل الإغريقى كان يشعر أنه إما أن يكون بطلا أو لاشئ . لقد كان الفخر والمكانة والشرف أمورا غاية فى الأهمية . وباختصار كان الرجل الإغريقى هو النموذج الكلاسيكى للشخصية النرجسية . . لقد كان الغرور الباطل والولع بالمظاهر وسطحيات الحياة ذات أهمية قصوى ، كما كان الشذوذ الجنسى والخنوثة المرتبطة بالنرجسية منتشرا على نطاق واسع بين أفراد الطبقات العليا من أمثال الكيبياديس وأفلاطون .

إن الذاتية ، وحاجة الإغريقى إلى الامتياز ، وإلى حيازة الشرف والمجد على حساب الآخرين، وكانت كلها أمورا ساعدت على إفراز مجتمع غير قادر على الاتحاد . إذ لم يكن الفرد مستعدا لأن يخاطر بالتضحية بنفسه فى سبيل المدينة الدولة، كما أن المدينة الدولة لم تكن قادرة على التضحية فى سبيل بلاد الإغريق كلها . وهذا الجانب فى الشخصية الإغريقية يجب أخذه فى الاعتبار بحسبانه من أكبر عوامل روح الشقاق الإغريقية .

(*) بروميثيوس Prometheus :

تعنى كلمة بروميثيوس العارف بالغيب أو الثاقب البصيرة . وهو الإله الذى منح البشر النار فمد لهم فى حبال المدنية والحضارة . وإلى هذا الإله يُعزى خلق الإنسان من طين حتى نفخت فيه الربه أثينا من روحها . وكان بروميثيوس يحب خلقه ويناصرهم ، بينما كان زيوس على العكس من ذلك يبغضهم ، فأثار بينهم القلاقل وحرمهم النار بدفئها . وقد استطاع بروميثيوس أن يهيئ لخلقه نارا اختطفها من السموات وحملها إلى الأرض ثم علم البشر العلوم والفنون ليتميزوا على الحيوان . ولقد أثار اختطاف بروميثيوس للنار غضب زيوس عليه حتى هم بإبادة البشر ، غير أنه لم يستطع أن يفعل شئيا . وحاول زيوس السيطرة على بروميثيوس وإخضاعه لسلطانه فأمر هيفايستوس أن يحمله إلى ربوة نائية فى جبل القوقار ويتركه مقيدا بالسلاسل فكان يحط عليه مع كل صباح نسر ينهش كبده حتى إذا ما أمسى الليل عاد الكبد سليما كما كان فيعود النسر فينهشه ، وهكذا دواليك ، إمعانا فى تعذيبه إلى أن كان خلاصه على يد هراكليس .

وبينما يحتمل أن تكون روح التنافس الإغريقية قد أدت إلى خلق مشكلات سياسية تفوق الحصر، فإنها أيضا حفزت العبقرية الخلاقة فى الفن والأدب والفلسفة والعلم فى بعض النواحى بشكل لايضاهى. لقد كان تركز الإنجازات فى بلاد الإغريق فى القرنين الخامس والرابع ق.م . أمرا مدهشا . إذ كان سقراط وأفلاطون ، وهيبوقراطيس وبوليكيتوس ، وبراكسيتليس ، وثوكيديديس، وهيرودوت ، وإيسخولوس ، وسوفوكليس ، ويوريبيديس كلهم نتاجا للمجتمع الإغريقى، شأنهم شأن الشقاق والتشرذم ، والحرب الأهلية ، والفرقة .

وثمة عوامل عديدة شجعت الفرقة فى بلاد الإغريق من بينها الإطار الاجتماعى، وأنماط التطور الاقتصادى والسياسى. وربما كانت شخصية الإغريق متمشية مع الفرقة وعدم الاتحاد ، بيد أنه من المستحيل تحديد السبب والنتيجة . لقد كان الرومان متفوقين فى التنظيم والتوحيد، ولكن بعد سقوط روما بعدة قرون انقسمت إيطاليا إلى عدة دول/مدن قوية . فهل تغيرت «شخصية الإيطاليين، أم أن عدة عوامل اقتصادية / اجتماعية أدت إلى تطوير نظام المدينة الدولة فى إيطاليا؟ إن الشقاق وحب المنافسة الإغريقى ساهم فى الفرقة وعدم الاتحاد، بيد أن البناء السياسى والاقتصادى والاجتماعى قد شجع فى الوقت نفسه تلك الخصائص وتعهدها بالرعاية . وهكذا فإنه بينما كانت طبيعة حب المنافسة فى الشخصية الإغريقية بعيدة عن أن تكون سببا فى الفرقة وعدم الاتحاد لدى الإغريق ، أو نتيجة مباشرة لها ، فإن نظامهم السياسى خلق وسطا خصبا يمكن للجدل والمنافسة أن تؤتى ثمارها فى رحابه .

الفصل الثانى

المدينة الدولة الإغريقية

كتب أرسطو أن «الإنسان حيوان سياسى بطبعه» . ولم يكن يعنى أن الإنسان يحب العراك فى ساحة السياسة ، ولكن ما عناه هو أن الإنسان مخلوق يميل بطبعه إلى الحياة فى مدينة دولة (Polis) . إذ كانت المدينة الدولة تمثل ما هو أكثر من مفهوم سياسى ؛ وهو ما تفشل الترجمة المعتادة (مدينة دولة) فى نقله. وربما كانت بابل قد حملت اسم المدينة الدولة فى تاريخها الباكر، ولكنها لم تكن بأى حال من الأحوال (Polis) . فكلمة (Polis) فى اليونانية تعنى كل المجتمع والحضارة فى الدولة الإغريقية.

كانت الكلمة نفسها فى الأصل تعنى القلعة حيث كان يقع مركز الدولة، بيد أنها صارت تطلق على الدولة بأسرها ، وتطلق على الشعب وعلى ثقافة الدولة. وغالبا ما كانت المدينة الدولة تأخذ اسمها من مواطنيها : ففى اللغة اليونانية كانت الكلمة الدالة على مدينة أثينا هى «الأثينيين». وقد كتب ثوكيديديس يقول «إن المواطنين هم المدينة» . وفى خطبته الجنائزية لرثاء الذين حصدهم الموت فى العام الأول للحرب البلوبونيزية طرح بركليس رأيا نموذجيا عن أثينا : «إننا نفتح مدينتنا أمام كل العالم» . وهنا لاتدل المدينة الدولة على التنظيم السياسى فحسب، وإنما تدل على المدينة بشتى جوانبها ، بنائها العسكرى ، مجتمعها وأسلوب حياتها . وبعد أن تحدث بركليس عن شخصية شعب أثينا ؛ اتجاهاته نحو المشاركة السياسية، الدستور، وتدريبه العسكرى، روحه النبيلة ، وحبه للجمال والحكمة . لخص بركليس هذا كله بقوله : «وأقول، إذن ، فى كلمة واحدة ، إن مدينتنا ، بكيانها الكلى، هى مدرسة الإغريق».

وفى القرن الثانى الميلادى شكا الرحالة باوسانياس (Pausanias) من أن مدينة معينة يسكنها الفوكيون (Phocians) لاتكاد تستحق لقب مدينة دولة ؛ إذ كان ينقصها المبانى الحكومية ، والجمنازيوم ، والمسرح ، فضلا عن ساحة السوق وأنابيب المياه. وعلى الرغم من أن باوسانياس كان يكتب بعد سبعمائة سنة من العصر الذهبى للمدينة الدولة، فإنه كان يعكس المفهوم الإغريقى عن المدينة الدولة باعتبارها مركز الحضارة .

لقد كان أرسطو يرى أن المدينة الدولة هى الوحدة الطبيعية للوجود الإنسانى. ورأى «أن أى إنسان تدفعه طبيعته ، لاظروفه ، إلى الحياة بعيدا عن المدينة الدولة لهو إنسان أدنى من مستوى البشر أو فوق مستوى البشر» . إن تنظيم المدينة الدولة هو الذى يفصل الإغريق عن البرابرة . وعلى هذا الأساس وضع البرابرة فى نفس مكانة العبيد. فبالنسبة لأرسطو والإغريق كانت المدينة الدولة تمثل الحضارة بجناحيها الضروريين ، أى العدالة والقانون . وقال أرسطو «إن الإنسان هو أفضل الحيوانات عندما يصل إلى حد الكمال، ولذا فإنه أسوأها عندما يتخلى عن القانون والعدالة» .

إن ثلاثية «الاورستيا» لأيسخيلوس توضح تماما فكرة العدالة فى المدينة الدولة. إذ تعكس هذه الثلاثية الصراع بين قانون الدم القديم الداعى للانتقام والعقاب وعدالة المدينة المستنيرة . ففى المسرحية الأولى فى هذه الثلاثية ، «أجاممنون» ، نجد البطل أجاممنون يعود من الحرب الطروادية إلى مملكته فى أرجوس وإلى زوجته كليتمنسترا ، ومعه كاسندرا ، وبسبب ما تحرقها للانتقام لدم ابنتها افيجينيا (التى ضحى بها أبوها دونما رحمة فى أوليس قبل عشر سنوات لكى تهب ريح تدفع أشرعة الأسطول الإغريقى)، قامت بقتل زوجها وهو يستحم ببلطة وأجهزت على كاسندرا . وطبقا للقانون القديم كانت الجريمة الأولى تستدعى جرائم أخرى للانتقام . وإلى أن يتم الانتقام لجريمة قتل ذوى القربى، كان الدنس وخطيئته يظل محيطا بأسرة القتيل .

أما فى المسرحية الثانية من الثلاثية ، «حاملات القرابين» يتلقى أورستيس أمرا من أبوللو بالانتقام من قتلة أبيه لئلا تقوم ربات الغضب من الأرض لكى تطارده وتزعجه ، ولئلا تجلد جسده المسخن بالكدمات الملاحق باللعنات وترغمه على أن يهيم على وجهه فى أرجاء الأرض؛ طريداً منبوذاً مكروها من البشر، وفى النهاية يموت ضائعا منهكا فى ميتة أليمة . وقد وافق زيوس على هذا من أجل صيحات العدالة التى

تنادى بعقاب القاتل ، ولذا أصدر أبوللو ، رب الحضارة والمدينة الدولة، والعدالة والتنوير أوامره إلى أورستيس .

وتنتهى مسرحية «حاملات القرابين» بأورستيس ينتقم لاغتيال أبيه يذبح أمه، كان لابد لكليتمنسترا أن تموت ؛ لأنها حطمت الروابط الأسرية وكسرت النظام الاجتماعى بقتل زوجها الملك . وعلى أية حال ، فإن تلك الربات نفسها كانت ستطارد أورستيس إذا لم ينتقم لأبيه ، ثم تحولن إلى المطالبة بدم أورستيس نفسه لأنه دنس رابطة الدم عندما قتل أمه . وفى مسرحية «ربات الرحمة» وهى آخر مسرحيات الثلاثية، نجد ربات الانتقام والغضب ، حاميات العدالة القبلية ، تتعارك مع آلهة الأوليمب ، أى آلهة المدينة الدولة . ويهرب أورستيس من الربات المنتقمات محتميا بقلعة أثينا (الاكروبوليس) . وقد تمكنت الربة أثينا من الوصول إلى تسوية مع زيوس على أساس أن يُقدم أورستيوس للمحاكمة أمام مواطنين من أثينا . وطرح كل جانب حججه . ففى جانب كانت العدالة والرحمة ، وفى الجانب الآخر كان الانتقام . بيد أن المحكمة فشلت فى الوصول إلى قرار من خلال التصويت ، فى إشارة رمزية إلى تساوى الدعاوى بين القانون الطبيعى والانتقام البدائى من جهة ، والنظام وعدالة المجتمع المتحضر من جهة أخرى . وكانت الكلمة النهائية لأثينا باعتبارها رئيسة للمحكمة وقد قالتها لصالح أورستيس . عندئذ هددت ربات الغضب بتحطيم مدينة أثينا، ولكن الربة أثينا تمكنت من إقناعهن بتكملة المدينة الدولة بدلا من معارضتها ، فالمدينة الدولة لايمكن أن تقوم بدون العوامل الأولية للعدالة الطبيعية ، كما يستحيل وجودها فى ظل تلك الفوضى الناجمة عن ذلك . وهكذا كان يجب أن تتحول ربات الغضب إلى «ربات الرحمة» اللاتى يعاقبن العنف والمروق الذى هو خروج على طبيعة المدينة الدولة وضد طبيعة الأسرة ، وصرن حاميات لذلك النظام الاجتماعى الجديد الذى يقوم على أساس العدالة فى المدينة الدولة .

وبالتدريج تطورت المدينة الدولة من بين أطلال الحضارة الموكينية . فحوالى سنة ٢٠٠٠ ق.م . تدفق الإغريق إلى البلاد التى صارت بلادهم بعد أن قضوا على السكان الأصليين هؤلاء الإغريق الذين نطلق عليهم اسم الموكينيين نسبة إلى قلعتهم الرئيسية ، نشروا ثقافتهم حتى الأجزاء القاصية فى بلاد الإغريق . وشادوا مدنا ضخمة على مساحة شاسعة بها من المآثر الهندسية ما جعل الإغريق اللاحقين يعتقدون أن العمارة الموكينية قد شادها ذلك الجنس الأسطورى من المردة المعروفين باسم

كيكلوبيس(*) (Cylcopes) . وخلال العصر الموكينى بلغت بلاد الإغريق القمة من الناحية الاقتصادية .

وفى زمن دخول الموكينيين بلاد اليونان كانت هناك بالفعل حضارة عظيمة متقدمة فى منطقة البحر الايجى مركزها كريت. وكانت تعرف باسم الحضارة المينوية نسبة إلى الملك الأسطورى مينوس (Minos) وامتدت التجارة المينوية المزدهرة عبر البحار حتى مصر إبان العصر المينوى الباكر (٣٠٠٠-٢١٠٠ ق.م) وتكشف كمية الذهب والجواهر التى وجدت فى مبانى تلك الفترة عن مدى نجاح تلك التجارة وانتشارها . وحوالى سنة ٢٠٠٠ ق.م كانت المدن الكبيرة التى تركزت حول القصور غير المسورة قد أخذت فى النمو والازدهار فى كريت، وكان أعظمها القصر المعروف باسم «قصر مينوس» فى كنوسوس (Cnossos) وبدافع من التأثير الأجنبى الذى جاء فى ركاب التجارة ازدهرت الحضارة المينوية بسرعة وابحرت السفن المينوية على طول الساحل الشرقى للبحر المتوسط كله، لتصل إلى مصر وجنوب الأناضول وجزر بحر ايجه .

بيد أن القلاقل السياسية والحروب التى اندلعت فى الشرق الأدنى إبان القرنين الثامن عشر والسابع عشر ق.م . أدت إلى تدهور التجارة المينوية تدهورا حادا . وبعد أن أضطر المينويون إلى توسيع أسواقهم ، ولوا وجوههم صوب بلاد الإغريق أكثر من ذى قبل ، وهو تحول نلمس دلائله واضحة من خلال التأثير المينوى على الفخار

(*) الكيكلوبيس Cyclopes :

مخلوقات ذوات عين واحدة فى جباههم . وهم أبناء اورانوس وجيا . ساعدوا زيوس بعد أن حررهم من تارتاروس وصنعوا له صاعقة . وعندما انتهى البطل اوديسيوس ورجاله أثناء رحلته الشهيرة إلى أرض الكيكلوبيس وقعت عيونهم على مروج خضراء وحدائق تموج بفاكهة تنبت وتثمر دون أن تمتد يد بجهد ، وعلى كهوف تهبط إلى أغوار سحيقة يقطن فى كل منها عملاق مع أسرته وقطعانه . وقد دخل اوديسيوس ورجاله كهف أحد هذه المخلوقات ويدعى بوليفيموس . وحبسهم هذا العملاق داخل كهفه بعد أن سد مدخله بحجر يعجز عن زحزحته عشرون ثورا . وكان يأكل كل يوم بعض رجال ديونيسوس ، وفى يوم تفتق ذهن اوديسيوس عن حيلة للتخلص من هذا المأزق فصنع من غصن شجرة رمحا مدببا وأخفاه . وبعد أن أكل العملاق وشبع قدم إليه اوديسيوس كأسا من خمر كان قد أعطاه إياها كاهن أبوللو . وما إن تذوقها العملاق حتى طلب كأسا ثانية وثالثة ، وكلما شرب واحدة طلب أخرى حتى فقد وعيه فنهض أودسيوس إلى الزمح الذى هيأه فتناوله ووضع طرفه فى النار حتى يحمى ثم دسه هو واربعة من رجاله فى عين العملاق الوحيدة . وبذلك أمكن لأودسيوس ورفاقه الهروب بعد أن خرجوا من الكهف ، الذى فتح العملاق بابه الضخم، متخفين أسفل كباشه كثة الصوف .

الإغريقى. وفى سنة ١٦٠٠ ق.م ، تقريبا ، ضرب زلزال مدمر كنوسوس التى كان قد أصابها زلزال آخر حوالى سنة ١٧٥٠ ق.م . تقريبا ، بيد أنها تمكنت فى المرتين من استعادة قوتها بسرعة . لقد بنى الموكينيون امبراطوريتهم التجارية بفضل تأثير الثقافة المينوية التى استطاعت أن تنافس المينويين على الأسواق المصرية بنجاح فى غضون القرنين السادس عشر والخامس عشر ق.م . وعندما تم تدمير قصر كنوسوس سنة ١٤٠٠ كانت مجرد ظل لما سبقها فى تلك المرحلة من وجودها . ففى كريت (Crete) ، على سبيل المثال كانت حوالى مائة دولة قد حلت محل الوحدة السابقة التى ضمت الجزيرة . وكان ذلك يعنى أن هناك مائة دستور، ومائة جيش ، ومائة حكومة . وفى أسفل القلعة كان يوجد السوق (Agora) ، بالإضافة إلى مساكن غالبية السكان الذين كانوا يسيرون عادة من حقولهم إلى منازلهم فى المدينة . وصارت القلعة بمثابة المركز الدينى للدولة بالإضافة إلى معابد إله الدولة. وعادة ما كان يقام سور يحيط بالقلعة وساحة السوق، وبعض الأماكن المفتوحة ، كما يحيط بالمدينة الرئيسية . داخل الأسوار كانت توجد كذلك المعابد ، ومراكز ديانة الدولة ، والمبانى الحكومية .

وعلى أية حال ، كانت المدينة الدولة تعنى ما هو أكثر من المدينة الرئيسية المسورة، إذ كانت تضم أيضا ظهير المدينة . وتقدم لنا أثينا مثلا طيبا على ذلك . فلم تكن أثينا تضم المدينة فقط، وإنما اشتملت على أتيكا (Attica) بأسرها ، وهى منطقة مساحتها حوالى ألف ميل مربع . وثمة أسطورة أثينية تقول ان ثسيوس(*) (Thesseus) قد وحد أتيكا تحت قيادة واحدة، ولكن الحقيقة أن توحيد أتيكا كان عملية تدريجية تمكنت أثينا

(*) ثيسيوس Thesseus :

نشأ ثيسيوس بن ايجيوس فى رعاية أمه أيثرا ووالدها بيتيوس الحكيم ملك ترويزين . وعندما شب عن الطوق علمه الكنتور خيرون الصيد وأخذ يمارس الرياضة البدنية حتى قيل أنه مبتكر رياضة المصارعة . وكان شجاعا تصدى للقضاء على كل المخاطر التى تعرض لها قومه ، وبلغ ثيسيوس مدينة أثينا حيث يحكم والده ايجيوس ولم يكن أحدهما يعرف الآخر . ظن ايجيوس أن القادم هو البطل المحارب الذى تنبأ العرافون بمقدمه يوما فتحركت الخشية فى نفسه وأقام له مأدبة على أن تقدم له فيها زوجته ميديا شرابا ساما . وحينما جلس ايجيوس إلى المائدة استل ثيسيوس سيفه ليقطع به اللحم فتعرف ايجيوس على سيفه وعرف ابنه فاسرعت ميديا بالهرب إلى أسيا . قام ايجيوس فأعلن مقدم ابنه ثيسيوس ونصبه خليفة له على عرشه . ارتقى ثيسيوس عرش اثينا بعد موت أبيه ومضى يستحدث اصلاحات هامة فضم القبائل الاثنتى عشرة المستقلة فى أتيكا إلى أثينا، وأسس الحكم الأيونى فى أزمير بأسيا الوسطى، وبدأ فى سك النقود وأقام أعياد الباناثينايا تمجيدا للربة أثينا وشن عدة حملات ضد شعب الأمازونات وخطف مليكتهن أنتيوبى وتزوجها وانجب منها هيبوليتوس .

خلالها من اخضاع كل المدن الصغيرة لتجعل منها جزءًا من الدولة . بيد أن تلك العملية لم تكتمل حتى القرن الثامن ق.م عندما ضُمت مقاطعة اليوسيس (Eleusis) إلى المدينة الدولة. وكان كل سكان أتيكا مواطنين فى المدينة الدولة . وكانت المدينة هى المركز الدينى والسياسى للدولة ؛ حيث كانت تعقد الاجتماعات ، وحيث كان الناس يجتمعون لممارسة حقهم فى التصويت . ولم تكن معظم الدول البحرية تقع على البحر مباشرة بالفعل ، ولكنها كانت تتوغل بضعة أميال نحو الداخل مثلما كان الحال فى أثينا . إذ كان ميناؤها بيريه (Piraeus) يقع على بعد ثلاثة أميال من الأكروبوليس تقريبا . وأخيرا ، حدث فى منتصف القرن الخامس ق.م . أن امتدت أسوار المدينة لتضم الميناء الذى كان قد نما فى ذلك الحين ليصبح مركزا تجاريا مزدهرا . وعندما كان أرسطو يكتب عن مدينته المثالية التى تمثل فيها النظام الفعلى ركز على وحدة المكان؛ فالأرض يجب أن تكون واسعة بحيث توفر الاكتفاء الذاتى للمدينة وبحيث تتيح للسكان أن يحيوا حياة تنعم بوقت الفراغ الحر غير المتطرف . كما يجب أن يكون موقعها متوسطا بين البر والبحر، وأن تكون على اتصال بكل أجزاء المقاطعة بحيث يمكن إرسال المساعدات العسكرية ، وبحيث يسهل نقل المحصولات الزراعية إليها . كما يجب أن تكون الأرض صعبة الغزو أمام الأعداء ومنيعة بحيث يسهل الدفاع عنها . ويعكس نموذج المدن الدول الإغريقية ذلك المثال الذى حدده أرسطو. وبالإضافة إلى تلك المدن التى تركزت حول الاكروبوليس كانت أشباه الجزر والجزر المواجهة للشواطئ ، والمناطق الأخرى التى يسهل الدفاع عنها تمثل مواقع مفضلة لإنشاء المدن.

كانت إسبرطة (Sparta) أكبر مدينة دولة من حيث الحجم ، إذ وصلت مساحتها حوالى ٣,٣٠٠ ميلا مربعا ، وهى مساحة أكبر مرتين من المدينة التالية لها فى الحجم، وثلاثة أضعاف أية مدينة أخرى فى جميع أنحاء بلاد الإغريق. ويمكن فهم ذلك الحجم الخارق للعادة من خلال ذلك البناء الحكومى والاجتماعى الذى كان يميز إسبرطة عن سائر المدن الدول ، وجعلها دولة إقليمية بالفعل . ومثلما كان الحال فى المدن الدول الأخرى، كانت اسبرطة هى العاصمة السياسية ، على حين كانت الدولة خاضعة لحكم أقلية قوية من المواطنين الاسبرطيين الذين عرفوا باسم (Spartiates) وكانوا يمضون حياتهم جنودا محترفين تولوا اخضاع السكان فى أراضيهم ، وكان غالبية أولئك السكان من الأقنان الذين عرفوا باسم (Heltos) وكانت مهمتهم زراعة الأرض .

وباستثناء أثينا وإسبرطة ، فإن مدناً قليلة فى بلاد الإغريق هى التى تجاوزت مساحة ٤٠٠ ميل مربع . وكانت مدينة ديلوس (Delos) من أصغرها ؛ إذ بلغت مساحتها ميلين مربعين فقط . أما كورنثه (Corinth) فكانت مساحتها ٣٤٠ ميلا مربعا ، كانت ايجينا (Aegina) ٣٣ ميلا مربعا ، على حين بلغت مساحة ساموس (Samos) ١٨٠ وقد ضمت مقاطعة فوكيس (Phocis) ، التى كانت مساحتها ٦٣٠ ميلا مربعا ، اثنتين وعشرين مدينة دولة. أما مدن الدول التى قامت فى جنوب ايطاليا وصقلية ، حيث كانت الأرض أقل تمزقا بفعل الطبيعة ، فقد قامت على مساحات أكبر ، وكانت سيراكيوز (Syracuse) أكبرها إذ بلغت مساحتها ١٩٨٣ ميلا مربعا ، على حين كانت مساحة اكراجاس (Acragas) ١٦٧٠ ميلا مربعا .

وكان عدد السكان قليلا أيضا . وطبقا للنموذج المثالى الذى وضعه أرسطو كان ينبغى أن يكون كل مواطن قادرا على معرفة بقية المواطنين عندما يراهم ، كما كان من رأيه أن الحد الأدنى لعدد السكان فى المدينة الدولة هو ذلك العدد الذى يسمح لها بالاكتفاء الذاتى وأن يمكن سكانها من الحياة بشكل جيد. فعلى الرغم من أن المدينة الكبيرة ستحقق الاكتفاء الذاتى، فإن قيادتها وحكمها سيكون أمرا صعبا . وهكذا فإن المدينة التى تضم عشرة مواطنين يستحيل وجودها مثلما يستحيل وجود مدينة تضم مائة ألف نسمة . وبالنسبة لأفلاطون فإن المدينة المثالية هى تلك التى تضم خمسة آلاف مواطن ، وهو ما يعنى وجود جمهور من السكان يبلغ حوالى خمسين ألفا بما فيهم النساء والأطفال والعبيد وغير المواطنين . لقد كان الاختلاف بينا بين المدن الدول فيما يتعلق بعدد السكان، وكان متوسط عدد السكان حوالى عشرة آلاف مواطن فى أقوى المدن (وهو رقم اعتبره مخطط المدن هيبوداموس رقما مثاليا) .

ويضع أرسطو تعريفا للمدينة الدولة فيقول إنها «شركة بين العائلات والعشائر من أجل أن يعيشوا عيشة راضية ... كما أن هدفها تحقيق حياة مستقلة كاملة» . وقد بقيت المدينة الدولة قائمة على أساس كونها تنظيما معقدا يقوم على أساس صلة القربى والتنظيم القبلى مثلما كان أصلها . وقد وجد التقسيم الداخلى الذى يقوم على أساس ثلاث أو أربع قبائل فى كل المدن الدول الإغريقية تقريبا . إذ كانت القبائل تمثل الوحدة الأساسية على المستوى الادارى والعسكرى للدولة . وبتطور المدينة الدولة

ضعفت الرابطة التى كانت تربط قبيلة ما فى احدى المدن بأبناء نفس القبيلة فى مدينة أخرى. ولم تعد للرابطة القبلية أهمية سوى داخل المدينة نفسها . وعلى الرغم من أن القبائل بدأت باعتبارها رابطة قرابة لأبناء سلالة واحدة ، فإن المدن قد غيرت بالتدريج، وعبر أزمنة مختلفة ، أسس عضوية القبيلة وجعلتها قائمة على أساس محلى. وحتى بعد هذا الإصلاح ، غالبا ما بقيت عضوية القبائل وراثية مثلما كان الحال فى أثينا .

كان هناك تقسيمان فرعيان انبثقا عن القبيلة هما البطون والعشائر ، وكان كل مواطنى أثينا الكلاسيكية أعضاء فى البطون (Phratries) التى كانت مسئولة عن شئون الزواج، والتبنى، والمواليد ، فضلا عن شعائر العبادة . وقد أخذت البطون فى التدهور بعد ذلك ، فى القرن الرابع ق.م . أما العشائر ، فقد كانت فى أثينا، وربما فى مدن أخرى أيضا، تتألف من الأرستقراطيين تحديدا ، على الرغم من أنها كانت تضم كافة سكان أتيكا فى يوم من الأيام . وكانت لكل عشيرة ديانتها الخاصة بها. وفى بعض الأحيان كانت هناك عشائر بعينها تزود المدينة الدولة بالكهنة . وفى الفترة الباكرة من تاريخ المدينة الدولة كانت العشيرة بمثابة القاعدة التى تقوم عليها السلطة الأرستقراطية ، ولكن عندما صار للتقسيم القبلى القوة الفاعلة، فى التنظيم السياسى للمدينة الدولة فقدت العشيرة أهميتها ، على الرغم من احتفاظها بمكانة إجتماعية أكبر. ومن ثم ، بقيت العشائر بعد تدهور علاقات القربى وظلت قائمة حتى العصور الرومانية . وكانت الأسرة هى أصغر وحدة فى الدولة ، وكانت تتألف من الأسرة النواة التى تضم الزوج والزوجة والأولاد، ثم العائلة الممتدة ، ثم التابعين بما فيهم العبيد .

وعلى الرغم من أنه كانت للإغريق لغة مشتركة وتراث مشترك، ومجمع دينى مشترك يضم كل الآلهة برئاسة زيوس، فإن المدن الدول قد بلورت اختلافات دينية كبيرة تضمنت عقائدهم الخاصة ؛ مما أدى إلى مزيد من الانفصال بين المدن الدول . فعلى سبيل المثال كانت حامية مدينة أثينا هى الربة أثينا (Polias) ولكنها كانت تعبد فى أسبرطة باعتبارها ربة أقل شأنا، وهى أثينا ربة البيت النحاسى . وقد اتخذت مدينة أرجوس (Argos) الربة هيرا ربة حامية لها، على حين انحصرت مهمتها فى أثينا باعتبارها الربة حامية المنزل. فضلا عن أن الريف كان يغص بأضرحة عديدة كانت مكرسة لأهم الآلهة والأبطال المحليين ، وكانت تلك بمثابة مراكز دينية للعائلات والبطون ، وقد زادت من حدة الفرقة الدينية .

وقد أدت صلات القربى ، والبنية القبلية ، والاختلافات الدينية ، والأهم من ذلك العزلة التى فصلت بين المدن وبعضها منذ وقت مبكر ، إلى خلق ممارسة مقيدة لحق المواطنة . وعلى الرغم من أن حقوق الضيافة كانت تحمى الغرباء . وقد كانت إحدى مهام زيوس حماية الغرباء. فان كل من كان خارج المجتمع كان محل ريبة حتى لو قدم من بلدة أخرى على مسافة قريبة . لقد كان الغرباء بمثابة أعداء . وقد منعت إسبرطة - التى كانت متطرفة فى هذا- الغرباء من الاقامة فى أراضيها . بيد أنه عندما خفت حدة هذا الاتجاه قليلا لم يستقر بها سوى عدد قليل من الغرباء . ولكنهم كانوا يتعرضون للطرد بين الحين والآخر. بل إنه حتى فى أثينا القرن الخامس ق.م . كان الأجانب يعتبرون دخلاء ، كما أنهم لم يتمتعوا بحقوق المواطنة، على الرغم من أنهم شكلوا حوالى ١٠ ٪ من عدد السكان ، وقد تحملوا كافة الأعباء التى يتحملها المواطنون .

كانت كراهية الأجانب والخوف منهم خصائص عالمية تقريبا ، وقد انعكس هذا ، فى اللغة التى استعملتها حضارات كثيرة للدلالة على أولئك الذين ليسوا أعضاء فى مجتمعهم . إذ يروى هيرودوت أن المصريين القدماء أطلقوا اسم «البرابرة» على من لايتحدثون لغتهم . أما الصينيون فقد أطلقوا اسم «الشياطين» على الأجانب. كما أن العبرانيين أطلقوا على غير اليهود اسم «جوييم» الذى كان معناه الأصلى الأمميين، ولكنه صار يعنى من هم ليسوا يهودا، ثم اكتسب معانى مشينة . كذلك أطلق الإغريق على من لايتحدث اليونانية اسم «بربرى» ، وهى كلمة كان معناها الأصلى الشخص الذى يتحدث بلغة غير مفهومة ، أى ذلك الذى يتحدث بأية لغة أخرى غير اليونانية. ولكن بحلول القرن الخامس ق.م . اكتسبت الكلمة المعانى التى نعنيها نحن بكلمة «بربرى» . بل أن اليهود المتأغرقين كانوا يشيرون إلى غير اليهود بكلمة «برابرة» ، وهو استعمال يدعو إلى السخرية حيث أن ذلك الاسم كان يستخدم للإشارة إليهم قبل عدة قرون . وقد اقتبس أرسطو المستنير بكل الرضى قول يوريبيدس : «إن من الحق والطبيعى أن يحكم الإغريق البرابرة ... حيث إن البرابرة عبيد بالطبيعة ، والإغريق أحرار بطبعهم».

وبالإضافة إلى مشاعر التقوقع على الذات ، التى شاركت فيها المدن الدول الإغريقية الباكرة مجموعات محلية وجنسية أخرى عديدة، والتى تدعمت بفضل انعدام الاتصال مع الدول الأخرى، فإن النسيج الاجتماعى والدينى لعلاقات القربى، والعشائر

ديانات العشائر التى انتشرت بين الإغريق قد حالت بين الغرباء وتحقيق مكانة متساوية داخل المجتمع الإغريقى، وظل الغريب غريبا داخل بوابات المدينة. وقد زاد وضع الغريب سوءا بعدم القدرة على امتلاك الأرض التى كانت كلها بأيدى القبائل التى لم يكن ممكنا أن يملكها سوى أعضاء هذه القبائل. وفى الفترات الباكرة كانت الأرض (أو جزء منها على الأقل) لاتنتقل ملكيتها سوى بصعوبة . وربما يكون هذا الوضع قد استمر حتى القرن الخامس ق.م فى بعض الدول مثل إسبرطة ، حيث كان الامتداد الأصلى للأرض كما حددتها الدولة عند مولدها غير قابل للتغيير. وهكذا ، كان من المستحيل تقريبا أن يمتلك الأجانب الأرض، وحتى الأماكن والفترات التى كان يمكن فيها بيع الأرض، كان من المعتاد منع الأجانب من شرائها. وبينما كانت ملكية الأرض متطلبا أساسيا للحصول على المواطنة فى بعض الدول، كانت مساحة الأرض المملوكة تحدد حقوق التصويت والمناصب التى يحق للفرد توليها. هذه المؤهلات استبدلت فيما بعد بحجم الثروة الشخصية للفرد فى بعض الدول .

كان أحد المتطلبات الأساسية للحصول على حق المواطنة يتمثل فى الانتماء إلى القبيلة والعشيرة ، كما ارتبطت الإدارة الحكومية ، لاسيما انتخاب الحكام ، بالقبيلة. وعموما كانت الوسيلة الوحيدة للانتماء إلى القبيلة أن يكون الشخص ابنا لأحد أعضاء القبيلة . وقد لعب النسب الأصلى دورا حاسما فى بعض المناطق ، إذ كان يتحتم أن يكون الشخص ابنا لأبوين يتمتعان بحقوق المواطنة، أو يكون أحدهما مواطنا ويكون الآخر من مدينة تربطها معاهدة زواج بمدينته . وفى القرن الخامس أقر فى أثينا مبدأ أن الزواج بين مواطن وأجنبية (أو مواطنة وأجنبى) ينتج عنه أبناء ليس لهم حق المواطنة ، وعلى أية حال ، كان مثل هذا الزواج يعتبر قانونيا فى العديد من المدن مثل قورينى (Cyrene) التى كانت حدودها مشتركة مع أراضى أجنبية ، وكان هذا النمط من الزواج يحدث كثيرا . وفى بعض الدول الأكثر تحررا (مثل أثينا فى القرنين السابع والسادس) حدث فى بعض الأوقات أن حصلت أعداد من الأجانب على حقوق المواطنة من خلال علاقتهم بطاغية المدينة، لاسيما وأن علاقات القربى والعلاقات القبلية كانت قد فقدت الكثير من أهميتها مع اتساع المدينة الدولة .

وكان بمقدور المدينة الدولة منح حقوق المواطنة لقاء مساهمة خاصة للصالح العام. وحتى القرن الرابع ق.م. لم يكن ذلك يحدث سوى لأولئك الذين فقدوا حق المواطنة فى بلادهم . وفى بعض الأحيان كانت المدينة الدولة تسحب حق المواطنة مما يتطلب نفى

الشخص، بيد أن تلك العقوبة القاسية لم تكن تطبق سوى فى الجرائم السياسية أو الدينية الكبرى. وكان يمكن للدولة أحيانا أن تراجع قوائم مواطنيها مثلما فعلت أثينا فى التطهير الذى حدث سنة ٤٥١-٤٥٠ ق.م . وبناء على هذه المراجعة كان يتم حرمان المواطنين من حقوق المواطنة .

كانت حقوق المواطنة تجلب معها ميزات اقتصادية لاسيما ما يتعلق منها بملكية الأرض كما رأينا. بيد أنها كانت تعنى ما هو أكثر من ذلك، كانت تعنى عضوية جماعة سياسية واقتصادية . وبما أن المشاركة فى الحياة السياسية كانت شائعة فى مدن مثل أثينا، فإن منع الأجنبى من هذه المشاركة كان يحول بينه وبين جزء هام من حياة المدينة. لقد كان من الممكن الترحيب بالأجنبى فى أى بيت وقيام صداقة بينه وبين المواطنين ، ولكنه كان محروما من عضوية معظم التنظيمات مثل العشيرة التى كان دورها فى الأصل دينيا سياسيا ، ولكنها لعبت دورا هاما فى المحيط الاجتماعى. ففى أوربا الحديثة وأمريكا حيث تعنى المواطنة حق التصويت الدورى فى الانتخابات والالتحاق بالوظائف الحكومية (وهو أمر لايتاح سوى لعدد محدود جدا) يستطيع من لايتمتع بحقوق المواطنة أن يحيا مثلما يحيا أى مواطن . ولكن فى بلاد الإغريق القديمة كان غير المواطن مستبعدا عن الحياة السياسية، كما كان ممنوعا من المشاركة فى العديد من النشاطات الدينية والاجتماعية فى المدينة الدولة . وباختصار كان الأجنبى فى المدينة الدولة غريبا دونما سند فى مجتمع لكل فرد فيه قيمته .

كان حوالى ١٠٪ من مجموع سكان المدينة الدولة مواطنين يتمتعون بحقوق المواطنة (إذ كان البالغون من الذكور فقط هم الذين يعتبرون مواطنين كاملين) . ولقد اختلفت النسبة المئوية، بطبيعة الحال، حسب طبيعة الدولة، وإذا ما كانت أوليجاركية ، أو ديموقراطية ، وحسب درجة تحرر النظام. كان هناك اتجاهان سائدين بمعظم المدن الدول آنذاك ، وهما رغبة الشعب فى المساواة ، والرغبة فى حصر حقوق المواطنة فى نطاق الأقلية، وكان هذا الاتجاه يميل إلى جانب الأوليجاركية ذات النفوذ والثراء . لقد كان نمط الحكومة الأوليجاركية هو النمط السائد فى بلاد الإغريق فى القرن الثامن ، باستثناء أثينا والمدن الدائرة فى فلكها . وفى القرن الخامس ق.م . بلغ الصراع الكبير بين الأوليجاركية والديمقراطية ذروته . بيد أن الشكل الإغريقى لكل من الديمقراطية والأوليجاركية كان هو نفس النمط فى الأساس. إذ كان جميع المواطنين المتمتعين بحقوق المواطنة الكاملة يمسكون بزمام الحكم فى كل من النظامين ، ولكن نسبة

المواطنين فى الأوليجاركية كانت أقل من نسبتهم فى الديموقراطية ، وهكذا كانت الأوليجاركية ديمقراطية ولكن بعدد أقل من المواطنين .

وعلى الرغم من أن المرأة كانت مواطنة من الناحية القانونية الفنية، فإنها لم تحصل على أية حقوق سياسية من الناحية الفعلية. ففى معظم المدن لم تكن تستطيع أن تظهر أمام المجلس بالفعل دون أن يكون معها متحدث من الذكور ، كما لم يكن بمقدورها أن تمتلك أى عقار ، وكانت محرومة من حق التصويت فى كافة المدن . وفى أثينا كان حق المرأة الوحيد تقريبا يتمثل فى حق أولادها بالتمتع بالمواطنة ، بشرط أن تكون متزوجة من مواطن . وعلى أية حال ، كان من حق النساء فى أسبرطة وبعض المدن الأخرى تملك العقارات . وفى جورتين (Gortyn) المدينة الرئيسية فى كريت، كانت النساء تستطيع الظهور أمام المجلس ليتحدثن عن أنفسهن . وفيما بعد تم تحديد حقوق المواطنة بالسن ؛ إذ كان سن الأغلبية يتراوح بين الثامنة عشرة والعشرين . وغالبا ما كان الرجل ممنوعا من تولى أى منصب أو المشاركة الكاملة فى الهيئة السياسية الحاكمة قبل سن الثلاثين، وكان سن الستين شرطا أساسيا لانضمام الشخص إلى السناتو الاسبرطى .

كانت هناك فئات معينة من المواطنين الذكور البالغين لايتمتعون سوى بحقوق سياسية محدودة. وكان أبناء الطبقات الدنيا مواطنين اسميا، ولكنهم كانوا فى البداية مستبعدين من ممارسة أى سلطة سياسة . وكان هذا راجعا إلى أسلوب الحرب السائد آنذاك . إذ لم يكن أولئك الذين لايشاركون فى الدفاع عن الدولة يملكون القوة الكافية التى تمكنهم من المشاركة فى الحكم ولكن بتغير طرق الحرب ، بداية من سنة ٧٠٠ ق.م ، بادخال نظام الجندى الثقيل التسليح (hoplite) ، بدأ عدد أكبر من السكان يشاركون تدريجيا فى الحرب، وحصلوا بالتالى على حقوق التصويت وتولى المناصب .

وفى أثينا منذ القرن السادس ق.م، مثلا ، لم يكن باستطاعة الطبقات الدنيا من المواطنين (Thetes) أن يتولوا الوظائف على الرغم من أنه كان بوسعهم المشاركة فى الاجتماع الشعبى، ولكن عندما زاد اعتماد أثينا على البحر فيما بعد ، استطاع أبناء الطبقات الدنيا الحصول على حقوقهم ؛ لأنهم كانوا يجندون فى الأسطول .

وهناك مجالان كانت فيهما مثل هذه الممارسات المقيدة لحقوق المواطنة على نحو سبب أذى كبيرا للتطور السياسى الإغريقى ، وهما الاستعمار والغزو . فعندما كان

الإغريقى يترك موطنه لكى ينضم إلى مستعمرة ما كان يخسر حق المواطنة فى مدينته الأصلية، إذ صارت المستعمرة مدينة دولة أخرى مستقلة بدلا من أن تكون امتدادا للمدينة الأصلية. كذلك ، عندما كانت الهزيمة تحل بمدينة إغريقية على يد مدينة أخرى، كانت ممارسات المدينة المنتصرة لتقييد حقوق المواطنة، وإحساسها بالتفوق ، وعدم رغبتها فى التنازل عن أى قدر من استقلالها الذاتى يؤدى إلى إحجامها عن ضم المدينة المهزومة . ونتيجة لذلك كان من النادر أن يدوم الغزو ، وبذلك ظل تعدد المدن الدول المستقلة على حاله .

لقد لاحظ أرسطو وأفلاطون ، بثاقب بصيرتيهما ، أن مفتاح المدينة الدولة يكمن فى الاكتفاء الذاتى (Autarkia) الذى قالا إنه يجب أن يتوفر فى كل شئ ؛ السكان المساحة ، والحرف والصناعات . وحدد أرسطو مبادئ ستة ضرورية للمدينة الدولة هى : إمدادات الطعام – أرباب الحرف والمهن– الأسلحة – التمويل– الديانة– والنظام القانونى، مع الحرف والمهن المناسبة لذلك .

لقد أتاح الاكتفاء الذاتى تطور المدينة الدولة ودعم هذا التطور فى العصور المظلمة الإغريقية ؛ بيد أنه بعد أن وصل تطور المدينة الدولة إلى نقطة معينة صار حجمها وتعقيدها عاملا معاكسا لاستقلالها التام . وبينما كانت التجارة فى أدنى مستوياتها، وكانت المجتمعات منفصلة بفعل الجغرافيا ، اضطرت المدينة الدولة للاكتفاء الذاتى. ولكن بمرور الوقت فرضت الزيادة السكانية تأسيس المستعمرات التى شجعت التجارة. وبالإضافة إلى ذلك كانت المدينة الدولة بحاجة إلى عامل خارجى منشط لكى تتجنب الركود. بيد أن الاتصال الخارجى خلق نظاما عالميا جديدا لم تعد تناسبه المدينة الدولة التى لم يعد ممكنا أن تتوافق معه سياسيا .

وكانت أثينا وإسبرطة تمثلان الطرف الأقصى فى الاكتفاء الذاتى، بيد أن كلا من هذين المثلين المتطرفين أدى إلى سقوط المدينة الدولة . فقد ذبلت إسبرطة التى كادت أن تكون مستقلة ومنعزلة تماما ، على حين صارت أثينا التى كانت تعتمد على الدويلات الأخرى حيوية بصورة لاتصدق ، وكان عليها أن تخلق نظاما يحل محل المدينة الدولة لكى تبقى . وإذ كانت إسبرطة تمتلك أرضا فسيحة تكفى لإطعام سكانها لم تهتم بحركة الاستعمار . وعندما بدأت بقية بلاد الإغريق تستخدم العملة فى أواخر القرن

السابع ق.م، لم تنهج إسبرطة نهجها ، وبذلك حافظت على استقلالها ، ولكنها عزلت نفسها اقتصاديا عن بقية بلاد الإغريق . بل إن إسبرطة عندما انتصرت لم تسع إلى استغلال فتوحاتها ، كما أنها لم تسمح للمناطق التى غزتها بالتدخل فى استقلالها الذاتى. وكانت النتيجة هى التدهور والاضمحلال . وفى القرن السابع ق.م . أظهرت إسبرطة نفس إمكانية النمو الثقافى شأن سائر بلاد الإغريق . إذ دعمت شعراء من أمثال ألكمان (Alcman) كما أنتجت فخارا فاخرا شأن بقية المدن. ولكن لأنها تحاشت التأثيرات الأجنبية وعزلت نفسها عن بقية بلاد الإغريق كان الجمود نصيبها . إذ اختفت الصناعات والحرف وصارت إسبرطة زراعية فحسب، وشيئا فشيئا أصابها العقم الثقافى. وعلى الرغم من تفوقها العسكرى، لأن مواطنيها كانوا جنودا محترفين، فقد تهرأ نسيجها الاجتماعى وتمزق ، على حين تدهور عدد سكانها بسرعة. وعلى الرغم من انتصارها فى الحرب البلوبونيزية ضد أثينا فى نهاية القرن الخامس ق.م ، فإن سقوط إسبرطة كان وشيكا حينذاك، لأن جمودها وعزلتها حالت بينها وبين تبنى الأساليب العسكرية المتغيرة ، وأن توائم نفسها مع الظروف الاجتماعية المتغيرة فى مطلع القرن الرابع ق.م .

لقد واجهت أثينا مشكلة السكان بنفس الطريقة التى واجهتها بها أسبرطة أى عن طريق توسيع أملاكها حول المدينة بدلا من الاستعمار . وعلى الرغم من عدم اهتمامها أصلا بالاستعمار والتجارة ، فإن تجارتها انتعشت فى القرن السادس ق.م تحت زعامة سولون (Solon) وبيسستراتوس (Peisistratus) . والدليل على ذلك أننا نجد الفخار الأثينى منتشرا من الجزء الغربى للبحر المتوسط حتى سواحل البحر الأسود . وفى الوقت نفسه، فإنه عندما ازدهرت زراعات الزيتون والكروم ، هبط إنتاج الغلال والمحاصيل الأقل ربحا . وفى منتصف القرن الخامس ق.م. كانت أثينا تعتمد تماما على منطقة البحر الأسود فى إمدادها بالغلال . وكما قال بركليس ، رجل الدولة الأثينى العظيم ، فى خطبته الجنائزية التى سبقت الإشارة إليها «أنه بسبب عظمة مدينتنا ترد إلينا محاصيل الأرض كلها. ونحن نتمتع ببضائع الدول الأجنبية بنفس السهولة التى نحصل بها على بضائع مدن أتيكا نفسها» . وقد فقدت أثينا اكتفاءها الذاتى بسبب اعتمادها على إمبراطوريتها التجارية الشاسعة . إذ كان من الضرورى لها أن تسيطر

على منطقة البحر الإيجى لكى تستمر قائمة كمدينة دولة ، وبذلك خلقت تنظيما تجاوز المدينة الدولة، وهو الإمبراطورية الأثينية . لقد استبدلت الاكتفاء الذاتى بالحيوية. وفى داخل بواباتها ازدهر الفن والأدب والعلم، كما احتشد الفلاسفة مثل جورجياس من ليونتينى، وبروتا جوراس من أديرا ، وأناكساجوراس من كلازميناى ، وآخرون غيرهم . أما هيرودوت ، المؤرخ الإغريقى الأول ، فقد جاء إلى أثينا من هاليكارناسوس. ويمكن تفسير عظمة أثينا فى ضوء الحافز الذى طرحه الأجانب وعبقرية أبنائها الخلاقة معا .

ومن نواحى عديدة كانت المدينة مكانا للهواة . إذ يفرض الاكتفاء الذاتى عدم التخصص ويتطلب مواطنا من طراز رجال عصر النهضة ؛ أى مواطن سياسى وجندى، ومزارع ، وحرفى . وفى القرن الخامس ق.م . كانت نسبة مئوية كبيرة من سكان أثينا قد خدموا فى الوظائف الحكومية فى فترة ما من حياتهم . وكان كل المواطنين أعضاء فى المجلس ، ولكى يحفزوا الناس على حضور جلساته كان رجال الشرطة الأثينيين يمرون فى السوق بحبل مصبوغ بلون أرجوانى لكى يدفعوا الناس إلى الاجتماع . وكان من المحتم أن يترك الحبل أثر اللون الأحمر على من يلمسهم ، وبذلك يمكن تمييز المتقاعسين . كذلك كان على المواطن أن يخدم فى صفوف الجند أو البحارة ، بيد أن هذا كان واجبا محددا بفترة قصيرة ؛ إذ كانت مواسم الحملات قصيرة الأمد . فقد كان على المواطن أن يعود لزراعة الأرض. كذلك كان الكتاب هواة، على نحو ما يتجلى بوضوح فى طلب أيسخولوس بأن يتضمن النقش الذى سيوضع على قبره ما يفيد أنه خدم جنديا فى معركة سلاميس، وليس هناك ما يشير إلى أنه فاز بجوائز المسابقات الدرامية . وقد كان الكاتب سوفوكليس قائدا فى الحملة ضد ساموس ، كما كان كاهنا لأمينوس (Amynos) له الشفاء، كما أنه حول منزله نفسه إلى معبد لعبادة أسكلوبيوس (Asclepius) خلال فترة إنشاء معبد الإله . كما كان المؤرخ ثوكيديديس قائدا . أما سولون ، المصلح العظيم ، فقد كان شاعرا مبدعا .

بل إن الهواية سادت فى مجال القانون أيضا . ولأنه لم يكن هناك مدع عام أو قضاة ، كانت التهم تعرض على أيدى الأشخاص الذين نالهم الظلم، ولم يكن بوسع المرء، أن يستأجر محاميا ، وإنما كان عليه أن يمثل أمام المحكمة متحدثا عن نفسه (على الرغم من أنه كان يستطيع أن يستخدم كاتبا للخطب) . كذلك لم يكن الكهنة

دائما فئة محترفة . إذ كان الرئيس الدينى فى أثينا ، مثلا ، وهو الملك الأرخون يُختار سنويا لتولى هذا المنصب . ومع ذلك، كان الكهنة فى بعض الأحوال ، مثل كهنة الأسرار الأليوسية ، محصورين فى أبناء عشيرة معينة أو قبيلة محددة، وربما كان ذلك نتيجة ؛ لأن الشعائر كانت فى أصلها شعائر العشيرة أو القبيلة . ولم يحدث أن بدأ التخصص فى سائر نواحى الحياة سوى فى نهاية القرن الخامس ق.م. فقد ابتدع الفلاسفة ، من أمثال سقراط ، مبدأ التخصص : بمعنى أن الرجل الماهر فى الحكم ينبغى أن يدير شئون الدولة، مثلما ينبغى لخبير تربية الخيول أن يعنى بأمور الخيل . لقد صارت الحرب أمرا ملحا ؛ بحيث لم يعد يناسبها المواطنون الذين يقومون بواجبات الجندية لفترة محدودة ، ولذلك حل الجنود المرتزقة محلهم . لقد كانت الحضارة بوجه عام فى سبيلها ؛ لأن تصبح حرفة يصعب على الهواة مجاراتها . وعندما بدأ مواطن المدينة الدولة يتخصص ولايقوم بكل واجباته تجاه الدولة ، بدأ يفقد ولاءه العميق للمدينة الدولة ، وبدأ يركز بشكل أكبر على حرفته وحياته الشخصية .

وعند نهاية القرن الخامس ق.م . نرى الفردية سائدة فى كافة مناحى الحياة ؛ فبينما كان سقراط عضوا نشيطا فى الدولة نرى أفلاطون ينسحب من المشاركة النشطة فيها. كذلك توقف كتاب التراجيديا عن تناول الموضوعات العالمية من النوع الذى عالجه إيسخولوس فى الأورستيا، وبدأ يوريبدس ومعاصروه يركزون على الشخصيات الفردية ، كما صارت الكوميديا موقفا زائفا أو محاكاة بدلا من أن تكون نقدا سياسيا . وعندما تخلى المواطنون عن خدمة المدينة الدولة ليبحثوا عن الخدمة التى يمكن للمدينة الدولة أن تسديها لهم باتت أيام المدينة الدولة معدودة من حيث كونها تنظيما سياسيا فعالا .

كان أفلاطون وأرسطو يريان فى المدينة الدولة نموذجا للوجود الإنسانى ؛ لأنه فى مثل هذا التنظيم الاجتماعى يمكن للناس أن يحيوا حياة طيبة . كما أن الحجم الصغير الذى اعتبره أفلاطون وأرسطو ضرورة للمدينة الدولة وشعورهما بأن المدينة الدولة ينبغى أن تتمتع بالاكتفاء الذاتى ، كان يعكس الاعتقاد الإغريقى بأن تفردهم ، الذى ندينه نحن، كان فضيلة وميزة . وكان ثمة تناقض أساسى بين نظرية المدينة الدولة كما طرحها أفلاطون وأرسطو، وبين الحقيقة الاقتصادية فى بلاد الإغريق . وقد أدرك أفلاطون هذا التناقض عندما حذر من التأثير الضار للتجارة ، والذى اعتبره بحق معول هدم حتمى للاكتفاء الذاتى. ولأن كل مدينة دولة -باستثناء إسبرطة تقريبا- كانت

مرتبطة بالتجارة بدرجة أو بأخرى ، بداية من القرن الثامن ق.م . تقريبا، فإن الاكتفاء الذاتى لم يوجد فعلا فى بلاد الإغريق . لقد كان هناك اعتقاد بأن أساس المدينة الدولة كان يكمن فى الاكتفاء الذاتى؛ ومن ثم فإن السيطرة على الدويلات الأخرى، أو التعاون معها يدحض هذا الاعتقاد . وربما يفسر لنا هذا ، جزئيا ، السبب فى أنه عندما كانت إحدى المدن تغزو مدينة أخرى، لم تكن فى الغالب تبذل محاولة لاستيعاب ما تم غزوه . وهكذا عانى الفكر الإغريقى من تناقض أساسى، بل ونظرى أيضا بين المدينة الدولة باعتبارها فكرة ، والمدينة الدولة باعتبارها وحدة واقعية فى الإطار السياسى الواسع. إن مفهومهم عن المدينة الدولة قد ثبط عزيمة الدول الإغريقية ، باستثناء أثينا فيما يبدو، وحال دون المحاولة الواعية لتعديل نظمها السياسية أو خلق نظام حيوى يمكن أن يحل محلها .

كانت المدينة الدولة نظاما سياسيا خلقه مجتمع زراعى مستقر . ومع زيادة السكان والتقدم الاقتصادى بدأ حجم ونوع التأثير الذى كان للمدينة الدولة يتصاعد ، كما تزايد اتصال المدينة الدولة بغيرها . بيد أنها لم تستطع أن تتغلب على خصوصيتها ، ولذلك كانت الحروب التى أعقبت هذا التوسع أمرا محتوما، وسرعان ما صارت المدينة الدولة وحدة صغيرة بحيث لاتقدر على تبعات الدفاع عن النفس . لقد جعلت التجارة والظروف الاقتصادية المتغيرة العالم ينكمش ، كما أن الصراع ضد دول عسكرية كبيرة مثل فارس كان يعنى أن المدينة الدولة المنفردة عاجزة تماما عن حماية نفسها فى عزلتها . لقد ظهرت الإمبراطورية الأثينية والحلف البلوبونيزى فى إطار رد الفعل للحرب الفارسية . وكان ذلك يعنى أن أية دولة ليس لها حلفاء لايمكن أن تستمر فى الوجود بسلام . لقد تغير العالم من دول صغيرة منعزلة إلى قوى كبرى ، بيد أن المدينة الدولة لم تتغير معه ، ولذلك فقدت فعاليتها كوحدة سياسية .

وعلى الرغم من أنها صارت أقل تأثيرا من الناحية السياسية ، فإنها ظلت مركزاً ثقافيا نشطا وقادرا فى القرن الخامس ق.م ، وأنتجت عصرا من أعظم العصور إبداعا فى تاريخ العالم . فالحياة الثقافية التى ازدهرت داخل أسوار المدينة الدولة قد غطت على تحديدها باعتبارها شكلا سياسيا . كما أن الهواية التى تميز بها المجتمع الإغريقى قد خلقت قمما إبداعية فى الفن والعلم والأدب . ومثلما أضر الاحتراف بالمدينة الدولة كوحدة سياسية، فإنه أيضا قد أثر عكسيا فى روحها الحقيقية الخلاقة .

لقد انتهت المدينة الدولة ، باعتبارها وحدة أولية عسكرية سياسية عندما قام فيليب المقدونى بغزو بلاد الإغريق سنة ٣٣٨ ق.م . ومنذ ذلك الحين ذبلت الحيوية الخلاقة التى ميزت الثقافة الإغريقية فى القرن الخامس ق.م بسرعة. إذا لم يعد الشعراء والفلاسفة رجال فعل ، مثل أفلاطون ، ولكنهم تحولوا صوب الحياة التأملية والنظرية بدلا من ممارسة السياسة. لقد أنتج الاتجاه نحو التخصص النقد الأدبى فى العصر السكندرى(*) ولكن لم تظهر عبقريات مبدعة استطاعت أن تنافس تلك العبقريات التى أنجبتها أثينا القرن الخامس ق.م. ولكن على الرغم من حقيقة أن الفترة العظيمة فى حياة المدينة الدولة كانت قد انقضت ، بمعنى أنها لم تعد وحدة سياسية حيوية بعد القرن الثانى ، فإن المدينة الدولة باعتبارها مفهوما ثقافيا ، أى مركزا للفن والتعليم استمرت بصورة جيدة حتى زمن الإمبراطورية الرومانية . لقد أدى إنشاء مدن إغريقية فى أنحاء شاسعة من العالم على يد الإسكندر الأكبر إلى نشر ثقافة المدينة الدولة فى معظم أنحاء العالم المتحضر . وعلى مدى قرون طويلة تالية كانت المدينة الدولة من البنجاب إلى مصر، إلى مرسيليا مستمرة باعتبارها مدينة دولة فى روحها .

(*) العصر السكندرى Alexandrain Period :

يطلق لفظ العصر السكندرى على تلك الفترة التى صارت فيها الاسكندرية مركزا أدبيا وفنيا ذا صفات خاصة وذا تأثير على المناطق الإغريقية . ويقسم بعض علماء الدراسات الكلاسيكية الفترة من وفاة الاسكندر الأكبر عام ٣٢٣ق.م حتى الغزو الرومانى عام ٣٠ق.م إلى فترتين : الأولى العهد المتأغرق الأول أو ما قبل العهد السكندرى وتبدأ من عام ٣٢٣ ق.م . وحتى عام ٢٧٢ق.م. أى حتى بداية عهد بطليموس الثانى فيلادلفوس، والفترة الثانية العهد المتأغرق الثانى أو العهد السكندرى من عام ٢٧٢ ق.م. حتى عام ٣٠ق.م .

الفصل الثالث

التوسع والاستعمار

كان لحركة الاستعمار الفضل فى نشر نموذج المدينة الدولة وفى ثراء بلاد الإغريق وقوتها؛ ومع ذلك فإن هذه الحركة زرعت بذور الإخفاق والفشل فى الوقت نفسه. ذلك أن التوسع قد ساعد على زيادة تشرذم المجتمع الإغريقى بدلا من خلق دولة قوية متحددة . ففى القرن الثامن ق.م . كانت هناك حوالى عشرين أو ثلاثين مدينة دولة قائدة تسيطر على بلاد الإغريق ، وبحلول القرن السادس ق.م . كانت الحضارة الإغريقية قد توزعت بين مئات المدن القوية المكتفية ذاتيا فى أنحاء حوض البحر المتوسط . فكما رأينا كانت أية مدينة دولة قد أسست مستعمرة ، إنما أسستها باعتبارها كيانا سياسيا مستقلا لابحسبها امتدادا سياسيا لها . وكان ذلك عاملا مشجعا على الفرقة، ولكنه فى الوقت نفسه حفز تلك المستعمرات على أن تمسك بزمام القوة والبأس ، ومن ثم زادت فى القوة الإجمالية للدول الإغريقية . ومن بين المستعمرات العديدة التى زرعت على أيدى الفينيقيين فى حوض المتوسط ، لم يكن سوى القليل منها ما صار قويا ، مثل قرطاجة . ولكن غالبية المستعمرات الإغريقية غدت قوية، وغالبا ما تفوقت على المدينة التى أسستها . فقد سيطرت سيراكيوز فى صقلية على الإقليم المحيط بها ، كما فعلت قورينى فى شمال أفريقيا ، ومارسيليا فى جنوب فرنسا . ولم تستطع المستعمرات التابعة أن تتطور بهذه السرعة أو تصل إلى مثل هذه الذروة من القوة .

وعلى الرغم من أن الإغريق استطاعوا ، إلى حد ما ، أن يتوحدوا بنجاح فى مواجهة عدو قوى مثل الفرس أو قرطاجة ، فإن الحروب الضارية التى نشبت فيما بين تلك المدن أضعفتها فى النهاية بحيث سقطت فى القرن الرابع ق.م فريسة لمقدونيا ،

ثم سقطت فريسة لروما فى القرن الثانى ق.م . لقد أنتجت المدينة الدولة مجتمعا يتسم بالقوة والحيوية ، ولكنه يفتقر إلى التنظيم سياسيا . إن نفس تلك العوامل التى أدت إلى انتشار المدن الدول وقوتها هى التى أدت إلى سقوطها فى نهاية الأمر .

نماذج جغرافية للاستعمار :

كان مجتمع المدينة الدولة الذى وصل إلى قمته فى القرنين السادس والخامس ق.م . هو الوريث النهائى للمجتمع الموكينى . ذلك أن بلاد الإغريق التى صدمتها الاضطرابات العنيفة فى القرون الثالث عشر ، والثانى عشر، والحادى عشر ق.م. قد تدهورت . وانهارت الحضارة الموكينية المزدهرة التى كانت قد أرسلت بتجارها ومستعمريها وجنودها من كريت إلى آسيا الصغرى. وخيمت العصور المظلمة على بلاد الإغريق . وتضاءل الاتصال والتجارة بين بقايا الحضارة الموكينية إلى حد التدهور . بل إن فن الكتابة كان قاب قوسين أو أدنى من النهاية ، وذبلت الحضارة . ولم يحدث أن خرجت بلاد الإغريق من قوقعتها قبل القرن الثامن ق.م ؛ إذ أتبع منهج جديد للكتابة ، وعاود الأدب والفن ظهورهما ، وبدأت حركة الاستعمار الكبرى. وتمثل قصة الفترة التى ميزتها حركة الاستعمار الإغريقى واحدة من قصص الصعود من وهدة العصور المظلمة التى يسودها الجهل والفقر والضعف إلى ذرى متجددة من الثقافة والقوة والثروة . فقد انطلق الإغريق فى القرن الثامن ق.م . شرقا وغربا وانطلقوا فى القرن السابع صوب الشمال والجنوب ، وفى القرن السادس كانوا يدعمون مكاسبهم . وقد تغيرت بلاد الإغريق فيما بين القرن الثامن ونهاية القرن السادس ، حينما بدأت توسعها ، وتحولت من مجتمع زراعى فقير ، منعزل ، ساكن ، محصور ما بين ساحل آسيا الصغرى وبلاد الإغريق الأصلية ، إلى قوة غنية ، وعلى الرغم من تشرذمها امتدت مستوطناتها من جنوب فرنسا إلى شمال أفريقيا، ومن مصر إلى جنوب روسيا .

لقد شبه أفلاطون الإغريق بالضفادع القابعة على ضفاف بركة كبيرة . وهو ما يكشف بجلاء عن نموذج المستعمرات الإغريقية التى كانت تقام دائما على مقربة من سواحل البحر المتوسط أو البحر الأسود . فقد هاجر الإغريق فى الأصل إلى بلاد الإغريق الأصلية قادمين من الشمال عبر أراض جبلية وعرة ، ولم يكن هناك حافز

يجعلهم يعودون القهقرى إلى تلك المناطق . وهكذا ولى الإغريق وجوههم صوب البحر باعتباره طريقا طبيعيا للاستعمار .

وبوسعنا أن نكون فكرة عن الأمن والراحة التى استمدها الإغريق من البحر من خلال حادثة فى قصة هروب إكسينوفون (Xenophon) برفقة عشرة آلاف مقاتل من وسط الإمبراطورية الفارسية المعادية . إذ كانوا قد جندوا فى الأصل للقتال فى حرب أهلية فى فارس إلى جانب قورش (Cyrus) ضد أخيه الملك أرتاكسركسيس (Artaxerxes) وتقابل الجيشان المتحاربان فى كوناكسا (Cunaxa) سنة ٤٠١ ق.م، ولكن على الرغم من انتصار قورش والإغريق الذين كانوا معه ، فقد كان ذلك نصرا بلامضمون . إذ كان قورش قد لقى مصرعه أثناء القتال . وحينئذ صار الإغريق بلا عمل فبدأوا مسيرتهم الطويلة صوب الوطن تحت قيادة إكسينوفون ، وقد اضطروا أن يقاتلوا دفاعا عن حياتهم فى كل خطوة على طول رحلتهم . وفى يوم ما، بعد مسيرة شاقة، كانت طليعة القوات قد وصلت إلى قمة جبل وتعالت أصوات جلبة شديدة . وبدا الأمر بالنسبة لإكسينوفون وبقية الجيش كما لو أن عدوا قد شن هجوما عليهم . وكلما وصل صف من الجنود قمة الجبل، أخذوا يصيحون أيضا ، وامتطى إكسينوفون صهوة جواد وانطلق إلى الأمام ليستطلع الأمر. وفى لحظة اقترب بحيث ميز الكلمات التى كان الجنود ينطقونها صائحين : «البحر البحر». وانطلقت كل القوات تجرى، وعندما وصلوا القمة ، أخذ كل منهم يعانق الآخر وقد ترقرت مآقيه بالدموع . ولم يكن مهما أى بحر وصل إليه الإغريق وأين يقع . إذ كان البحر بالنسبة لهم يعنى التوجه الصحيح والطريق السريع صوب الوطن .

لم يكن الكثير من حوض البحر المتوسط مفتوحا بالنسبة للإغريق . إذ كانت هناك طرق قليلة تؤدى إلى مصر ، وشرق المتوسط، أو المناطق الداخلية من شمال آسيا الصغرى ، التى كانت تغص بأعداد كثيفة من السكان بالفعل. أما فى شمال أفريقيا وإسبانيا فقد أعاقتهم قرطاجة وغيرها من المستعمرات الفينيقية ، وصدهم الأتروريون فى شمال إيطاليا . وعلى أية حال ، فإنهم شادوا المستعمرات فى كل مكان آخر فى حوض البحر المتوسط .

لقد كانت الاندفاعة الأولى فى فترة الاستعمار الكبرى صوب الغرب . إذ إن المدن الإغريقية الكبرى، مثل خالكيس (Chalcis) فى إرتريا (Eretria) ، دفعت بالمستعمرين

إلى إيطاليا وصقلية . ومع نهاية القرن الثامن ق.م. كان الإغريق قد نزلوا جماعات على الجنوب الإيطالي وساحل صقلية الشرقي. وسرعان ما انضمت كورنثة ، التي كانت قوة بحرية كبرى، إلى السباق لكي تؤسس مستعمرة كوركيرا (Corcyra) على ساحل البحر الأدرياتي ، وسيراكيوز في صقلية . أما الآخيون ، الذين كانوا أقل شغفا بالموانى، فقد استولوا على المنطقة الزراعية الغنية في ميتابونتوم (Metapontum) وكروتون (Croton) ولاسيما في سيباريس (Sybaris) ؛ حيث كانت الأرض ثرية لدرجة أن كلمة «سيباريسى» صارت مرادفا للرفاهية . ثم حدث انقطاع استمر حتى الشطر الأخير من القرن السابع ق.م. عندما تم استيطان الجزء الغربي من صقلية ، ليس على يد الإغريق القادمين من بلاد الإغريق الأصلية، وإنما على يد مدن شرق صقلية - مدن مثل ميجارا (Megara) التي أسست مستعمرة سلينوس (Selinus) ، وجيلا (Gela) التي أقامت أكراجاس (Acragas) وهي مدينة دولة قيض لها أن تنمو لتصبح من أكثر مدن البحر المتوسط سكانا وتشتهر بمعابدها الفخمة .

لقد اشتهر جنوب إيطاليا وصقلية باسم بلاد الإغريق الكبرى (Magna Greacia) وفي غضون القرنين السادس والخامس ق.م . كانت مدن هذه المنطقة أكبر حجما وأكثر سكانا من مدن بلاد الإغريق الأصلية . وصار الإغريق الذين استوطنوا هناك من «محدثي النعمة (Nouveaux riches) » . إذ كان كل شئ بنوه «أكبر وأحسن» . فقد كانت معابدهم أكبر حجما وأكثر زينة . ومع ذلك فإنهم على الصعيد الثقافي كانوا يتعثرون خلف بلاد الإغريق الأصلية . لقد كانوا مثل المستعمرين الأميريكيين شغوفين «بالحضارة» في بلادهم الأصلية . وكانوا يجلبون الرجال المبدعين من كل لون ، من الفنانين والشعراء والفلاسفة ، من بندار ، الذي كتب أناشيد النصر لطاغية سيراكيوز ، إلى أفلاطون الذي حاول أن يشيد دولته المثالية تحت حكم ملك فيلسوف في صقلية . وكانوا يرسلون بانتظام المتسابقين إلى الألعاب الأوليمبية تحيطهم مظاهر الفخامة والأبهة ، وتشترك المدينة كلها في الاحتفال عندما يعود المتسابقون مظفرين . وعندما انتصر من يدعى إكساينتوس (Exaetnetus) من اكراجاس في الأوليمبياد الثاني والتسعين ، توجه إلى المدينة في موكب من ثلاثمائة عربة يجر كلا منها اثنان من الخيول البيضاء . وهناك قصتان ، ربما تكونا زائفتين ، تكشفان بوضوح عن مدى شغف إغريق صقلية بالثقافة . ففي سنة ٤١٣ ق.م تولى السكان الصقليون المعادون

حماية من بقى من جنود الحملة الأثينية المشئومة ضد سيراكيوز وساعدوهم فى مقابل أن يتلوا عليهم اشعار مسرحيات يوريبيدس . وثمة قصة أخرى تدور حول سفينة تابعة لمدينة كونيا (Counia) فرت من القراصنة ، وأرادت أن تدخل سيراكيوز ، ولكنها منعت من الدخول إلى أن قام البحار بقراءة أشعار ليوريبيدس .

لقد غامر الإغريق حتى خارج البحر المتوسط . ففى حوالى سنة ٦٣٨ق.م . ساقت الريح شخصا يدعى كولايس (Colaeus) من ساموس (Samos) خلف عمودى هرقل (مضيق جبل طارق) إلى طرطوسة (Tartessus) على ساحل إسبانيا المطل على المحيط الأطلنطى وبما أن هذه المنطقة لم تكن مطروقة من قبل الإغريق وجد كولايس فيها سوقا بكرا وجنى مكاسب كثيرة من تلك الرحلة. وكانت النتيجة أن أقيمت حالا مستعمرة هناك لاستغلال السوق المحلى.

وقد أدى ذلك النشاط فى غرب المتوسط إلى رواج التجارة التى استغلها الفينيقيون على وجه الخصوص فى تقدمهم السريع من أجل تطوير أكثر الإمبراطوريات التجارية اتساعا فى العالم الإغريقى كما شادوا المستعمرات التجارية التى لم تلبث أن تجاوزت مهمتها التجارية لكى تصبح مراكز للقوة الإغريقية . وهذا ما حدث لمستعمرة هاسيليا (Hasseillea) التى تأسست حوالى سنة ٦٠٠ ق.م . وبسرعة توسعت هاسيليا وأقامت المستعمرات لحسابها على طول شاطئ الريفييرا حتى وصلت إلى إسبانيا ؛ وهى مستعمرات نيكايا (Nicaea) (نيس) وأنتيبوليس (Antipolis) ومايناكى (Maenace) (موناكو) . وحيث إن إسبانيا كانت بأيدى القرطاجيين والفينيقيين ، كما رأينا ، فقد أعيق التقدم الإغريقى فى تلك المنطقة وسرعان ما اشتبكت الإمبراطوريتان التجاريتان ، الفينيقية والقرطاجية . وفى سنة ٥٣٥ ق.م . حارب الفينيقيون القوات البحرية القرطاجية الاتروسكية المشتركة وهزموها ؛ ولكن خسائرهم كانت فادحة بالقدر الذى جعل قرطاجة تتمكن فى الحال من إغلاق مضيق جبل طارق ، وتدمر طرطوسه وتقيد التجارة الإغريقية فى أقصى غرب المتوسط .

كان الإغريق قد انشغلوا على مدى فترة طويلة باستعمار المناطق التى تقع إلى الشرق من بلادهم . وفى الفترات الموكينية المتأخرة وما تلاها كانوا قد شادوا مستعمرات عديدة على طول الجزر وبامتداد الساحل الغربى لآسيا الصغرى (أيوليس وأيونيا) . وخلال العصور المظلمة كانوا قد فقدوا كل اهتمامهم بالاستعمار تقريبا ،

ولكن الحركة الاستعمارية نبضت من جديد فى القرن الثامن . ومع هذا ، فإن آسيا الصغرى لم تعد منطقة مربحة للاستعمار ، لاسيما فى شرق المتوسط . إذ كانت المنطقة كثيفة السكان بالفعل ، ومن ثم كان الاستعمار هناك مستبعدا، سوى بعض المراكز التجارية ، مثل ألمينا (Almina) فى شمال سوريا . ومن ناحية أخرى ، لم تتمكن الدول الموجودة فى أيونيا وأيوليس أن تتوسع داخل قلب آسيا الصغرى؛ لأنها كانت محاطة فى تلك الأنحاء بقوى برية قوية مثل مملكة ليديا. ونتيجة لذلك بحث إغريق آسيا الصغرى وبلاد الإغريق الأصلية عن مناطق أقل سكانا لتطويرها . وفى البداية تركزت محاولاتهم فى شمال بحر ايجه على الشاطئ التراقى ولاسيما حول البسفور والدردنيل (بحر مرمرة) ؛ ثم توسعوا بعد ذلك فى مناطق البحر الأسود . وكانت من أول الجهود الاستعمارية تلك التى بذلتها ميجارا ، تلك الدويلة الصغيرة فى بلاد الإغريق الأصلية، والتى أقامت مدينتين على ضفاف البسفور هما خلقدونية ، وبيزنطة لكى تبسط سيطرتها على بحر مرمرة وعلى مدخل البحر الأسود . ولكن المدينة التى توسعت فى بناء المستعمرات كانت هى مدينة ميلتيس (Miletes) الأيونية . إذ بدأت بتأسيس أبيدوس على الدردنيل فى أخريات القرن السابع ق.م ، ثم شرعت فى أكبر مشروع استعمارى فى ذلك الحين، فقد شادت حوالى سبعين مستعمرة ، فى إقليم البحر الأسود أولا، وكانت أهمها سينوبى (Sinope) وترابيزوس (Trapezus) على الشاطئ الجنوبى وأولبيا (Olbia) (قرب الرها الحديثة) فى الشمال .

وعلى الرغم من أن مستعمرات البحر الأسود والمستعمرات الشمالية قد أقيمت فى مناطق خصبة ومزدهرة ، فإنها لم تطور أبدا ثقافة المستعمرات الغربية أو قوتها . ومع هذا فإنها صارت موردا للمواد الخام اللازمة لبلاد الإغريق الأصلية ، مثل الحديد، والذهب ، والأسماك ، والخشب ، والجلد ، التى كانت منتجاتها الرئيسية ، وفى القرنين الخامس والرابع ق.م . كانت أثينا تعتمد كثيرا على هذه المستعمرات فى امدادها بالغلال . وعلى الرغم من أن المنطقة قد أنجبت بعض الرجال النابهين ، مثل ديوجينيس (Diogenes) من سينوبى، فقد ذهب منهم كثيرون إلى بلاد الإغريق الأصلية ، ولم يعد منهم سوى عدد قليل . وقد ظلت المنطقة متخلفة ثقافيا .

لقد منعت مصر الإغريق من إقامة مستعمرات فى أراضيها باستثناء مستعمرة نوكراتيس (Naucratis) التجارية فى دلتا النيل التى قامت فى القرن السادس ق.م. ومع هذا، فإن التجارة المزدهرة والسياحة والجنود المرتزقة قد حملت جميعا تأثيرات

مصر إلى بلاد الإغريق . لاسيما فى مجالات الفن ، والمبانى الضخمة ، والرياضيات . ويروى هيرودوت أن عددا كبيرا من الإغريق ذهبوا إلى مصر تجارا وسائحين ، وكان هيرودوت نفسه من بينهم . كما ذهب كثيرون جنودا مرتزقة . وقد ترك أفراد فرقة عسكرية من الإغريق أسماءهم على نقش صغير على التماثيل الأثرية فى معبد أبو سمبل على مسافة ٧٠٠ ميل فى جنوب مصر على ضفاف النيل، وتقول كلمات أطول نقش : «عندما جاء الملك أبسماتيك إلى جزيرة ألفنتين، كتب هذا النقش بأيدى الذين أبحروا مع أبسماتيك ابن ثيوكليس ، والذين ذهبوا مصعدين فى النهر قدر استطاعتهم . حتى كركيس . وقد قاد بوتاسيتمو الغرباء ، على حين تولى أماسيس قيادة المصريين، وأرخون ابن أميوبيخوس هو الذى كتب هذا هو وبيليكوس ابن إيداموس» .

تحددت حركة الاستعمار الإغريقى فى شمال أفريقيا بواسطة مصر شرقا وقرطاجة غربا . وتم تأسيس مدينة قورينى القوية والهامة حوالى سنة ٦٧٠ ق.م . فيما بين مصر وقرطاجة ، وقامت هذه بدورها بإرساء المستعمرات فى المناطق المتاخمة. ولكن عندما حاول الإسبرطيون فى نهاية القرن السادس ق.م. أن يقيموا مستعمرة غرب قورينى ، وربما فى محاولة لتطويق قرطاجة ، طردهم القرطاجيون .

المستعمرات المستقلة :

فى القرن الثامن ق.م. عندما نشطت حركة الاستعمار الإغريقى، كانت الزيادة السكانية هى القوة الدافعة الرئيسية . فبعد سقوط الحضارة الموكينية تناقص عدد سكان بلاد الإغريق، وصارت البلاد عموما تعانى من نقص السكان . وقد زادت الهجرات الدورية إلى داخل بلاد الإغريق من أعداد السكان ، بيد أن تلك لم تكن زيادة هامة . ولكن الاستقرار النسبى الذى شهدته العصور المظلمة أتاح زيادة الأعداد، حتى وصلت الزيادة السكانية فى القرن الثامن ق.م. إلى درجة حرجة . وهناك عاملان جعلا الموقف عصيبا ؛ هما الفقر العام الذى تعانى منه التربة الإغريقية ، والتقسيم المستمر للأرض . ذلك أن فقر التربة حال بين معظم الدول وتوفير الطعام لسكانها المتزايدين . فضلا عن أن معظم الدول الإغريقية لم تكن تعرف نظام الوراثة للابن البكر. فعندما كان أحد ما يموت ، كانت الأرض تقسم بين كل أبنائه بدلا من أن يرثها الابن الأكبر

وينصرف الأخوة الأصغر منه إلى ممارسة حرفة أخرى. ويعطينا الشاعر(Hesiod)(*) الذى عاش فى القرن الثامن ق.م. فكرة عن المشكلات الاقتصادية آنذاك . فهو يشكو فى أشعاره من أن النبلاء الطامعين الشرهين قد استولوا على أحسن الأراضى ، على حين لم يتبق للفلاحين الفقراء سوى الأرض الصخرية الجدباء . كما أنه يشكو من متاعبه مع أخيه برسيس ، الذى استولى على أكثر من نصيبه فى أرض أبيه . وينصح هسيود الفلاح بأن ينجب ولدا واحدا إذا ما أراد خيرا . لقد تمثلت نتيجة التقسيم المستمر للأرض فى وجود مساحات لاتكفى للزراعة المربحة . وكانت البطون الخاوية وراء اندفاع الإغريق لتأسيس المستعمرات ، وقد تجلى هذا الدافع واضحا من خلال تكالب المستعمرين الأول على تلك المناطق الخصبة .

هيرودوت ، عندما واجهت الثيرانيين مشكلة القحط وتدهور المحصول فى أواخر القرن السابع ق.م. أرسلوا المستعمرين «واختاروا واحدا من كل أخوين بطريق القرعة» . لقد كان ذلك موقفا غاية فى الصعوبة لدرجة أن عقوبة التهرب من الذهاب إلى حيث كان الاختيار كانت هى الموت. وفى بداية الأمر حاول المستعمرون العودة لأنهم لم يوفقوا فى مغامرتهم . وعندما حاولوا النزول إلى البر رماهم أهل ثيرا بالسهام وطردوهم . إذ كان الهدف من بناء المستعمرة هو التخفيف من حدة الضغط السكانى؛ بمعنى أن تجنيد وريث واحد من كل عائلة سوف يوقف تقسيم الأرض أو يقلل من معدل هذا التقسيم على الأقل .

لقد ارتبطت التجارة بالاستعمار ارتباطا حتميا ، إذ كان كل منهما ينشط الآخر. والتجارة سابقة ، إلى حد ما، على الفترة الاستعمارية الكبرى. وقد أسست مستعمرة المينا (Al Mina) فى سورية عند مصب نهر العاصى (فى تركيا حاليا) ، فى أوائل

(*) هسيود Hesiod : هو ابن لأحد المزارعين . حين مات أبوه جار عليه أخوه واغتصب نصيبه من مزرعة أبيه فرفع هسيود مظلمته إلى القضاء فلم ينصفه ، مما أثار كامن حسه فإذا لسانه ينطلق بموجدته حكمة وعظة، فنظم هذا شعراً . وملحمته «الأعمال والأيام» يشيع فيها النصح والدعوة إلى العدل والقناعة والتعاون ، وتتخللها عظات وابتهالات إلى الآلهة فضلا عما تتضمنه من وصف للحقل والزراعة وفصولها وآلاتها والماشية والرقيق الذين يعملون فى الحقول. أما قصيدته «أنساب الآلهة» والتى ضمنها حياة الآلهة ومعتقدات الناس، فتعد بحق أقدم وثيقة أرخت للعقائد الدينية فى بلاد الإغريق، ولعلها أيضا السجل الجامع لأساطيرهم . وقد سمى هذا النوع من الشعر «بالشعر التعليمى» نحا فيه الشعراء منحى البحث العلمى وفحص الحقائق وعلاج الأخطاء الخُلقية والتدليل على قدرة الآلهة .

القرن الثامن ق.م. لتكون مركزا تجاريا بصفة خاصة . وعندما قامت بتأسيس خالكيس وارتيريا المستعمرة الأولى فى الغرب اختارت موقع بيثكوزاى (Pithecausae) (إيشيا Ischia الحديثة) فى خليج نابولى وهو موقع مثالى للأغراض التجارية . وتلا ذلك الاستيطان فى أرض كوماى الأساسية ، ولكن كان قد تم تجاوز الأرض الزراعية الغنية المجاورة . وربما كانت بيثكوزاى وكوماى قد أقيمتا لتكونا مستعمرتين تجاريتين بهدف الحصول على المعادن من أتروريا ، وكانت بلاد الإغريق الفقيرة فى الثروة المعدنية ، تحتاج إليها بشدة. وإذ صار الإغريق على ألفة بالمنطقة من خلال نشاطات التجار، تم استعمار الأرض الساحلية الخصبة فى شرق صقلية وجنوب إيطاليا من أجل الزراعة . وقد صارت الكثير من هذه المستعمرات المتأخرة أسواقا هامة بصرف النظر عن السبب الأصلى فى انشائها . إذ كان التجار يحضرون الحبوب ، والمواد الغذائية والمعادن ، إلى بلاد الإغريق الرئيسية ، كما أنهم كانوا يصدرون البضائع المصنعة . وبينما تزايدت التجارة فى مداها ، تم فتح مناطق جديدة حيث يحتمل قيام مستعمرات جديدة.

وكانت هناك عدة عوامل شجعت تأسيس المستعمرات باعتبارها وحدات سياسية مستقلة . ففى الفترة الباكرة من حركة الاستعمار ، أى القرن الثامن ق.م. كان الهم الأساسى للدول يتمثل فى حل مشاكلها المحدودة الناجمة عن الضغط السكانى، أكثر من اهتمامها ببناء إمبراطوريات استعمارية . لقد أرادت تلك الدول أن تتخلص من الزيادة السكانية وأن توطد أحوالها ، مثلما كان الحال فى قورينى. ولم يكن يهم المدن المؤسسة للمستعمرات ما إذا كانت سيطرتها السياسية محكمة على مستعمراتها . كان شعور المدينة – الدولة بالتفرد ، وضرورة ملكية الأرض للحصول على المواطنة ، وضرورة التواجد فى المدينة لممارسة حق التصويت فى المجالس وللمشاركة فى حياة القبيلة – وهى واجبات لم يكن بمقدور المواطن الغائب أن يؤديها– كل هذه الأسباب أدت إلى تشجيع قيام المستعمرات المستقلة .

كانت المستعمرات تؤسس فى سياق سياسة الدولة، كما أنها كانت مؤسسات سياسية ودينية على غرار المدينة الأم. وكان لابد للمستعمرة أن تحصل على موافقة رسمية وغالبا ما كان هذا يتم من نبوءة دلفى (Delphi) . ولذلك اتخذت معظم

المستعمرات أبوللو(*) (Apollo) إلها حاميا لها ، وصارت دلفى (مركز عبادة أبوللو) هى الفيصل فى بعض المنازعات الخاصة بالمستعمرات . وكان ثمة مرسوم رسمى يصدر بتنظيم أمور المستعمرة . وربما يفيد المرسوم الخاص بإنشاء مستعمرة ناوباكتوس(Naupactus) باعتباره مثالا دالا على ذلك:

«يجب تأسيس مستعمرة فى ناوباكتوس بالشروط التالية : عندما يصبح اللوكرينى من مواطنى ناوباكتوس يكون من حقه ، عندما يكون حاضرا ، أن يقدم القرابين أو المشاركة فى تقديمها ، فى الأماكن التى يسمح القانون المقدس للأجنبى أن يقدم القرابين إذا رغب فى ذلك . فإذا ما كانت هذه رغبته فيجب أن يقدم القرابين ويكون له نصيب فى قرابين الشعب وقرابين الجماعات، ويكون ذلك له ولعائلته إلى الأبد. ولاينبغى للمستعمرين اللوكركينيين أن يدفعوا الضرائب المقررة على اللوكرينيين عموما ولايدفعها سوى من يعود منهم إلى موطنه الأصلى . وإذا ما رغب أى مستعمر فى العودة لاينبغى أن تُحصل منه أية رسوم طالما ترك فى بيته ابنا كبيرا أو أخا . وإذا ما تم طرد اللوكرينيين من ناوباكتوس بالقوة ، يجب السماح لهم بالعودة، كل إلى بيته السابق دون أية رسوم . ولايجب أن يدفعوا أية ضرائب إلا ما كانت مشتركة بينهم وبين اللوكرينيين الغربيين .

١- يجب على المستعمرين فى ناوباكتوس أن يقسموا بألا ينشقوا طواعية عن الأوبنتين (Oputians) بأية وسيلة كانت . وإذا كانت رغبتهم ، فسوف يسمح، بعد ثلاثين سنة من أداء القسم ، لمائة من أهل ناوباكتوس بمراعاة قسم الأوبنتيين ، ومائة من أهل أوبنتيا لمراعاة قسم أهل ناوباكتوس .

٢- وكل من أجل دفع الضرائب فى ناوباكتوس سوف يتم استبعاده حتى يقوم بأداء ديونه القانونية إلى أهل ناوباكتوس .

(*) أبوللو Apollo :

هو إله الفن والشعر والموسيقى وراعى الماشية ورسول أبيه زيوس للآلهة والبشر ، يُعد ربا للشمس والضياء دون أن يكون الشمس ذاتها . وكان إلها للغيب فأقام له الناس المعابد يستنبئون كهنتها عن مصيرهم . وصارت مدينة دلفى معقل الوحى على الأرض بعد أن صرع أبوللو الافعوان بيثون بسهامه وأقيمت الألعاب البيثوية تخليدا لذكرى هذا النصر ، ومن ثم أصبحت دلفى هى سره الدنيا (اومفالوس) ومحط رحال الجميع .

٣- إذا لم يكن للمستعمر ورثة من أهل منزله، ولم يكن له وريث بين المستعمرين في ناوباكتوس فإن التالي في درجة القرابة من اللوكرنيين يجب أن يرثه، مهما كان وضعه بين اللوكرينيين، طالما أنه يحضر بنفسه في غضون شهور ثلاثة. ولكن إذا لم يحدث ذلك ينبغي تطبيق قوانين ناوباكتوس .

٤- إذا ما رجع أي مستعمر من ناوباكتوس إلى اللوكرينيين ، فيجب عليه أن يعلن هذا في ساحة السوق في ناوباكتوس ، كما يجب أن يعلن هذا بين اللوكرينيين في ساحة السوق في مدينته الأصلية .

٥- عندما يصبح أحد سكان Percothariae و Mysacheis من أهل ناوباكتوس ، فيجب أن تخضع أملاكه في ناوباكتوس أيضا لقوانين ناوباكتوس. ولكن ممتلكاته بين اللوكرينيين يجب أن تخضع لقوانينهم ، حسبما توضح قوانين مدينة اللوكرينيين الوضع لكل فرد. ولكن إذا عاد أي واحد من Perchothariae و Mysacheis تحت القوانين المتعلقة بالمستعمرين ، فإنه يخضع للقوانين السائدة في مدينته .

٦- وإذا ما كان للمستعمر في ناوباكتوس أخوة، ، مثلما ينص القانون في كل مدينة من مدن اللوكرينيين، يحق للمستعمر أن يرث أملاك الأخ في حالة وفاته، بشرط أن يأخذ نصيبه الذي يستحقه .

٧- يجب أن يكون لمستعمري ناوباكتوس حق رفع القضايا أمام القضاة ؛ وعلى اللوكريني أن يرفع القضايا ، وأنْ يجيب على القضايا المرفوعة ضده في أوبوس (Opus) في اليوم نفسه . وأولئك الذين يتولون مناصب الحكام في تلك السنة ينبغي عليهم تعيين مدعي عام يمثل المستعمرين من اللوكرانيين ، وآخر من المستعمرين يمثل اللوكرانيين .

٨- وأي واحد من مستعمري ناوباكتوس يخلف وراءه أبا ويترك أملاكه مع أبيه، ينبغي السماح له أن يستعيد نصيبه عند وفاة أبيه .

٩- كل من ينتهك هذه القرارات بأية وسيلة أو طريقة أيا كانت ، إلا بعد صدور مرسوم من مجلس الألف في أوبوس (Opus) ومن مجلس مستعمري ناوباكتوس، يصبح خارجا على القانون وتصادر ممتلكاته . وسوف يعقد الحاكم جلسة للمدعي في خلال ثلاثين يوما، إذا كانت هناك مدة ثلاثين يوما باقية في فترة حكمه . وإذا لم يمنح

المدعى حق جلسة محاكمة ، يصبح خارجا على القانون وتصادر ممتلكاته وممتلكات الخدم الذين يعملون عنده أيضا . وعليهم أن يقسموا باليمين التى حددها القانون . ويلقى بأوراق التصويت فى جرة والقانون التشريعى للوكرانيين يسرى بنفس الطريقة على المستوطنين القادمين من خاليوم (Chaleum) وانتيفاتاس (Antiphatas) .

وكانت الدولة تعين موظفا رسميا للإشراف على تأسيس المستعمرة ، وكان يسمى (Oikistis) باعتباره قائدا مؤقتا للمستعمرة .

ومن خلال حقيقة أن المستعمر كان يفقد حقوق المواطنة فى مدينته الأصلية ، يتضح تماما أن المستعمرات تأسست بقصد أن تكون مستقلة . لقد ألقى الضوء على مسألة حقوق المواطنة من خلال المراسيم الرسمية التى حفظها الزمن والتى كانت قد صدرت رسميا بخصوص تأسيس المستعمرات . ففى قرار تأسيس مستعمرة ناوباكتوس، الذى سبقت الإشارة إليه، فى منتصف القرن الخامس ، يتقرر أن يصير المستعمر مواطنا فى ناوباكتوس ، ويفقد حقوق المواطنة فى لوكريس (Locris) ذلك أن لوكريس أسست مستعمرة ناوباكتوس لأسباب سياسية أكثر من كونها أسبابا تتعلق بالزيادة السكانية . وكانت مرغمة على أن تقدم المغريات والحوافز التى تدفع الناس إلى أن يتحولوا إلى مستعمرين . وقد اتضح ذلك فى الشروط الكريمة التى وردت فى مرسوم التأسيس. إذ كان بوسع المستعمر أن يحصل من جديد على حقوق المواطنة فى لوكريس إذا ما ترك ابنا يافعا أو أخا فى ناوباكتوس ، أوإذا أجبرته الضرورة على العودة . كما ينص المرسوم على أن باستطاعة المستعمر أن يعود حتى لو لم تكتمل تلك الشروط، على الرغم من أنه كان يجب أن يدفع غرامة فى هذه الحال. وفى سبيل حماية المستعمرة لم يكن المستعمرون يتلقون أى تشجيع على العودة إلى الوطن . ومع ذلك فإن حقوق الوراثة والقرابة كانت مستمرة بين المدينتين. وحسبما جاء فى نسخة ترجع إلى القرن الرابع ق.م . من مرسوم تأسيس مستعمرة قورينى ، يصير المستعمر مواطنا فى قورينى، ويفقد حق المطالبة بحقوق المواطنة فى ثيرا (Thera) إلا إذا أهمل أهل ثيرا مساعدة المستعمرة ، أو إذا كانت المستعمرة آخذة فى التدهور ، أو إذا عاد المستعمرون خلال خمس سنوات . بيد أن العودة كانت مستحيلة من الناحية العملية على النحو ما يروى هيرودوت .

ويبدو أن ميليتوس (Miletus) التي كانت أكثر المدن الاستعمارية نشاطا ، قد انتهجت سياسة أكثر مرونة بخصوص حقوق المواطنة في المستعمرة وفي المدينة الأم. وقد اتضح ذلك في الناحية العملية على الأقل مع بعض المستعمرات مثل أولبيا (Oblia) في منطقة البحر الأسود. ولكن لسوء الحظ، فإن دليلنا على ذلك مستمد من فترة لاحقة، أي القرن الرابع ق.م، بيد أنه ربما كان ضمن الظروف التي سادت إبان القرنين السادس والخامس ق.م . إذ كان باستطاعة أهل ميليتوس أن يختاروا حقوق المواطنة في أولبيا، كما كان من حق مواطني أولبيا أن يختاروا حقوق المواطنة في ميليتوس . ومع ذلك فإنه في كل من الحالتين كان التمتع بحقوق المواطنة الكاملة في أي من المدينتين يقتضي التنازل عنها في المدينة الأخرى. بيد أنه كان هناك اختيار آخر متاحا سواء للمواطن الميلتي أو المواطن الأولبي ؛ إذ كان يستطيع الحفاظ على حقوق المواطنة الكاملة في مدينة ، وفي الوقت نفسه يطالب بحقوق محدودة في المدينة الأخرى؛ مثل الإعفاء من الضرائب والمساواة بالمواطنين في الأمور الدينية ، على الرغم من أنه ربما لايكون من حقه أن يتولى منصبا رسميا . وربما كانت ميليتوس متأثرة ، في منحها لهذه الحقوق غير العادية ، بالأهداف التجارية التي كان على مستعمراتها أن تعمل في سبيلها . وعلى الرغم من سخاء ميليتوس ، فإن مبدأ احتفاظ المستعمر بحق المواطنة الكاملة في المدينة الأم ، في نفس الوقت الذي يكون مواطنا كاملا في المستعمرة ، لم يوجد في ميليتوس أو غيرها تقريبا.

لم تكن حقوق المواطنة التبادلية هي النظام الطبيعي في حركة الاستعمار . ويبدو أن النمط العادي كان نظام مستعمرة قوريني. وعموما ، لم يكن مسموحا بالعودة سوى للرعيل الأول من المستوطنين في غالب الأحوال ، مثلما كان الحال في مستعمرة ناوباكتوس . ولم يكن المستعمرون يتمتعون بأي حق تلقائي أو دائم في المواطنة في المدينة الأم طالما أنهم غادروها . وعلى أية حال، فإن المدينة كانت تستطيع أن ترسل ، وأرسلت بالفعل، أكثر من موجة من المستعمرين .

وعلى الرغم من أن المستعمرة كانت مستقلة سياسيا عن المدينة الأم، فقد قامت فيما بينهما وشائج قوية. فعندما كانت إحدى المستعمرات تريد إنشاء مستعمرة لصالحها ، غالبا ما كانت تطلب من المدينة الأم أن تمدها بالموظفين (Oikistes) الذين يشرفون على إقامة المستعمرة، حتى لو كانت سنوات عديدة قد مرت على الاستقلال .

لقد كانت الأسرة ، والتنظيمات القبلية، ووشائج النسب والقربى التى قامت عليها المدينة الأصلية، تستمر فى المستعمرة . وعادة ما كان المستعمرون يأخذون النار من الشعلة المقدسة فى المدينة الأم، لكى يشعلوا بها نارهم المقدسة، وفى نهاية القرن الخامس ق.م. عشية الحروب البلوبونيزية ، اختلق الكورنثيون الحجج والذرائع لشن الحرب بحجة أن أهل كوركيرا قد أهملوا واجباتهم الدينية تجاه المدينة الأم. وبسبب الروابط الوثيقة بين المستعمرة والمدينة الأم ، كانت الحرب بينهما أمرا مشينا . وعلى الرغم من أنه فى حالة كورنثه وكوركيرا، بصفة خاصة ، كان الواقع يقول إن صراعا عنيفا مستمرا كان قد اندلع بينهما ، فإن العادة جرت على أن المدينة الأم تعتبر نفسها حامية لمستعمراتها . فعلى سبيل المثال، كما يرى اكسينوفون، كان خوف الأثينيين الأكبر، بعد هزيمتهم أمام إسبرطة فى الحرب البلوبونيزية ، نابعا من خشيتهم أن تقتلهم إسبرطة عقابا على قتل أثينا لعدد كبير من رجال ميليتوس التى كانت مستعمرة اسبرطية .

وتتمثل المواقف الاستعمارية فى قورينى واضحة فى أغنيتين لبندار هما البيثية الرابعة والبيثية التاسعة ، فكلا القصيدتين عبارة عن محاولات لإضفاء الشرعية على الأصول الإغريقية للمستعمرة من خلال أساطير التأسيس . ففى البيثية الرابعة، يتم تتبع بدايات المستعمرة حتى باتوس (Batus) أولا، ثم بعد ذلك تعود فى أعماق الزمن حتى العصور الموكينية حتى ايفيموس (Ephemus) الذى كان واحدا من الأبطال الذين صحبوا ياسون (Jason) وملاحى سفينة أرجو (Argonaus) فى بحثهم عن الفروة الذهبية . أما البيثية التاسعة التى كُتبت بمناسبة فوز تلسيكراتيس (Telesicrates) الثورينى فى سباق الجرى بكامل سلاحه فى الألعاب البيثية ٤٧٤ق.م ، ففى هذه القصيدة تتبع الشاعر أصول قورينى حتى ردها إلى الآلهة نفسها ، عندما تزوج أبوللو من قورينى ابنة هيبسيوس (Hypseus)، حاكم لابيثاى (Lapithae) وكان أهل قورينى على وعى بصلات القربى التى تربطهم مع ثيرا واسبرطة ، وأكدوا على انحدارهم من نسل ملاحى سفينة أرجو . وربما كان اسم ياسون (Jason) من الأسماء المعروفة، إذ ورد أحيانا فى أسماء بعض الحكام التى سكوها على بعض عملاتهم . ومن خلال أساطير التأسيس نجد أن أهل قورينى قد غيروا أصول مستعمرتهم وأضفوا عليها طابع القداسة؛ فمن كونهم مجموعة تم تجنيدها زمن المجاعة وأرسلت بهدف التخفيف من وطأة زيادة السكان، تحولوا إلى أحفاد واحد من ملاحى سفينة أرجو، وبذلك صاروا يرون الإلهام الإلهى فى أصول مدينتهم التى يحميها القدر .

المستعمرات الإمبراطورية :

لم يحدث سوى فى أواخر القرن السابع، عندما خفت وطأة الزيادة السكانية، أن بدأت الدول الإغريقية تدرك أن الاستعمار وسيلة يمكن من خلالها مد سلطانها السياسى. وعلى الرغم من تغير أهداف تلك الدول، فإن نماذجها وأساليبها الاستعمارية بقيت على حالها، ومن ثم كان عليها أن تواجه عبئا جديدا يتمثل فى منع المستعمرات من أن تصبح دويلات تتمتع بحكم ذاتى كامل . وحاول الطغاة(*) الإغريق حل هذه المشكلة عن طريقين ؛ بالسيطرة العسكرية أو إرسال أبنائهم أو أقاربهم ، أو حلفائهم المقربين إلى المستعمرين حكاما ومشرفين على التأسيس (Oikistroi) وكانوا يأملون فى أنه يمكن الاعتماد على أولئك الرجال فى الإبقاء على المستعمرة فى حالة التبعية أو الموالاة على أقل تقدير . وقد انتهجت كورنثة هذا النهج إبان فترة حكم الطغاة ، ولكنها كانت تعتمد أساسا على قوتها البحرية لاخضاع مستعمراتها . ومع ذلك فشلت تلك الوسائل فى كبت الميل الطبيعى للاستقلال ، وهو ميل كامن فى البناء السياسى للمستعمرة .

وتكشف نشاطات طغاة كورنثة وأثينا عن استخدام الأقارب والأصدقاء والحلفاء وسيلة لبسط السيادة الاستعمارية . فقد أرسل كوبسليلوس (Cypselus) طاغية كورنثة ، ابنه مشرفا على تأسيس مستعمرة ليوكاس (Leucas) ومستعمرة أمباركيا (Ambarcia) وأناكتوريوم (Anactorium) وكان المشرف على تأسيس مستعمرة بوتيدايا (Potidaea) هو إيفاجوراس (Evagoras) ابن بريانڈر (Periander) آخر

(*) طاغية Tyrannos :

شغل الحكام الذين أطلق عليهم اسم الطغاة مكانا متميزا فى التاريخ الإغريقى، فقد سادوا فى دويلات المدن الإغريقية خلال الصراع المتصل بين الأثرياء النبلاء وفقراء العامة. ولم يكن وصول هؤلاء الملوك إلى قمة السلطة مرتبطا على الدوام بالشرعية ، فما أكثر ما كانوا يبلغونها بمساعدة الطبقات الجديدة التى كانت تخلقها الحروب الاستعمارية وتتيح لها ثراءً يملؤها طموحا إلى الحكم ، فإذا هى تتآمر مع قادة الجيش لتخلع الملك القائم وتضع مكانه آخر تنعم إلى جانبه بالوظائف الكبرى فى دويلة المدينة. ومع أن هؤلاء الملوك كانوا يعملون من اليوم الأول على تحقيق أحلام أولئك الذين رفعوهم إلى سدة العرش بمنحهم المزايا وتسيير الجيوش لاكتساب مزيد من المستعمرات والأراضى التابعة لها فقد كانوا كذلك سريعى النزوع إلى الاستبداد والتسلط وهو ما ساعد فى النهاية على ظهور طبقات جديدة تعمل على الإطاحة بهم وإحلال ملوك جدد محلهم مستخدمة فى ذلك جميع الوسائل الممكنة .

طغاة كورنثة . وقد تم تعيين ابن آخر لبرياندر في كوركيرا . وعندما قتله أهل كوركيرا غزا برياندر المستعمرة وسحق المنشقين ثم عين ابن أخيه حاكما على المدينة. وزيادة في عقاب المدينة أخذ برياندر ثلاثمائة طفل من أبناء قادة المدينة وأرسلهم إلى سارديس في ليديا لكي يصيروا خصيانا . ومن المحتمل أنه كان يريد بيعهم بهذه الصفة . ومن حسن الطالع أن بعض الإغريق من أهل جزيرة ساموس أنقذوا الأطفال في الوقت المناسب . وفي أثينا قام الطاغية بسستراتوس بتأسيس مستعمرة سيجيوم (Sigeum) تحت قيادة ابنه هيجسستراتوس حوالي سنة ٥٣٠ ق.م . وعلى الرغم من أن ميلتياديس الكبير كان منافسا لبسستراتوس ، فإن الطاغية ساعده على احتلال خرسونيس (Chersonse) في تراقيا في منتصف القرن السادس ق.م. وقرب نهاية القرن السادس أرسل هيبياس ابن بسستراتوس «ميلتياديس الصغير» حاكما على المستعمرة . وهكذا استطاع طغاة كورنثة وأثينا ، إلى حد ما، أن يستخدموا المستعمرات في خدمة أغراضهم الإمبراطورية ، على الرغم من أن طغاة المدن الأخرى لم يفعلوا ذلك بشكل عام .

كانت كورنثة بين كل المدن قد اقتربت من إقامة إمبراطورية استعمارية . إذ إنها كانت تحتفظ بعلاقات متينة مع مستعمراتها ، كما كان لها نفوذ سياسي محدود عليها. ويتضح من السهولة التي حركت بها كورنثة المستوطنين الجدد إلى مستعمراتها في أناكتوريون (Anactorum) وإبيدامنوس (Epidamnus) سنة ٤٣٢ – ٤٣١ ق.م . أن الكورنثيين كان بمقدورهم أن يحصلوا على حقوق المواطنة في تلك المستعمرات على الرغم من أنه لم يكن باستطاعة المستعمرين أن يعودوا بسهولة إلى كورنثة . لقد كان المستعمرون يديرون أمور سياستهم الخارجية بأنفسهم طالما لم يكن ذلك متعارضا مع مصالح كورنثة ، وكانت كورنثة ، من جانبها، تؤيد تلك المستعمرات في أوقات الشدة، كما كانت تربطها بها جميعا علاقات تجارية حميمة . ومع هذا ، وعلى الرغم من رغبة كورنثة في السيطرة على مستعمراتها، فإنها سارت على نهج الدول الإغريقية الأخرى في إقامة مستوطناتها باعتبارها كيانات مستقلة. وكان ذلك عاملا مشجعا على الفرقة بدلا من الاتحاد. وعلى الرغم من ذلك ساعدتها قوتها البحرية في إخضاع مستعمراتها الأصغر، وقد نجحت إلى هذا المدى في تكوين إمبراطورية استعمارية . بيد أنها لم تستطع أن تحتفظ بنفوذ كبير على مستعمرتين كانت من أكبر المستعمرات وأقواها عسكريا وسياسيا ، وهما كوركيرا (Corcyra) وسيراكيوز (Syracure) .

لقد تم تأسيس كوركيرا وسيراكيوز فى نهاية القرن الثامن ق.م . قبل عصر الطغاة ، على أنهما مخرج للزيادة السكانية، وليس باعتبرهما مستعمرتين مستقلتين سياسيا. ولهذا السبب من ناحية ، وبسبب بعدهما الشاسع عن كورنثة من ناحية أخرى، لم تبذل المدينة الأم منذ البداية سوى محاولات قليلة للسيطرة عليهما ، ولذا صارتا قويتين مستقلتين . وكانت كوركيرا معادية لكورنثة منذ لحظة إنشائها تقريبا. وقد نمت قوتها بسرعة وبحيث إنها كانت تنافس قوة كورنثه حوالى سنة ٦٦٤ق.م. فى منطقة جنوب غرب بلاد الإغريق. ففى ذلك العام تقاتلت المستعمرة والمدينة الأم فى معركة بحرية . ومع ذلك ، فإن العلاقات بينهما صارت ودية مع غروب شمس القرن السابع ق.م . وحوالى سنة ٦٠٠ ق.م ، عندما كان برياندر (Periander) طاغية فى كورنثة وقعت كوركيرا تحت النفوذ الكورنثى مجددا . وعندئذ ، فى أثناء القرن السادس ق.م . استعادت استقلالها ودخلت فى منازعات أخرى مع كورنثه حول مستعمرات ليكاس (Leycas) وأناكتوريوم (Anactorium) وإبيدامنوس (Epidamnus) . وفى عام ٤٣٣ق.م اندلعت الشرارة الأولى فى أحداث الحرب البلوبونيزية حينما ناشدت ابيدامنوس المدينة الأم كوركيرا، دون جدوى ، لكى تساعدها ضد طغاتها المنفيين، وضد القبائل المحلية ، التى كانت تشن هجوما عليها آنذاك. ومن ثم تحولت ابيدامنوس تطلب عون الكورنثيين الذين وافقوا على مد يد المساعدة لها، مما عجل بالصراع المسلح بين كوركيرا وكورنثة ، وهو الصراع الذى انحازت فيه أثينا إلى جانب كوركيرا ، وبذلك كسبت عداوة كورنثة النشطة .

أما سيراكيوز، فقد كان معدل نموها أبطأ من كوركيرا، بيد أنها فى النهاية صارت أشد قوة وارتقت إلى مرتبة الدولة القائدة فى صقلية . لقد كانت العلاقات بين سيراكيوز والمدينة الأم ودية على الدوام طوال تاريخها ، كما كانت الروابط قوية دائما. وعندما هزم هيبوكراتيس (Hippocrates) حاكم جيلا (Gela) سيراكيوز سنة ٤٩٢ ق.م . تدخل الكورنثيون فى الخلاف لصالح سيراكيوز . وعندما هاجمت أثينا سيراكيوز سنة ٤١٥ ق.م. دعمت كورنثة مستعمرات بكافة أشكال الدعم (على الرغم من أنها تحركت بدافع من كراهيتها لأثينا أكثر من شعورها بالواجب تجاه مستعمرتها) . وفى سنة ٣٤٤ ق.م . وبناء على طلب الأرستقراطيين من أهل سيراكيوز، تم إرسال تيموليون (Timoleon) القائد من كورنثة لمساعدتهم ضد طاغيتهم .

وقد دافعت كوركيرا وسيراكيوز عن استقلالهما إلى حد كبير ، باعتبارهما مدينتين كبيرتين قويتين، وبقيتا خارج نطاق هيمنة كورنثة. وبسبب طريقتها فى بناء المستعمرات لم يكن باستطاعة كورنثة أن تحتفظ سوى بالمستعمرات الضعيفة . وبهذا حددت نجاحها فى مجال مد سلطانها السياسى داخل نطاق هذه الوسيلة . ولو أن كورنثة كانت قد خلقت مستعمراتها باعتبارها جزءا أساسيا من دولتها ، ومن ثم شكلت قوة متحدة تجمع بين ثراء وقوة سيراكيوز وكوكيرا ، فربما كانت ستبرز قوة رائدة فى بلاد الإغريق ، على نحو ما حدث لأثينا من خلال إمبراطوريتها ، وما فعلته إسبرطة من خلال الحلف البلوبونيزى .

وعلى عكس المدن الإغريقية الأخرى فى القرن الثامن ق.م والقرن السابع ق.م ، لم تكن الظروف تجبر أثينا على تأسيس مدن جديدة . وبدلا من ذلك اختارت أن تحل مشكلتها السكانية عن طريق استخدام موارد أتيكا. وعلى الرغم من أن الأرض كانت فقيرة ، فإنها كانت كافية من حيث المساحة لإمداد الدولة بالطعام . وكانت مستعمراتها فى عصر الطغاه مثل خيرسونيس (Chersonese) وسيجيوم (Sigeum) ، قد أسست لأهداف استعمارية إمبراطورية . شأنها شأن مستعمرات كورنثة . فبعد الحرب الفارسية فى أوائل القرن الخامس ق.م ، بدأت أثينا موجة كبيرة من التوسع ، وحولت حلف ديلوس، الذى كان قد أنشئ لقتال فارس ، إلى إمبراطورية أثينية، ومن ثم كانت أثينا فى نشاطاتها الاستعمارية فى القرن الخامس ق.م، والتى حفزتها أساسا الرغبة بأن تؤمن امبراطوريتها وتمدها ، عازفة عن اقامة المستعمرات التى يحتمل أن تنفصل عنها ؛ إذ أنها كانت بالفعل قد واجهت صعوبة مع المدن التى حاولت الثورة فى إمبراطوريتها، . وإذ أدرك الأثينيون ميل المستعمرة المعادية للحصول على الاستقلال تقدموا خطوة إلى الأمام أبعد من نظام حقوق المواطنة المتبادلة ، فابتكروا نظاما هجينا هو نظام الكليروخى(*) (Cleruchy) وهو مستوطنة للمواطنين الأثينيين (كان يطلق

(*) النظام الكليروخى Cleruchy :

هو نظام يتم فيه توزيع الأراضى فى المناطق الجديدة بين المواطنين عن طريق القرعة. ويختلف هذا النظام عن نظام إقامة المستعمرات العادية (apoikia) فى أن المواطنين الذين يتم توزيع هذه الأراضى عليهم عن طريق القرعة كانوا يحتفظون بحقوق المواطنة فى بلدهم الأصلى ولايفقدونها باستقرارهم فى المناطق الجديدة.

عليهم كليروخوس (Cleruchus) لأنهم مرتبطون بقطعة من الأرض (Kleros) الذين خرجوا إلى المستعمرة ، ولكنهم ظلوا مواطنين فى أثينا. والواقع أن هذا النمط من الاستيطان صار امتدادا للدولة الأثينية فى الخارج . ولم يبق فى أثينا سوى عدد قليل جدا من الكليروخيين باعتبارهم ملاك أرض غائبين، على الرغم من أنه كانت تخصص لهم قطعة من الأرض مثل الآخرين . وقد احتفظ كل الكليروخيين بالحقوق ، والامتيازات والالتزامات التى كانت للمواطنين الأثينيين، كما كان عليهم تأدية الخدمة العسكرية العامة ودفع ضرائب الحرب . ولكن لأن الكليروخيين كانوا يتألفون من المواطنين الأثينيين، فقد تم إعفاؤهم من الجزية التى كان على الآخرين من سكان الإمبراطورية الأثينية أن يدفعوها .

كان الكليروخيون يرسلون إلى الخارج لأغراض ثلاثة ؛ تأسيس مدينة فى قطعة أرض جديدة، أو ليحلوا محل سكان تعرضوا للطرد أو الإعدام ؛ أو لتدعيم مستوطنة قائمة . وغالبا ما كانت أثينا ترسل الكليروخيين بعد أن تنشب حركة تمرد فى إحدى مدن الإمبراطورية لكى يستوطنوا جزءا من أرض الدولة المهزومة . وفى الوقت نفسه يتم تقليل الجزية لقاء ما تم مصادرته من أراضى . لقد كان هؤلاء الكليروخيون بمثابة عامل توازن فى المدينة ووسيلة تتمكن أثينا من خلالها أن تفرض هيمنتها . وكان ذلك هو الحال فى ناكسوس (Naxos) ، مثلا ، بعد تمرد سنة ٤٧٠ ق.م . وفى ميلوس (Melos) عام ٤١٦ ق.م . أعدم الأثينيون كل الذكور من السكان وباعوا النساء والأطفال عبيدا، ثم وطنوا الكليروخيين فى الجزيرة . كذلك تم ارسال عدد كبير من الكليروخيين إلى ايجينا وهيستيايا بعد أن تم طرد السكان الإغريق المحليين. وفى ليمنوس فى القرن الخامس ق.م . نجد مجموعتين من الأثينيين ؛ الكليروخيين وغير الكليروخيين، يتعايشان سويا على الجزيرة . ومن الواضح أن الكليروخيين كانوا مستعمرين جدد . ولم يؤثروا فى الحال على وضع المستعمرين الأثينيين الذين سبقوهم ، ولكن بحلول القرن الرابع ق.م . كان جميع مستوطنى ليمنوس من الكليروخيين .

لقد برهن النظام الكليروخى على أنه وسيلة جيدة لمد السلطة الأثينية ، فى الوقت الذى تجنب فيه المشكلات التى تنشأ فى الشكل الأكثر شيوعا للمستعمرة. ومع هذا، فإن أثينا لم تتبع هذا النظام بصورة منتظمة ، وربما كان ذلك بسبب عزوف المواطنين

الأثينيين عن الرحيل بعيدا. وكانت هناك كليروخيات قريبة جغرافيا من أثينا مثل تلك اللاتى كن فى خالكيس (Chalcis) وأيجينا (Aegina) . وعلى أية حال ، ربما كان فشل أثينا نفسها . ففى أواسط القرن الرابع ق.م . كانت أعداد الذكور البالغين فى أثينا تتراوح بين ثلاثين ألفا وأربعين ألفا ، وهو عدد لايكفى لتوسيع الإمبراطورية من خلال استخدام النظام الكليروخى على نطاق واسع. وهو ما يعنى أن أثينا لم تجد سوى حل جزئى .

ومن ثم كانت أثينا مرغمة على تأسيس مستعمرات من النمط الإغريقى العادى، مثل بريا (Brea)، وثوربى (Thuru)، وأمفيبوليس (Amphapolis) . فقد أسست بريا فى منتصف القرن الخامس ق.م. لتدعيم القوة العسكرية الأثينية على الساحل الشمالى لبحر ايجه ، إذ تم اختيار موقعها بناء على اعتبارات استراتيجية . وتم إيفاد الموظف الأثينى ديموقليدس Demioclides لتنظيم المدينة الجديدة، ، ولكنه أدى وظيفته باعتباره مندوبا عن أثينا أكثر من كونه حاكما من النمط التقليدى ، وعندما أنجز مهمته عاد إلى أثينا. وكانت بريا مستعمرة صغيرة ، ومع ذلك يبدو أنها اختفت بسرعة بعد تأسيسها ؛ وربما تكون مستعمرة أمفيبوليس الجديدة القريبة قد استوعبتها.

كانت أهم المستعمرات العادية فى تلك الفترة ثوريى وأمفيبوليس ، واللتان ربما تم تأسيسهما لأغراض استعمارية إمبراطورية . وقد واجهت أثينا معهما مشكلات صعبة . ففى سنة ٤٣٧-٤٣٦ ق.م . تم تأسيس أمفيبوليس على ساحل بحر ايجه الشمالى، مثل بريا، لتعزيز القوة الأثينية فى تلك المنطقة . وقد ذهب إليها هاجنون (Hagnon) وهو واحد من الشخصيات السياسية والعسكرية البارزة، باعتباره حاكما ، ويعد أن أقام بها نظاما ديموقراطيا غادر المدينة. وقد حال عدد السكان الكبير اللازم لحماية المدينة دون إقامة النظام الكليروخى، فضلا عن أن أصول المستوطنين هناك كانت مختلطة بكثيرين ممن قدموا من مدينة أرجيللوس (Argilus) المجاورة . وصارت أمفيبوليس مقرا لعمل اثنين من الجنرالات الأثينيين، كما كانت شئون الدفاع والحكم فى المدينة بأيدى الأثينيين. ولكن لأن شعب أمفيبوليس لم يكن أثينيا ؛ سواء من حيث القرابة أو من حيث المواطنة، فقد كان شعورهم بالولاء تجاه أثينا قليلا. وكانت بعض

العناصر على استعداد لخيانة المدينة لحساب القائد الإسبرطي براسيداس (Brasidas) خلال الحرب البلوبونيزية . وفي مرحلة ما أعد أهل مدينة أمفيبوليس أنفسهم لقتال أثينا . وفيما بعد ، عندما حصلت إسبرطة على حكم المدينة، تنصلوا من علاقتهم السابقة بأثينا، وتقبلوا براسيداس حاكما عليهم .

أما ثوريي، التي تولى بركليس تأسيسها ، فقد استوطنت جنوب إيطاليا سنة ٤٤٤ق.م . قرب مستعمرة سيباريس (Sybaris) التي كانت قد دُمرت سنة ٥١٠ ق.م. ولأن أثينا لم تكن تملك عددا كافيا من المستعمرين لإقامة مستوطنة قوية، فقد دعا بركليس الإغريق جميعا للمشاركة في المستعمرة . وكان ذلك وضعا غير طبيعي ، لأنه في الأحوال الطبيعية لم يكن مسموحا بإعطاء حقوق المواطنة لأي أجنبي يفد إلى المستعمرة ، وإنما كان يعتبر «مقيما» . ومع ذلك فإن أي رجل حر كان يفد إلى ثوريي كان يصبح مواطنا كاملا وعضوا في المستعمرة. وفيما بعد ، ولاسيما في القرن الرابع ق.م كان الإغريق يتصورون أن مستعمرة ثوريي هي الخطوة الأولى نحو القومية الإغريقية (Panhellenism) فقد استقر بها هيرودوت طبقا لرواية بعض المصادر القديمة ، كما أن الفيلسوف بروتاجوراس هو الذي صاغ نظامها القانوني . ويقال إن هيبوداموس (Hippodanus) مهندس المدن هو الذي خطط المدينة كما أن كلياندريداس (Cleandridas) ، وهو قائد إسبرطي منفي، قد انضم إلى المستعمرة . ويبدو على أية حال، أن دافع أثينا كان هو تأمين موطيء قدم في الغرب من خلال هذه المدينة وهو هدف تحقق بصورة جزئية. ففي سنة ٤٣٤-٤٣٣ ق.م . اشتعل القتال بين الأثينيين والبلوبونيزيين حول من تكون المدينة الأم ومن يكون المشرف على المستعمرة . وعندما طُلب التحكيم ، أعلنت نبوءة أبوللو في دلفي حل المشكلة بإعلان أن الإله أبوللو هو المشرف على المستعمرة . بيد أن العنصر الأثيني ظل ممسكا بزمام السلطة حتى هزيمة أثينا في صقلية سنة ٤١٣ ق.م . وقامت ثوريي بطرد عدد كبير من المواطنين سنة ٤١٢ ق.م . بسبب تعاطفهم مع الأثينيين وتحالفت مع البلوبونيزيين. وقد اتضح من هذا النموذج أن أثينا لم تكن تملك من الموارد ما يمكنها من أن تستخدم النظام الكيلروخي بصورة فعالة، ولا أن تؤسس مستعمرات كبيرة، على حين أثبتت المستعمرات ذات الأصول المختلطة أنها لاتساندها فيما ترمي إليه من أهداف .

أثر الاستعمار :

كانت حركة الاستعمار ، فى مجملها ، نجاحا هائلا . إذ انتشرت القوة الإغريقية عبر البحر المتوسط، وجنت بلاد الإغريق فوائد جمة . إذ أعاد الاستعمار مجددا الثروة إلى الوطن، فقد كانت المعادن تجلب، بعد أن كانت نادرة فيما مضى، وجاءت المعادن من الشرق ومن الغرب ، وأبحرت السفن صوب الوطن تحمل الحبوب والمواد الغذائية . وهو الأمر الذى مكن الإغريق من التصنيع ومن انتاج الفخار والأدوات المعدنية التى يمكن ارسالها إلى المستعمرات ، لقد حل بالمدن ثراء جديد على الرغم من أنه لم يعم على كل المستويات فى المجتمع ، ومع ذلك الثراء زادت أعداد السكان . ومن ثم لم تخف ضغوط الزيادة السكانية تماما بحركة الاستعمار، ولكن معدل تقسيم الأرض أخذ فى التباطؤ ، وظهرت حرف تجارية ومهن جديدة .

كان لعصر الاستعمار الإغريقى العظيم فضل نشر الحضارة الإغريقية فى أماكن عديدة فى حوض البحر المتوسط والبحر الأسود . إذ إن المستعمرات احتفظت بالصبغة الإغريقية ، وكانت قوة تلك المستعمرات كامنة فى تفردها ، وفى قناعتها بأنها مراكز سياسية مستقلة ، وأنها أفضل من «البرابرة» المحيطين بها. وقد ساعدها على الحفاظ على هويتها الثقافية موقفها من بلاد الإغريق الأصلية وعلاقات التبادل التجارى الدائمة معها. لقد كان الاغريق الغربيون مدركين تماما لانتمائهم إلى الاغريق ، لاسيما إذا ما تم التزاوج مع عناصر أخرى ، فإنهم يتفانون فى الاحتفاظ بهويتهم . وقد زاد تأثر الإغريق بالسكان المحليين فى أطراف المناطق الاستعمارية ، على نحو ما حدث فى قورينى وكريميا (Crimea) .

لقد كان تأثير المستعمرات الإغريقية شاملا على السكان المحليين. وكانت الحضارة الأتروسكية مدينة لهم بشدة . كما أن الحضارة الرومانية ازدهرت بدافع من المدن الإغريقية فى جنوب ايطاليا. وفيما بعد، عندما استولت روما على تلك المناطق ، فاضت الروح الإغريقية على روما ؛ بما تحمله من فن ، وأدب وفلسفة ، وعلم. وفى القرون الأخيرة من عمر روما كان الرومان المتعلمون يعرفون اللغة اليونانية ، وكانت

الأشياء الإغريقية تلقى قبولا واسع المدى بحيث إن الشاعر هوراس(*) (Horas) وصف التأثير الإغريقى بقوله : «على الرغم من هزيمة بلاد الإغريق ، فإنها قهرت المنتصر (روما) . لقد أدخل الإغريق الزيت والخمر إلى جنوب فرنسا وتركوا شهادات صامتة عديدة تشهد على وجودهم . ومن شمال فرنسا وغربها حتى فكس (Vix) في وسط فرنسا ؛ حيث تم اكتشاف إناء للخمر من البرونز ، يرجع تاريخه إلى القرن السادس ق.م. فى مقبرة احدى الاميرات، وربما يكون أصله من البلوبونيز . كذلك تم اكتشاف مصوغات ذهبية وفضية فى جنوب روسيا بالمقابر الاسكيثية الملكية ، وهى من إنتاج فنانين إغريق عاشوا فى المنطقة وجمعوا بين السمات المحلية والحرفة الاغريقية .

كانت المستعمرات ، إلى حد كبير، وسيلة غير ناجحة لنشر السلطة السياسية لأن الهدف الأصلى منها لم يكن هذه الوظيفة . لقد تم تأسيسها باعتبارها دولا مستقلة ، وقد استمرت في الوجود بهذه الصفة . وعندما توجهت إلى الاستعمار ، بسبب طموحها ، وتم ابتكار النظام الكليروخى بقصد التغلب على مشكلة الحكم الذاتى، لم يحقق ذلك الحل الثورى سوى قدر جزئى من النجاح كما رأينا .

وهكذا لم تكن هناك مدينة إغريقية قادرة على منع الميل الطبيعى للتجزئة فى بلاد الإغريق. ولم يتم بناء المستعمرات سوى عندما تفاقم الأمر فى النهاية. وبذلك لم يتم حل المشكلة الأساسية ، وهى مشكلة الفرقة .

(*) هوراس Horas :

شاعر رومانى فذ. كان ذا نزعة فلسفية جعلت قوة شعره تغلب على عذوبته وجمعت التعقيد إلى البراعة والتأنق ، وشدت إليه من الفلاسفة والفنانين عددا أكبر من عدد عشاقه من الناشئة والمتأدبين ؛ إذ يمتلئ شعره بالوصايا الرشيدة الزاهدة . ورغم أن هوراس أطلق على نفسه أنه خنزير من حظيرة ابيقور لشغفه باللذة واستمتاعه بها. فإننا نجد فى شعره تقديسا للفضيلة يجعله فى طليعة الرواقيين وسرعان ما تبذ الحديث عن المجردات مكتفيا بوصف مشاهد الطبيعة المحيطة وومضات مما يتضمنه العالم من أسرار إلهية ، وازدهرت هذه الحكمة فى شكل تأملات جعلت هوراس خير معبر عن الحياة الدينية الرومانية ، فتغنى مثل فرجيل بفضائل الجنس الرومانى المتجسد فى شخص أوغسطس كذلك ألف نشيدا رسميا كانت تردده فى مبنى الكابيتولينوس جوقة إنشاد من الفتية والفتيات .

الفصل الرابع

حركة الاستعمار الإغريقية

يمكن لأية دولة أن تحكم سيطرتها على البلاد التى غزتها بوسائل متنوعة – قانونية، ودستورية ، دينية وعسكرية . ولكن أيا كانت الوسائل المستخدمة ، فإن أحد واجباتها الأساسية أن تقيم تنظيما متماسكا . وقد برهن الرومان على أن منح حقوق المواطنة وسيلة فعالة لضمان الولاء والتماسك . فبعد هزيمة أية قبيلة مجاورة كانوا يمنحون أفرادها نصف حقوق المواطنة، ثم يجعلوهم مواطنين كاملين فيما بعد . لقد قامت سياسة روما على أساس استيعاب الدول المهزومة داخل النظام الرومانى. وكان ذلك المفهوم غريبا تماما على الدول الإغريقية . إذ إن وجهات نظرهم المحدودة فى هذا المجال جعلت من غير المعقول بالنسبة لهم أن يمنحوا المهزومين فى القرن الخامس ق.م. حقوق المواطنة . وقد عالجت أثينا مشكلة توحيد إمبراطوريتها على نحو أفضل من غالبية الدول، لاسيما وأنها كانت الدولة الوحيدة ، تقريبا، التى أدركت أهمية حقوق المواطنة فى توحيد الإمبراطورية . وفى مقابل ذلك تسببت ممارسات إسبرطة لتقييد حقوق المواطنة فى توحيد الإمبراطورية. وفى مقابل ذلك تسببت ممارسات إسبرطة لتقييد حقوق المواطنة فى ضعفها داخليا ، وفى الصعوبات الجمة التى واجهتها فى استيعاب الشعوب المهزومة . وهكذا لاحظ أرسطو أن عقيدة القوة والتفوق العسكرى يمكن أن تؤدى إلى نصر دون القدرة والفهم التى تيسر الإفادة من هذا النصر .

التجربة الإسبرطية :

ربما كانت إسبرطة أكبر مدن إقليم لاكونيا (Laconia) بالفعل، عندما بدأت توسعها الكبير فى القرن التاسع ق.م ؛ إذ بدأت تمد نفوذها أولا صوب الشمال ،

ثم باتجاه الجنوب بعد أن انتصرت على المدن المجاورة مثل أمكلاى (Amyclae) وفى منتصف القرن الثامن ق.م. أخضعت مسينيا القريبة بعد أن وطدت مركزها فى وادى إيوروتاس (Eurotas) الأعلى .

لقد استوعبت إسبرطة هذه الدويلات المهزومة بطريقة أملت الكثير من تاريخها فيما بعد. ففى خارج إسبرطة نفسها، كانت الشعوب المهزومة تنقسم إلى مجموعتين، مجموعة المجاورين (Perioikoi) ومجموعة الأقنان (Helots) . وكان المجاور مواطنا كامل المواطنة فى مدينته ولكن دون أية التزامات شخصية تجاه إسبرطة، على الرغم من خضوعه للحكام الإسبرطيين. ومع ذلك، فإن مدينته لم تكن مستقلة سوى فى الشئون المحلية ، وكان لزاما عليها أن تمد إسبرطة بالقوات (كان هذا يتناقض بوضوح مع أثينا ؛ حيث إن توحيد أتيكا خلق حقوق مواطنة عامة لسكانها). وفى معظم أجزاء مسينيا (Messenia) المقهورة، وقع السكان تحت نير العبودية، وهو ما حدث أيضا فى بعض مناطق لاكونيا . لقد كان الهيلوت (Helot) شبيها بالقن الإقطاعى، ولكنه كان مختلفا عن القن من حيث كونه ملكا للدولة ويخصص لخدمة واحد من الأسياد عادة ما يكون غائبا عن المدينة. وعلى الرغم من أن الإسبرطيين قد ربطوا القن بالأرض، فإنهم نادرا ما كانوا يتدخلون فى شئونه طالما كان منتجا . بيد أن أولئك الأقنان لم يتمتعوا بأية حقوق مدنية ، وكان من الممكن أن يعدمهم الإسبرطيون دونما محاكمة . وقد حدث ذلك فعلا بشكل تعسفى. وكانت عمليات القتل تلك تأخذ شكلها الدستورى من خلال تنظيم رسمى عرف باسم «الخدمة السرية» (Krypteia) . ويخبرنا بلوتارخ (Plutarch) أنه بين الحين والحين، كان الحاكم يرسل المحاربين الشبان المسلحين بالخناجر إلى الريف . وأثناء النهار كانوا يختفون فإذا جاء الليل انقضوا على الطرق لكى يقتلوا كل قن تطوله أيديهم. بل إنهم كانوا يذهبون فى بعض الأحيان إلى الحقول لكى يقتلوا الأقنان الأقوياء . ويسجل ثوكيديديس (Thucydidas) حادثة شنعا ، عندما أعلن الإسبرطيون أن كل الأقنان الذين أسدوا خدمات جليلة لإسبرطة يجب أن يصطفوا جانبا لكى ينالوا حريتهم . والواقع أنهم كانوا يختبرون فقط من ادعى من الأقنان أن له حق الحرية والعتق ، لأنهم شعروا أن أولئك سوف يكونون أكثر اعتزازا بأنفسهم

ويرجح أنهم قد يهاجمون سادتهم . وتم تتويج رؤوس ألفين من الأقنان بالغار رمز للتحرر ، وساروا فى موكب ضخم لزيارة معابد الآلهة. وبعد ذلك اختفوا جميعا، فقد تم اغتيالهم فى صمت . لقد كان يقال «فى إسبرطة يكون الرجل الحر أكثر حرية من أى رجل آخر فى أى مكان بالعالم، كما أن العبد أشد عبودية».

كان الأقنان يشعرون تماما بهويتهم الجماعية، لأنهم كانوا أيونيين أصلا على ما يبدو- على حين كان الإسبرطيون من أصل دورى- على الرغم من أنه بحلول القرن الخامس ق.م . كانت لغتهم وعاداتهم قد صارت مماثلة للغة وعادات من قهروهم . وقد فاقت أعدادهم أعداد الإسبرطين بدرجة كبيرة، وكان لديهم استعداد دائم للثورة، لاسيما فى مسينيا. ولم يكن قلق إسبرطة من احتمال تمرد الأقنان بدون أساس ، وهو ما يتضح من خلال ثوراتهم الكبيرة العديدة.

وقد توسعت دول إغريقية أخرى، فى القرن الثامن، عن طريق تأسيس المستعمرات وهو الأمر الذى حفز التجارة . وقد تطلب هذا بدوره وجود البضائع المصنعة ، كما شجع على تطوير الطبقة التجارية. ولكن إسبرطة كانت قد حصلت على ما يكفى من الأرض والثروة عندما احتلت مسينيا ، وهو تطور جعل اهتماماتها تتحول بعيدا عن التوسع عبر البحار، على الرغم من أنها قامت فعلا بتأسيس بعض المستعمرات من آن لآخر خلال تاريخها . فقد ربطت نفسها بمستقبل زراعى ومجتمع منقسم ما بين السيد والقن. وخلقت إسبرطة قوة فعالة لعمل الأقنان من أجل غزواتها وتطوير هذه الغزوات، ولكى يمكن الحفاظ على هذه القوة والتحكم فيها كان لزاما على المجتمع الإسبرطى أن يتحول إلى مجتمع عسكرى بصورة مطردة. هذه العوامل حالت دون تطور الطبقة التجارية الحقيقية، مع استثناء عدد قليل من المقيمين(Perioikoi) ، كما ولدت جوا من الشك والرجعية المتزمتة .

لقد شجعت حركة الاستعمار والتصنيع التى شهدتها بلاد الإغريق فى القرن الثامن ق.م. والتى تواكبت مع إدخال نظام الجندى ثقيل التسليح (hoplite) فى مطلع القرن السابع ق.م . على ظهور حكم الطغاة فى العديد من الدويلات الإغريقية . وقد ظهر الطغاة فى بعض الدول الإغريقية الأخرى باعتبارهم حماة لكل من طبقة المحاربين والطبقة التجارية ، ولكن لأن إسبرطة كانت تخلو من التجار، فقد انحصر الصراع فيها بين الطبقة الأرستقراطية والمحاربين. وبدلا من حكم الطغاة والحرب الأهلية أمكن

التوصل إلى اتفاق بين الفريقين تمثل فى الدستور . هذا النظام القانونى عرف باسم «الدستور الليكورجى» ، لأن أصله نسب إلى شخصية شبه تاريخية اسمه ليكورجوس(*) (Lycurgus) وسواء وجد ليكورجوس حقيقة، أم لا، فمن المؤكد أن ذلك النظام قد أمتد على مدى فترة طويلة من الزمان، بإطاره الأساسى الذى يحتمل أن يكون راجعا إلى بداية القرن السابع ق.م . بيد أن أجزاء منه، مثل تحريم العملة النحاسية، ربما يرجع تاريخها إلى فترة زمنية لاحقة ، حيث إن مثل ذلك المنع لم يكن ممكنا قبل إدخال النقود النحاسية فى بلاد الإغريق أواخر القرن السابع ق.م. وثمة جزء من هذا الدستور يسمى (Great Rhetra) ويقول عنه بلوتارخوس إنه من وحى نبوءة دلفى التى حصل عليها ليكورجوس. وفى ظل الدستور الليكورجى كان المحاربون يعرفون باسم «الأنداد»، وهو ما يشير إلى أنهم كانوا غير متساوين من قبل . ومنذ ذلك الحين فصاعدا ارتبطت المؤهلات الرسمية للحصول على حق المواطنة بقدرة الإسبرطى على المساهمة فى المائدة العامة (Syssition) وكان كل مواطن يمنح عند مولده قطعة أرض لايجوز التصرف فيها (Kleros) ، وكان من مصلحة الدولة أن تعوق التصرف فى الأرض على هذا النحو، فلو أن الإسبرطى تمكن من بيع الأرض، فإنه لن يقدر على المساهمة فى المائدة العامة، وهو ما يعنى حرمان الدولة من مواطن وجندى فى آن معا . وقد حدد الدستور الليكورجى ، نظام التربية (agoge) وهو نظام تدريب عسكرى ينخرط فيه الإسبرطى فيما بين سن السابعة حتى سن العشرين. وعندما يبلغ الإسبرطى سن العشرين يلتحق بطبقة تُسمى (Eirenes) ، وباعتباره واحدا منها يحصل على حقوق مواطنة معينة ، ويصبح قادرا على أداء الخدمة العسكرية. وأخيرا ، فى سن الثلاثين ، يسمح له بحضور المجلس وينال كافة الامتيازات القانونية ، بما فى ذلك حق الزواج .

(*) ليكورجوس Lycurgus :

يُعتبر ليكورجوس مؤسس النظام الإسبرطى ، فهو المشرع الذى ينسب له التراث اختراع هذا النظام الاجتماعى والعسكرى الفريد، ولقد اختلفت الآراء حول الفترة الزمنية التى عاش فيها فيرى هيرودوت أنه عاش حوالى عام ٩٠٠ ق.م ولكن المتأخرون وفيهم بلوتارخوس يعتقدون أنه عاش فى بدايات القرن الثامن ق.م ، وعلى حين يؤمن الأقدمون بأن ليكورجوس كان شخصية تاريخية حقيقية يشك بعض الدارسين المحدثين فى وجوده ويعتبرونه شخصية أسطورية .

وكان من الصعب على إسبرطة ، فى ظل هذا النظام وفى وجود جماهير خاضعة وحقوق مواطنة مقيدة بشدة– نقول إنه كان من الصعب على إسبرطة أن تجد ما يكفى من الجنود لإخضاع دولة أخرى بنفس الطريقة التى تم بها إخضاع مسينيا . ولابد أن دمج مدينة كبيرة أخرى فى نظامها الطبقى الجامد كان سيشكل مهمة شاقة للغاية. وقد أدى هذا إلى أن يكون الاتحاد الفيدرالى هو وسيلتها الطبيعية فى التوسع .

وفى نهاية القرن السادس ق.م . كان الحلف البلوبونيزى قد برز إلى الوجود فى صورة تحالف عسكرى دفاعى وهجومى بين إسبرطة والدويلات البلوبونيزية الأخرى (وعلى أية حال كان يمكن لأعضاء الحلف أن يحاربوا بعضهم بعضا، طالما أن الحلف بأسره لم يكن فى حالة حرب). لقد كان ذلك تحالفا غير متكافئ تقوده إسبرطة وعلى النقيض من بعض التحالفات الفيدرالية الإغريقية، لم تكن هناك حقوق مواطنة عامة بل استمر كل مواطن يحتفظ بحقوق المواطنة فى مدينته، وفى الحلف البلوبونيزى ، والأحلاف الأخرى التى كانت على شاكلته ، كانت الدولة القائدة تهدف إلى كسب مزيد من القوة على حساب الأعضاء الآخرين. وتمثلت المحصلة النهائية فى مجموعة من الدول التى توحدت بشكل فضفاض تحت رئاسة أقوى هذه الدول. وصار الانسحاب من الحلف أمرا مستحيلا إلا باستخدام القوة. وعلى الرغم من أن قرار المجلس الإسبرطى كان ملزما للحلف ، فإن إسبرطة غالبا ما كانت توجه الرأى الاستشارى لمندوبى دول الحلف وفق ما تريد . وعلى عكس حلف ديلوس ، الذى كانت أثينا تسيطر عليه، لم يكن للحلف البلوبونيزى أى تنظيم رسمى ، كما لم يكن هناك أى موظفين رسميين . هذا النمط من التنظيم لم يؤد إلى الوحده بين أعضائه : إذ إن عجز إسبرطة عن إقناع حلفائها بأن يرتضوا بشروط سلام نيكياس (Nicias) سنة ٤١٢ ق.م . يقوم مثالا على ذلك . وفى غضون سنوات قليلة بعد هزيمة عدوهم العام فى الحرب البلوبونيزية ؛ أى أثينا اشتبكت إسبرطة نفسها فى حرب ضد أقوى أعضاء الحلف .

وفى أثناء غزو اسبرطة للدول الأخرى، تجلى عجزها عن ضم واستيعاب الدول التى غزتها . وتركت الدول تنعم باستقلال ذاتى فعلى داخل إطار الحلف البلوبونيزى ، هذا الفشل يمكن تفسيره جزئيا فى ضوء سياسة أسبرطة الخارجية البالغة التزمت .

وعندما آذنت شمس القرن السادس ق.م . بالمغيب ، وبعد أن كانت إسبرطة قد حققت سيطرتها على البلوبونيز ، قامت بأول عملياتها العسكرية خارج البلوبونيز

بطرد الطاغية هيبياس (Hippias) من أثينا. ففى سنة ٥١٠ طلبت عشيرة الكميونيدس (Alcmaeonids) التى كانت قد طُردت من أثينا إلى المنفى، مساعدة إسبرطة ضد هيبياس . وانتهزت إسبرطة هذه الفرصة لكى تمد نفوذها على أثينا، التى كانت حليفا لعدوها أرجوس، وبسرعة استجابت إسبرطة لهذه الدعوة ، ولكن ما أن تم طرد هيبياس حتى تخلت إسبرطة بسرعة عن القائد الألكمايونيدى كليستنيس (Cleisthenes) بسبب ميوله الديموقراطية ، وآزرت ايساجوراس (Isagoras) الذى يميل إلى الحكم الأوليجاركى. وفى سنة ٥٠٨ق.م . نجحت فى إرسال قوات إلى أثينا لدعم إيساجوراس. وفى حركة التفاف كامل دعا الملك الإسبرطى كليومينيس (Cleomenese) إلى اجتماع للحلف البلوبونيزى وحثها على إعادة هيبياس ، ولكن أعضاء الحلف رفضوا دعوته بجفاء .

لم يكن تدخل إسبرطة فى أثينا سوى المحاولة الأولى فى خط طويل من المحاولات لإحكام السيطرة على مدينة أسيرة بواسطة الأقلية الموالية لإسبرطة ، وهو منهج لم تثبت فعاليته إلا نادرا وما لم يكن الأوليجاركيون قادرين على إقامة قاعدة قوية للسلطة . ولم تتمسك الدول الديموقراطية التى خضعت لسيطرة أسبرطة بهذه الطريقة بولائها لأية فترة زمنية طالت أم قصرت .

وبانتهاء المرحلة الرئيسية فى الحرب ضد فارس سنة ٤٧٩ ق.م ، حولت إسبرطة انتباهها إلى الداخل حيث قضت السنوات العشرين التالية فى تدعيم موقفها فى البلوبونيز . وعندما أخمدت سنة ٤٦٠ق.م . إحدى ثورات الأقنان المرهقة التى استمرت طويلا، تخلت عن عزلتها وسرعان ما زجت بنفسها فى غمار حرب غير حاسمة استمرت ضد أثينا بشكل متقطع حتى سنة ٤٤٦ق.م . وعلى الرغم من ذلك فإن الصراع أدى إلى تقليل حجم إمبراطورية أثينا، التى كانت قد بلغت أقصى اتساع لها سنة ٤٥٧ق.م . ثم اشتعلت الحرب بين الحلف البلوبونيزى بعد فترة سكون قصيرة ، وكانت إسبرطة تمتلك حتى ذلك الحين بعض الأراضى الأجنبية القليلة التى تعين عليها تنظيمها ، وقد نجحت باستخدام أساليبها السابقة . وعلى أية حال ، فإنه بسبب حالة الحرب لم يعد الدعم الذى تتلقاه إسبرطة من الحكام الأوليجاركيين الموالين لها، أو الانضمام إلى الحلف البلوبونيزى ، يكفى لكى تفرض سلطانها على الدول المغلوبة .

ومن ثم بدأت فى إقامة حاميات عسكرية فى بعض هذه الدول، لاسيما ما يقع منها خارج منطقة البلوبونيز . وفى غضون السنوات العشر الأخيرة من الحرب اضطرت إلى تدعيم فتوحاتها بصورة مطردة لأسباب عسكرية أولا، ولكى تحتفظ بسيطرتها على السكان أيضا . بيد أنه لم يحدث أن عالجت إسبرطة مشكلة احتواء الدول المهزومة ، وعلى نطاق ضيق ، سوى بعد أن خرجت منتصرة من الحرب.

وبعد أن هزمت إسبرطة أثينا سنة ٤٠٤ ق.م. لاحت لها فرصة تكوين إمبراطورية ، بيد أنها أخفقت فى ذلك لافتقادها إلى الوسائل الفعالة لحكم فتوحاتها واستيعابها . وتمثل معاملتها لأثينا فى نهاية الحرب البلوبونيزية نموذجا خاصا لهذا القصور . فقد استغنت إسبرطة عن أثينا، لأنها لم تشأ أن تخلق فراغا فى القوة فى أتيكا التى كانت تعتقد أن طيبة (Thebes) سوف تتحرك صوبها من الشمال . ولقد ثبتت ظنونها بخصوص أغراض طيبة. فبعد الحرب مباشرة انتهج أهل طيبة سياسة عدائية ضد إسبرطة ، وحاولوا بسط نفوذهم على أتيكا . فقد آوت طيبة المنفيين الأثينيين الذين رفضت أن تسلمهم إلى إسبرطة . وحاولت إسبرطة أن تحكم أثينا من خلال هيئة الطغاة الثلاثين الذين تم اختيارهم من بين الموالين لها فى المدينة. وعلى أية حال، تسبب النزاع الداخلى فى إسبرطة فى سيطرة الديموقراطية المعتدلة على أثينا فى غضون أقل من سنة. وبهذا التحول فى الأحداث تزايد ضعف سيطرة إسبرطة على أثينا. وبحلول سنة ٣٩٥ ق.م . كانت أثينا قد اتحدت مع طيبة لصد هجوم شنته إسبرطة على بوئيتيا (Boeotia) وهو ما نتج عنه التحالف الرباعى بين أثينا وطيبة وأرجوس وكورنثه فى مواجهة إسبرطة . ولما كانت أثينا قد أجبرت فى نهاية الحرب البلوبونيزية على هدم أسوارها فإنها عملت على إعادة تحصينها بسرعة كبيرة خلال عامى ٣٩٥، ٣٩٤ ق.م وشهدت سنة ٣٩٣ ق.م. وبذلك تمكنت أثينا من إحراز القوة التى تمكنها من الصمود فى مواجهة إسبرطة مرة أخرى .

لقد حاولت إسبرطة ادارة الإمبراطورية التى كونتها من خلال الحرب بنفس الأساليب التى اتبعتها مع أثينا . ففى مدن عديدة أقام القائد الإسبرطى ليساندر (Lysander) تابعيه على شكل أقلية حاكمة من عشرة رجال باسم «الديكارخى». (Decarchy) أى الحكام العشرة بالإضافة إلى حامية إسبرطية تحت قيادة ضابط

عسكرى وكانت تلك وسائلها فى حكم كل مدينة . وكان يتم إعداد هذه الحاميات من خلال الضريبة التى فرضت على المدن المحتلة . ففى ميليتوس ، مثلا، ارتكب ليساندر مذبحة ضد الديموقراطيين ، ثم نصب حكاما عشرة على ما بقى من السكان. هذه الهيئات المحدودة خلقت اوليجاركية بالاسم ، ولكنها فى الواقع كانت حكومات طغاة ، ولم يكن هذا النظام القمعى القاسى ليستمر طويلا دون أن يجلب الكوارث على نفسه. وفى سنة ٤٠٢ق.م كان نفوذ ليساندر قد أخذ يتدهور . ففى ذلك الوقت، تنبهت إسبرطة بفضل الشكاوى التى وصلت من حكومات العشرة ، ولذلك لجأت إلى تغيير هذه الحكومات بحكومات أكبر عددا ، أو سمحت للمدن بالعودة إلى أشكال الحكومات السابقة، وربما كان ذلك مصحوبا بخفض قوة الحاميات وعدد أفرادها . وعندما أبحر الملك أجيسلاوس (Agesilaus) بحملته العسكرية فى آسيا الصغرى سنة ٣٩٦ ق.م ، أقام حكومات أوليجاركية متطرفة، مثل تلك التى أقامها ليساندر، بيد أنها لم تكن محدودة . وقد ثارت كل دول البحر الايجى تقريبا بعد هزيمة الأسطول الإسبرطى على يد الفرس فى كنيدوس (Cnidos) سنة ٣٩٤ ق.م - باستثناء تلك المدن القليلة التى كانت الحاميات الإسبرطية فيها قوية بالدرجة الكافية لقمعها - وبضربة واحدة أفلتت معظم الإمبراطورية الايجية من قبضة إسبرطة التى كانت قد حصلت عليها من أثينا .

وعلى الرغم من ذلك، استمرت إسبرطة تحكم الدول الخاضعة لها من خلال الحكومات الأوليجاركية والحاميات . ففى سنة ٣٨١ق.م . صدرت الأوامر لفليوس (Phlius) بإعادة الحكام الأوليجاركيين المنفيين ، وبمجرد أن عاد الأوليجاركيون انقضوا على الديموقراطيين . وقد أعطت الحرب الأهلية التى نجمت عن ذلك لإسبرطة الذريعة التى كانت تنتظرها . فقد هاجمت المدينة واحتلتها ، وأقامت بها حامية ، ثم عينت بها حكومة أوليجاركية . وهذا هو ما كانت تخطط له منذ البداية تقريبا. وفى سنة ٣٨٢ ق.م . قام الضابط الإسبرطى فويبداس (Phoebudas) بالتآمر مع الحكومة الأوليجاركية فى طيبة واحتلوا القلعة . وبعد الإعدام السريع للزعيم الديموقراطى وفرار كثيرين من الديموقراطيين إلى أثينا، أرسلت إسبرطة قوات لاحتلال القلعة التى كانت الموقع العسكرى الحاكم بالمدينة. ثم قامت اسبرطة باقامة حكومات أوليجاركية موالية لها فى ثيسبياى (Thespiae) وأورخومينوس (Orchomenus) وبلاتايا (Platataea)

للمجاورة . وكانت في بعض الأحيان تقوم بتدمير المدن ككيانات سياسية لكي تحكم قبضتها على السكان . ففي سنة ٣٨٦ق.م سلمت إنذارا إلى أهل مانتينيا (Mantinea) بإزالة تحصيناتهم وقد رفضوا ، وشنت إسبرطة هجومها . وعندما هزم أهل مانتينيا تم تقسيمهم إلى خمس قرى منفصلة، على كل منها أن تقدم بعض القوات لإسبرطة .

وبحلول سنة ٣٧٩ق.م ، أي عندما وصلت إسبرطة إلى ذروة قوتها ، سمحت لحلفائها أن يستبدلوا الخدمة العسكرية بأموال يدفعونها لاستئجار المرتزقة . ومع ذلك استعاد أهل طيبة حكم مدينتهم سنة ٣٧٨ق.م ، وكانت تلك علامة انهيار إسبرطة السريع. وسرعان ما انضمت أثينا إلى طيبة في مواجهة إسبرطة . وبعد ذلك مباشرة تكون الحلف الأثيني الثاني. وفي الوقت نفسه عادت طيبة أكثر قوة تحت قيادة إبامينونداس (Epaminondas) وبيلوبيداس (Pelopidas) وأعادت مدن بؤيتيا تأسيس عصبتها، وفي هذه المرة ، لأنهم كانوا مستعدين للتضحية باستقلالهم الذاتي فقد استطاعوا فعلا تكوين دولة واحدة على أن تكون طيبة مركزا للحكم .

وفي سنة ٣٧١ ق.م حطم أهل طيبة القوة الإسبرطية في معركة ليكترا (Leuctra) وأحالوها إلى قوة من الدرجة الثانية بدلا من مركزها كدولة عسكرية قائدة، وهو المركز الذي كانت تحتله منذ مائتي سنة . وجاءت الضربة القاضية سنة ٣٧٠ ق.م عندما حرر الأقنان في مسينيا وأقاموا دولة مستقلة هناك. وكان من بين أسباب هزيمة إسبرطة أنها لم تستطع التكيف مع الخطط العسكرية المتغيرة . لقد كسبت إمبراطوريتها بالسيف ، وعندما أصيب هذا السيف بالصدأ تهاوت الإمبراطورية. كما أن عجزها عن التعامل مع فتوحاتها بشكل فعال، وعدم قدرتها على أن تدمج هذه الأراضي المفتوحة في نسق وحدوي كان من أهم أسباب اضمحلالها. وعلى عكس أثينا، لم تكن لها أية روابط اقتصادية عامة تربطها برعاياها أو حلفائها؛ إذ إن إخضاعها لدولة ما لم يكن يجلب لها سوى ميزات قليلة، ، كما أن رجعيتها الصارمة منعتها من أن تطور أية وسائل إبداعية لتدبير أمر الأراضي التي فتحتها .

كما ساهم النقص الفادح في عدد السكان في تدهور إسبرطة وفشلها بعد الحرب البلوبونيزية . ذلك أن الأعمال الحربية المستمرة طوال القرن الخامس تسببت في تقلص عدد السكان إلى درجة كبيرة ، إذ إن عبء الحرب وقع على عاتق السكان. ولأن الرجال

كانوا يقتلون لم يعد ثمة مصدر للدماء الجديدة اللازمة لملء الصفوف . كما أن الانخفاض المتسارع فى نسبة المواليد زاد الطين بلة. ذلك أن مشكلات الأرض كانت مسئولة إلى حد ما عن تدهور نسبة المواليد. إذ يلاحظ بلوتارخ أن كل مواطن كان يتسلم قطعة أرض (Kleros) عند مولده (وربما كانت الدولة تستردها عند موته). وقد استنتج أرسطو أن ثمة نوعًا من الأرض قابل للتوريث كان موجودا فى الأصل، ويبدو أن استنتاجه صحيح إلى حد بعيد فى ضوء ذلك التفاوت الكبير فى ملكيات الأرض. وهو تفاوت يبدو مستحيلا إذا ما كانت ملكية كل شخص منحصرة فى نطاق قطعة الأرض المحددة له. ففى القرن السابع كانت قطعة الأرض تنتج ما يكفى الإسبرطى وأقنانه ، كما تتيح له المساهمة فى المائدة العامة. ومع زيادة ثروة بلاد الإغريق فى القرنين السادس والخامس ق.م ، لم يعد الحد الأدنى الذى كانت قطعة الأرض تنتجه كافيا لسد رغبات الإسبرطيين وحاجاتهم المتزايدة . إذ إننا نسمع فى ذلك الوقت عن الأدنياء (Hypomieones) الذين يحتمل أنهم فقدوا حقوق مواطنتهم الكاملة بسبب فشلهم فى الوفاء بالتزاماتهم طبقا لقانون ليكورجوس . وهكذا صارت الملكية الخاصة ضرورية باعتبارها مصدرا إضافيا للغذاء . ولكن بما أن كل مواطن حديث المولد كان يمنح قطعة أرض ، فقد استوجبت الزيادة السكانية إيجاد أراض جديدة. ومن ثم كان لزاما على الدولة أن تخصص حصصا جديدة من الأرض القابلة للتوريث والتى يملكها الأشخاص . ولم يعد بوسع الفرد أن يعول على الحفاظ بممتلكاته آمنة . وتمثلت استجابة المواطنين فى أنهم توخوا الحفاظ على رفاهيتهم آنذاك عن طريق تحديد عدد أطفالهم . وهى حقيقة يمكن استنتاجها من خلال القوانين التى سنت لضرب هذا الاتجاه ، مثل ذلك القانون الذى كان يعفى من له ثلاثة أبناء من الخدمة العسكرية.

وقرب نهاية القرن الخامس ق.م . كانت قد وجدت طبقتان من المواطنين ؛ هما طبقة «الأدنياء» (Hypomeiones) والعتقاء من العبيد الذين عرفوا باسم «المواطنين الجدد» (Neodamodeis) ، وقد كان هناك نقص محسوس فى القوى العاملة مع اندلاع الحرب البلوبونيزية ، التى كانت مدة الخدمة العسكرية قبلها قصيرة المدى ، كما أنها اقتصرت على الصراعات بين المدن الصغيرة . كذلك فإن الحرب ضد فارس كانت

محدودة فى نطاق بضع معارك قليلة متفرقة . وإذ جمعت الإمبراطورية الأثينية قوتها ضد الحلف البلوبونيزية صار القتال مكلفا ومستمرا . ومنذ نهاية المرحلة الرئيسية فى الحرب الفارسية سنة ٤٧٩ق.م . حتى معركة ليوكترا (Leuctra) سنة ٣٧١ ق.م. أخذ عدد الاسبرطيين الأصلاء (Spartiates) يتناقص بصورة منتظمة فى ساحة الحرب. فبعد أن كان عددهم حوالى خمسة آلاف سنة ٤٧٩ ق.م . صاروا حوالى ألف وخمسين رجلا سنة ٣٧١ق.م . ولم تكن إسبرطة ، تلك الدولة العسكرية التى قمعت عبيدها على مدى عدة قرون، لتسلح هؤلاء العبيد وتدربهم وتطلق سراحهم مالم تكن مضطرة إلى ذلك إلا تحت وطأة استثنائية . وفى سنة ٤٢٤ق.م. استخدم العبيد جنودا للمرة الأولى عندما صحب براسيداس (Brasidas) سبعمائة منهم فى حملته ضد تراقيا، وكانت حريتهم هى المكافأة التى حصلوا عليها لقاء خدمتهم، كما حصلوا على بعض حقوق المواطنة. بيد أنه ليس معروفا على وجه التأكيد نوعية الحقوق التى حصلوا عليها، ولكنهم على أية حال لم يصبحوا مساوين للمواطنين العاديين. وتزايد عدد المواطنين الجدد بصورة مضطردة ، بينما ظل الأدنياء يمثلون طبقة صغيرة . وعندما ذهب أجيسلاوس (Agesilaus) إلى آسيا الصغرى سنة ٣٩٦ ق.م. كان بصحبته ألفان من المواطنين الجدد. وعندما تم عتق العبيد فاق عددهم عدد المواطنيين ألإسبرطيين، (الذين عرفوا باسم الأنداد)، ثم المجاورين والمواطنين الجدد، إلى جانب أقلية من الأدنياء. ومع بداية القرن الخامس ق.م. حارب المجاورون باعتبارهم فرقة مستقلة فى الجيش، مثلما فعلوا فى وقت لاحق من ذلك القرن على ما يبدو ، ومن المحتمل أن هذا الترتيب قد طبق أيضا على فرق غير المواطنين الأخرى.

ولم يكن ممكنا زيادة صفوف المواطنين كاملى المواطنة سوى عن طريق الدماء الجديدة ممن كان يطلق عليهم اسم «موثاكيس (Mothakes) الذين كان عددهم ضئلا. ولكن ليس من المعروف على وجه التحديد من هم الموثاكيس ، بيد أنه يبدو أنهم كانوا ممن ولدوا لأحد الأبوين من كاملى المواطنة (ويقال إن ليساندر نفسه كان واحدا منهم) . وقد تبعوا نفس النظام المعتاد فى التدريب العسكرى ، وكان من الممكن تحويلهم إلى إسبرطيين كاملين . على الرغم من أن ذلك لم يكن أمرا شائع الحدوث . كان السخط ينمو بين الطبقات الجديدة بشكل مستمر ، حتى بلغ أوجه فى بداية القرن الرابع ق.م.

من خلال تلك الثورة العقيمة التى قام بها الأقنان (helots)، والمجاورون (periokoi) وغيرهم ممن لايحملون المواطنة الكاملة. إذ تم كشف أمر كينادون (Cinadon) زعيم المؤامرة ، وأتباعه قبل أن تبدأ الثورة . وقد صفدوا بالأطواق فى أعناقهم وأيديهم ، ثم جلدوا وضربوا بالمهاميز ، وتم سحبهم خلال طرقات المدينة فى طريقهم إلى الموت. وخلال ثلاثين سنة بعد هذه الحادثة ظل الأقنان ملكا لدولتهم.

وبالإضافة إلى هذه المشكلات ، ظل الاقتصاد الإسبرطى خاملا جامدا . إذ لم تكن التجارة قائمة تقريبا، كما لم يكن ثمة إنتاج صناعى . وقد ظل النظام الإسبرطى فاعلا فى القرنين السابع والسادس ، وحتى القرن الخامس ق.م . ولكن فى نهاية القرن الخامس ق.م. كان ذلك النظام قد تحجر وتجمد ، ولم يعد قادرا على التكيف ، كما خلا تماما من مقومات الحياة . وصار غير مناسب للإمبراطورية . وبخلاف كل الأمم الأخرى، لم يؤد التوسع العسكرى الإسبرطى إلى وجود نظام اقتصادى محلى نشيط، كما أنه لم يؤد إلى زيادة ثروات الأفراد . لقد كانت السيطرة العسكرية والاتحاد الفيدرالى الوسيلتين الوحيدتين اللتين استخدمتهما إسبرطة لحكم المناطق التى فتحتها ، وكان نجاح هاتين الوسيلتين محدودا منذ البداية. لقد كان نظامها الاجتماعى الجامد يحول دون زيادة عدد السكان، كما أنه أعاق تأثيرها كقوة متحدة فى العالم الإغريقى .

السياسية الاستعمارية الآثينية :

تعاملت أثينا مع الإمبراطورية بطريقة أكثر مرونة ونجاحا من إسبرطة . إذ بدأت الفترة العظمى فى تاريخ إمبراطوريتها فى بواكير القرن الخامس ق.م ، عقب الحرب بين الإغريق والفرس . فقد كانت الحرب الفارسية إيذانا ببداية انهيار المدينة الدولة كوحدة سياسية مستقلة. وكانت المدينة الدولة تقوم بدورها بنجاح طالما كانت قادرة على كفاية سكانها من مواردها الذاتية ؛ سواء فى الحرب أو زمن السلم. ولكن باندلاع الحرب الفارسية واجهت بلاد الإغريق عدوا لايمكن لأية مدينة دولة أن تقاتله . وهكذا اضطرت المدن الدول إلى الاتحاد سويا لمنازلة هذا العدو، وإذ حدث ذلك مرة واحدة ، لم تعد المدينة الدولة قادرة على العودة إلى عزلتها حتى بعد زوال خطر العدو الخارجى . فبعد الحرب حولت أثينا حلفاءها إلى أعضاء فى الإمبراطورية الأثينية . ولم يكن أحد

منهم فى موقف يسمح له بمقاومة سيادتها . وكانت أية دولة تتلقى تهديدا من أثينا تجد نفسها مضطرة إما إلى الانضمام إليها أو اللحاق بالكتلة الكبرى الأخرى؛ أى الحلف البلوبونيزى . وقد اكتسبت هذه الحالة صيغتها الرسمية من خلال شروط معاهدة السلام التى كانت مدتها ثلاثين عاما والتى أبرمت سنة ٤٤٦ق.م . وفيها تبادلت أثينا وإسبرطة الاعتراف بمجال نفوذ كل منهما . ولم يكن مسموحا لأى عضو بأن ينحاز إلى الجبهة الأخرى، بينما كان يحق للمحايدين أن ينضموا لأى من الكتلتين .

وقد اقتربت أثينا من توحيد بلاد الإغريق من خلال إمبراطوريتها بقدر أكبر مما فعلت أية دولة أخرى . وعلى الرغم من أنها رعت حقوق مواطنيها تماما، فإنها حاربت دائما ضد الاتجاهات التشرذمية الهدامة فى إمبراطوريتها ، وبذلت جهدا كبيرا فى سبيل خلق مجموعة متماسكة من الدول. لقد كانت أثينا تدرك تماما أهمية حقوق المواطنة باعتبارها عنصرا من عناصر الوحدة على نحو ما يبرهن النظام الكليروخى (Cleruchy) والواقع ، مثلما سنرى فى نهاية هذا الجزء ، يقودنا الدليل إلى الظن بأنه لو استمرت إمبراطوريتها فى الوجود فترة أطول، لكن من المحتمل أن تسبغ حقوق المواطنة على كافة أعضاء هذه الإمبراطورية .

عندما شن الفرس حملتهم ضد بلاد الإغريق سنة ٤٨١ ق.م. شكل الإغريق العصبة الهللينية ، باعتبارها معاهدة هجومية دفاعية تحت قيادة إسبرطة . وعلى الرغم من أن قائدا إسبرطيا تولى قيادة القوات المشتركة، فإن سياسة العصبة كانت تقررها كافة الدول الأعضاء فى هذه العصبة. وعلى أية حال ، فإنه بعد هزيمة الغزاة، نشبت المشكلات الداخلية ، كما برزت عوامل أخرى أجبرت إسبرطة على التخلى عن دورها كدولة رئيسية . ولأن أثينا كانت دولة بحرية لها مستعمراتها فى بحر ايجه ، فقد اهتمت بمواصلة الحرب ضد فارس وبحماية المدن الآيونية والجزر على امتداد ساحل آسيا الصغرى . وهكذا اجتمعت مع حلفائها الإغريق فى ديلوس سنة ٤٧٨-٤٧٧ق.م، وتم تكوين كيان جديد لهذا الغرض هو عصبة ديلوس (Delos) ، وقد عبر الأعضاء عن استمرارية العصبة بأن ألقوا فى الماء ثقلا من الرصاص ، وأقسموا على أن يظلوا متحدين حتى يطفو ثقل الرصاص فوق سطح الماء.

ولم يكن حلف ديلوس مجرد نسخة موسعة من العصبة الهللينية . إذ كان الحلف القديم مؤلفا فى معظمه من الدول الداخلية فى بلاد الإغريق الأساسية ثم انضمت إليه

فيما بعد عدة جزر قليلة، على حين كان حلف ديلوس يضم المدن الإغريقية فى جزر بحر ايجه وسواحله، وهو ما يعنى أنه كان مؤسسا على القوة البحرية بدلا من القوة البرية . كان غرض الحلف الأول هو تحرير الإغريق على الساحل الغربى لآسيا الصغرى ثم الحفاظ على استقلالهم بعد ذلك . وقد غنم الأعضاء كثيرا من غزواتهم وغاراتهم ضد الفرس فى البر وعلى سطح البحر. وقد تم الاعتراف بقيادة أثينا باعتبارها أقوى الأعضاء. وعلى الرغم من أن السياسة كانت تتقرر فى البداية بتصويت كل الأعضاء على أساس المساواة ؛ فإن أثينا سرعان ما أصبحت سيدة الحلف؛ إذ إن الدول الأصغر كانت تصوت إلى جانبها بسبب قوتها العسكرية ونفوذها . وتولت أثينا قيادة كل الحملات ، كما أخذت على عاتقها مسئولية بناء الأسطول والحفاظ عليه . وكان لابد من توفر المال والسفن لتحقيق هذا، ولهذا جعل الحلف من ديلوس مقرا لخزانته ، وابتدع نظاما للتمويل الذاتى. سواء فى السفن أو فى الأموال، وتولت أثينا دور المشرف المالى. ومع هذا فقد سُمح لبعض الدول أن تستبدل مساهماتها المالية التى ألزمت بتقديمها ، بالسفن ، أو بأجزاء من السفن . هذا النظام أتاح لأثينا أن تبنى لنفسها أسطولا متجانسا بدلا من أن تتولى قيادة مجموعة أساطيل صغيرة غير متجانسة ؛ وقد زاد هذا من التبعية العسكرية للأعضاء ، كما قوض مركزهم القائم على المساواة فى الحلف .

وبالتدريج أخذت أثينا تمارس نفوذا أقوى فى تحديد التمويل، كما فرضت الدفع بالقوة فى حالة الضرورة. لقد صار التمويل نوعا من الإتاوة . وتمثل أول تهديد لوجود الحلف فى محاولة ناكساس (Naxas) الانشقاق عن الحلف سنة ٤٧٠ ق.م. بسبب عدم رضائها عن الحلف . وتصرف الحلف بمنتهى السرعة لإصلاح ذلك الموقف الخطير قبل أن يستفحل . وتمت هزيمة ناكساس على نحو حاسم، وخُفِضت منزلتها ، كما حُرِمت من الاحتفاظ بأسطول خاص، وأجبرت على دفع إتاوة بدلا من المساهمة بالسفن. وقد رأى المؤرخ ثوكيديديس أن هذه كانت بداية استعباد المدن المتحالفة. ومنذ ذلك الحين صار الحكم الذاتى عقابا للدول المتمردة غير الراغبة ، أو غير القادرة، على دفع حصتها . وتزايدت الثورات بشكل مطرد . فقد تنازعت جزيرة ثاسوس (Thasos) مع أثينا بشأن حقوق التعدين والمناجم سنة ٤٦٥ ق.م . وحاولت الانسحاب من الحلف ، بيد أنها اضطرت للخضوع بعد عامين من الحصار . وأرغم أهل ثاسوس على نقض

أسوارهم ، كما تنازلوا عن سفنهم ودفعوا تعويضا فوريا على أن يدفعوا الإتاوة لأثينا مستقبلا. وفى السنوات الباكرة من تاريخ الحلف لم يكن ثمة تمييز بين من يساهمون بالسفن وأولئك الذين يدفعون الإتاوة ، ولكن تدريجيا صارت النظرة إلى من يدفعون الأموال باعتبارهم من الحلفاء (الذين فقدوا الحكم الذاتى) وقد زادت أعدادهم بصورة مطردة إلى أن جاء عام ٤٣١ ق.م، وصار كافة أعضاء الحلف تقريبا من هذه الفئة .

كذلك كانت أثينا تجبر أية دولة تهزمها على الانخراط فى الحلف حليفا خاضعا. ففى سنة ٤٥٧ ق.م . هزمت جزيرة أيجينا (Aegina) منافسها التجارى القديم، وحين فقدت أيجينا أسطولها أُرغمت على تقويض تحصيناتها، وأُدرجت فى زمرة الحلفاء من دافعى الأتاوة. وبانتصار أثينا على طيبة ، فى أوينوفيتا (Oenophyta) سنة ٤٥٧ق.م. خضعت كل بؤيثيا (Boethia) ما عدا طيبة نفسها ، لسيطرة أثينا وأجبرت على الانضمام للحلف . وفى بؤيتيا قامت أثينا بتنصيب الديمقراطيين المحليين كوسيلة لتحقيق مزيد من السيطرة على الحكم فى الإقليم ولم تنجح هذه الإجراءات سوى بشكل جزئى لقمع موجة الاضطراب المتصاعد. بيد أن هذه القوة كانت أقل من أن يناط بها مهمة استعادة السيطرة الأثينية ، ولذلك أسفرت هذه الحملة عن كارثة ؛ إذ قُتل توليديس وكثيرون من رجاله ، كما أسر من الأثينيين عدد استخدمه أهل طيبة لإجبار الاثينيين على الانسحاب مقابل اطلاق سراحهم .

وفى سنة ٤٥٤ / ٤٥٣ق.م . نُقلت خزينة الحلف من ديلوس إلى أثينا. وكان ذلك بمثابة تأكيد صريح لما كان واقعا بالفعل على نحو تدريجى؛ أى تحويل الحلف إلى إمبراطورية أثينية. وفى ذلك الحين بدأت أثينا تستولى على الضريبة (التى كانت تدفعها دول الحلف) للربة أثينا. وفى سنة ٤٤٧-٤٤٦ق.م بدأ بركليس مشروعاته الإنشائية الشهيرة فى أثينا بقصد تخليدها بفضل هذه الأموال .

وقبل سنوات قليلة خلت ، أى سنة ٤٤٩-٤٤٨ ق . م . عقدت معاهدة سلام كالياس (Callias) بين الفرس وحلف ديلوس ، والذى أنهى العدوات بصورة رسمية. ومعها انتهى سبب وجود الحلف نفسه إلى حد كبير . ومع هذا فإن أثينا لم تكن مستعدة ، لأن تتنازل عن مكانتها التى كسبتها بشق الأنفس . ولم يضيع بركليس الوقت ، وإنما قدم مبرراته الجديدة لاستمرار الترتيبات القائمة . فقد تذرع باسم

القومية اليونانية ، وباسم الحفاظ على حرية البحار ، فضلا عن النعرة الدينية التى تحتم إعادة بناء المعابد التى دمرها الفرس قبل عدة سنوات .

وفى سنة ٤٤٠ ق.م ، اشتبك عضوان بالحلف ، هما ساموس ومليتوس ، فى حرب من أجل السيطرة على بريينى (Priene)، وقد ثارت مليتوس ضد أثينا سنة ٤٥٠ ق.م، ولكنها هزمت وصارت حليفا يدفع الإتاوة ، كما تم تسريح أسطولها . ثم ثارت مرة أخرى سنة ٤٤٦-٤٥٥ق.م ، ولكن أثينا فى هذه المرة أقامت بها حكومة ديموقراطية . وفى المقابل كانت ساموس حليفا يتمتع بالحكم الذاتى، كما كانت تملك أسطولا غاية فى القوة . وبسبب تفوق ساموس البحرى كانت لها اليد العليا مما دفع مليتوس إلى طلب العون من أثينا . وقررت أثينا التدخل فى ذلك الصراع لسببين؛ أولهما التزامها تجاه مليتوس باعتبارها من أتباعها لاسيما وأنها قد تركتها عاجزة فعلا عن حماية نفسها بعد أن سرحت أسطولها ، والسبب الثانى هو أن أثينا لم تكن لتتحمل نشوب الحرب بين أعضاء الحلف ؛ لأنها كانت تحاول الحفاظ على الحلف قويا ، وأن تحتفظ بسيطرتها عليه. ومن المحتمل أيضا أن كون مليتوس ديموقراطية على حين كانت ساموس أوليجاركية قد أثر على قرار أثينا بالتدخل .

وفى البداية طلبت أثينا من أهل ساموس أن يلجأوا للتحكيم فى النزاع، وعندما رفضوا هاجمتهم أثينا. وبعد أن أحرزت أثينا انتصارها الأولى ، تمت إقامة نظام ديموقراطى ، ولكن بمجرد انسحاب الأسطول الأثينى أمسك الأوليجاركيون من أهل ساموس أعنة الحكم من جديد وطلبوا المساعدة من فارس. وقد تأثرت بيزنطة (Byzantium) تحت تأثير الاضطراب الذى ساد الإمبراطورية ثم تبعتها بعض المدن فى كاريا (Caria) وتراقيا (Thrace) وخالكيديس (Chalcidice) ، كما كانت مليتوس على حافة الثورة . كما طلب الأوليجاركيون فى ساموس مساعدة الحلف البلوبونيزى، ولكنهم رفضوا التدخل مراعاة لشروط معاهدة سلام الثلاثين عاما، وبقيت حركات التمرد فى إطارها المحلى، واستطاعت أثينا اخضاع الدويلات المتمردة الأخرى بسرعة ، وبقيت لها فسحة من الوقت لهزيمة ساموس بعد حصار طويل سنة ٤٣٩ق.م . وتمت معاملة أهل ساموس بقدر من التساهل ؛ إذ أجبروا على نقض أسوارهم من أساسها وجردوا أسطولهم من وسائل الدفاع ، كما أرغموا على دفع تعويض عن الخسائر ،

ولكن لم ترسل إليهم حامية أو مستوطنين على الرغم من ذلك ، كذلك فقد أعفوا من الإتاوة فى ذلك الحين . أما بيزنطة وغيرهم من المدن فقد تم إخضاعها بعقوبات أقل وبسحق ثورة أهل ساموس، استطاعت أثينا بفضل معاملتها المتسامحة للمدن المتمردة أن تقوى الإمبراطورية ، فى ذلك الحين على الأقل . وباستثناء أثينا كانت ساموس أقوى دولة فى الحلف ، وبإخضاعها لم تترك أثينا أية مدينة يمكن أن تدانيها فى القوة. وكان ذلك مثالا قدمته أثينا للمدن الأخرى؛ إذ لم تستطع أقوى مدينة فيها أن تنجح فى التمرد ، فمن المؤكد أنه لا أمل للمدن الأخرى فى النجاح .

وباندلاع حرب البلوبونيز سنة ٤٣١ ق.م ، بقيت مدينتان فقط على استقلالهما الذاتى هما خيوس (Chios) ولسبوس (Lesbos) ، وكانت روح الكراهية تجاه أثينا متأججة فى هاتين المدينتين وفى سنة ٤٢٨ق.م انفصلت ميتلينى (Mytilene) أقوى مدينة فى لسبوس ، وتبعتها ثلاث مدن صغرى فى الجزيرة ، انشقت عن الحلف . وقد اختارت تلك اللحظة بسبب الضعف المؤقت الذى اعترى أثينا آنذاك ، ففى سنة ٤٢٩ ق.م كان وباء الجدرى قد اجتاح أثينا وقضى على أعداد كبيرة منهم بركليس ، كما زادت من ضعف المدينة تلك الغزوات التى شنتها أسبرطة على أتيكا . وطلبت أثينا من متيلينى أن تستسلم ، وحين جوبهت بالرفض فرضت الحصار على المدينة. وأرسل سكان متيلينى يطلبون من إسبرطة أن ينضموا إلى الحلف البلوبونيزى وتوسلوا فى طلب المساعدة العسكرية . وترددت إسبرطة ، وعندما أرسلت السفن كان أهل متيلينى قد وصلوا إلى حافة الموت جوعا . وعلى الرغم من أنهم عرفوا أن المساعدة الإسبرطية كانت فى طريقها إليهم، فإن حرج الموقف دفع الأوليجاركيين إلى العمل الفورى . فقد سلحوا المواطنين لتوجيه ضربة إلى الأثينيين، وإذ تسلح المواطنون انقلبوا على الأوليجاركيين الذين لم يجدوا ما يفعلونه إزاء الانقسام الداخلى سوى أن يستسلموا لأثينا . وصوت المجلس فى أثينا على إعدام كل رجل فى المدينة ، وبيع النساء والأطفال فى سوق النخاسة . وأرسلت سفينة تحمل الأوامر القاسية . ولكن المجلس عاود التفكير بشأن الفعل المتهور ، وأرسلت سفينة أخرى فى أعقاب السفينة الأولى تحمل الأمر بإلغاء حكم الإعدام . وكان البحارة يجذفون ليل نهار ، لدرجة أنهم كانوا يأكلون وهم جلوس على مجاذيفهم ، ووصلوا مقصدهم بشق الأنفس فى الوقت المناسب، إذ لم يكن حكم الإعدام قد نفذ سوى فى رؤوس الفتنة فى متيلينى.

وفى سنة ٤٢٥ق.م . أعادت أثينا تقدير الإتاوة وزادت من قيمتها . وقد أثار هذا التصرف بعض الاستياء فى أرجاء الإمبراطورية ، لاسيما فى المجتمعات التراقية ؛ حيث كان السلوك العسكرى النشط للقائد الإسبرطى براسيداس (Brasidas) فى عشرينيات هذا القرن قد أدى إلى إشعال نيران التمرد فى سكيون (Secione) وميندى (Mende) وبعض المدن الأخرى. وتم تسليم أمفيبوليس (Amphipolis) إلى براسيداس بخيانة من مواطنيها. واستعادت أثينا سكيون بعد حصار طويل، وفى هذه المرة نفذت عقوبة التمرد بحذافيرها ، أى إعدام الذكور واستعباد النساء والأطفال .

لقد برهنت الوحدة التى فرضتها أثينا على المدن الدول التابعة لها على أنها هشة فى أفضل أحوالها. إذ كانت دائما تحت وطأة التهديد المستمر بسبب استياء اتباعها الذين عارضوا الأعباء الباهظة التى أثقلت كاهل أعضاء الحلف، سواء من حيث العبء الاقتصادى الذى تحملته ثرواتهم ، أو تقلص استقلالهم التقليدى. وفى بداية الحرب البلوبونيزية تمكنت إسبرطة من أن تبرر نقضها للمعاهدة مع أثينا بالمحنة التى كانت المدن التى تدفع الإتاوة تعانى منها، وهى المدن التى قدمت لها إسبرطة وعدا بالتحرير وإعادة الاستقلال .

لقد نتج عن صلح نيكياس(*) سنة ٤٢١ق.م . وقف مؤقت للحرب البلوبونيزية . وبفضل شروطه تم ضمان الحكم الذاتى لمدن شمال غرب البحر الأيجى التى تمردت ضد أثينا، طالما ظلت هذه المدن تدفع الاتاوة ، ولكن كان بمقدورها أن تعود للانضمام إلى الحلف إذا شاءت .

لقد تضاءلت مشكلات أثينا مع حلفائها حتى اشتبكت فى صراع ضد مليوس سنة ٤١٦ ق.م. وكانت هذه الجزيرة الصغيرة حليفا غير مقاتل لإسبرطة ، وكانت تتمتع بموقع وميناء ممتاز. ولذلك حاولت أثينا أن تجبرها على الانضمام لإمبراطوريتها منذ

(*) صلح نيكياس Peace of Nicias :

بعد موت كليون الأثينى وبراسيداس الإسبرطى سنحت أمام الأطراف المتحاربة فرصة نادرة للسلام. وجاءت هذه المبادرة من جانب أرستقراطى أثينى اسمه نيكياس ، استطاع أن يوفق بين أثينا وإسبرطة لعقد معاهدة سلام عام ٤٢١ق.م أى بعد عشر سنوات كاملة من بدء إندلاعها . ولكن هذه المعاهدة لم يكتب لها النجاح ، قد ولدت ميتة على حد تعبير بعض المؤرخين . فشروط المعاهدة لم تكن مقبولة لحلفاء إسبرطة فقد أيقنوا أن شروط الصلح لصالح إسبرطة وأثينا وحدهما ، لذا ساد التمرد بين أعضاء الحلف البلوبونيزى إلى حد التمرد على إسبرطة . عندئذ سارعت أثينا بالتحريض وإذكاء نار الفتنة ، فتجدد القتال مرة أخرى .

عام ٤٢٦ ، ففى ذلك العام شنت أثينا غارة فاشلة ضدها . وعلى الرغم من هذا الفشل ضمت أثينا ميلوس إلى قوائم الإتاوة لعام ٤٢٥-٤٢٤ق.م، بيد أم مليوس رفضت الدفع بطبيعة الحال. وبعد فترة سكون طويلة تم تجريد حملة أثينية لغزو الجزيرة فى سنة ٤١٦ ق.م وعندما انتصر الأثينيون فى النهاية، بعد حصار طويل باهظ التكاليف مثير للسخط ، أراد الأثينيون أن يجعلوا من ميلوس عبرة، فأعدموا كل رجل ما يزال حيا فى الجزيرة ، وباعوا كل النساء والأطفال فى أسواق النخاسة . كان هذا التصرف عقابا عاديا للمستعمرات التى تمردت، ولكنه كان قاسيا فى غزو مثل هذا . ثم أرسلت أثينا مستوطنين لاستيطان الجزيرة بعد ذلك .

لم يبدأ حلفاء أثينا فى التخلى عنها سوى بعد هلاك جيشين من جيوشها فى سيراكيوز سنة ٤١٣ق.م، وبعد أن باتت هزيمة أثينا قاب قوسين أو أدنى . وأرسلت كل من أيوبيا (Euboea) ولسبوس Lesbos) وإريثراى (Erythrae) وخيوس (Chios) السفراء إلى إسبرطة . وقبلت إسبرطة فى البداية التحالف مع أهل خيوس ، ثم أهل ارثيراى ، وكان فقدان خيوس بالتحديد ضربة موجعة لآثينا ، لأنها كانت أكبر قوة بحرية فى الإمبراطورية بعد أثينا وكوركيرا ، وقد أمدت الجانب البلوبونيزى بستين سفينة . وقد سارت كلازوميناى (Clazomenae) على خطى خيوس وكذلك فعلت مليتوس . ثم أغرى أهل خيوس كلا من ليبيدوس (Lepedos) وهايراى (Haerae) بالتمرد على حين أقنعت إسبرطة سكان ميثيمنا (Methymma) وميتلينى بأن يفعلوا المثل. وعلى أية حال، فقد استعادت أثينا بعض هذه المدن .

كانت الإمبراطورية الأثينية تعتمد على القوة البحرية فى وجودها وقوتها . وإذ أخذت خيوس واسبرطة تنتهكان سيطرتها المطلقة على البحر ، صار من الصعب على أثينا أن تحتفظ بامبراطوريتها كلها، كما أن ضعفها المتزايد كان يغرى الدول التابعة لها بالتمرد بأقل قدر من المخاطرة . وحقيقة أن مدنا كثيرة لم تتمرد توحى بقوة رابطة التحالف التى كانت تربطهم بأثينا . وعدم تمرد أية مدينة لايعنى بالضرورة أنها كانت تدين بالولاء لأثينا، طالما أن هناك عوامل كثيرة كانت قائمة مثل الخوف من سوء العاقبة أو التبعية الاقتصادية . وكان ثوكيديديس يرى أن الإمبراطورية الأثينية كانت استبداداً أنانيا كريها بالنسبة لرعاياها الواقعين تحت وطأة القهر والاستغلال . ولو أن هذه الرؤية الأحادية كانت تمثل الحقيقة، لتوقعنا أن تثور المدن على الأقل حيثما وحينما

يكون ذلك متاحا. وعلى العكس ، فعندما تختار مدينة ما ألا تثور فى وجه أقصى الضغوط الإسبرطية ، وتحت وطأة التهديد الإسبرطى بالإبادة، فإننا قد نستنتج أن هذه المدينة تحبذ الارتباط بأثينا .

وفى أثناء حملات براسيداس على تراقيا استسلمت غالبية المدن ، بيد أن بعضها صمدت فى مواجهة هجومه ، على الرغم من قوته المتفوقة . فقد استولى براسيداس على تورونى (Toronoe) بالخيانة ، ولكن بعض مواطنيها هاجموا الحامية السكيونية والبلوبونيزية . وفى كل من ، أكانثوس (Acanthius) ، وسانى (Sane) ، وديموم (Dium) وتورونى (Torone) أبدى غالبية المواطنين ولاءهم لأثينا . وكان ارتداد خيوس عن أثينا سنة ٤١٢ ق.م . بسبب مزيج من الانتهازية والمؤامرات الأوليجاركية على ما يبدو . فقد خططت العناصر الأوليجاركية فى المدينة لإقامة نظام أوليجاركى ثم التمرد على الإمبراطورية الأثينية. وبسبب ضعف موقفهم والعداء العام للنظام الأوليجاركى، أجلوا القيام بأية خطوة حتى تصل القوات الإسبرطية بصحبة الكيبياديس (الذى كان يحارب آنذاك فى سبيل إسبرطة) وقد أقامت القوات الإسبرطية، بالتنسيق مع الأوليجاركيين ، حكومة أوليجاركية بعد إعدام القادة الموالين لأثينا. ومع ذلك فشل الأوليجاركيون فى كسب ثقة الجماهير ، وخطط بعض أهالى خيوس لتسليم المدينة للأثينيين عندما حاصروها فيما بعد .

فى سنة ٤١٢-٤١١ ق.م قام القائد الإسبرطى أستيوخوس (Astyochus) بالهجوم على الحلفاء الأثينيين فى المنطقة الواقعة مقابل خيوس ، ولكنه فشل حتى فى أخذ مدينة بطلمية (Pteleum) الصغيرة التى رفضت الاستسلام . ولم تتمرد ثاسوس فى الوقت الذى كانت أثينا تعانى من النظام الأوليجاركى، ولكنها انتهجت أسلوبا ذاتيا فى الحياد حتى سنة ٤٠٧ق.م عندما استعادها ثراسيليليوس (Thrasylulus) إلى حظيرة الإمبراطورية بالقوة وبقيت جارتها نيابوليس (Neapolis) ، ولذلك صوت الأثينيون لمنحها امتيازات خاصة. وعلى جزيرة لسبوس فرت مدينة متيلينى وميثيمنا إلى إسبرطة سنة ٤١٢ ق.م ، ولكن تمت استعادتها بسرعة؛ بقيت ميتلينى على إخلاصها حتى بعد هزيمة أثينا النهائية فى موقعة أيجوسبوتامى (Aegospotami) وقاومت مدن أخرى بإصرار ؛ ففى كاريا قاومت سدرياى (Cedreae) ليساندر

سنة ٤٠٥ ق.م ، وعقابا لها أبيحت للنهب والسلب وتم استعباد مواطنيها. كما أن لامبسكاكوس (Lampsacus) عارضت ليساندر وتم نهبها . وقام الإسبرطيون بنهب إياسوس (Iasus) فى كاريا سنة ٤١٢ ق.م ، لأنها لم تستسلم . وعلى الرغم من هذا الدرس الأول فإنها بقيت على ولائها لأثينا وفى سنة ٤٠٥ق.م قاومت ليساندر بضراوة شديدة لدرجة أنه أعدم الرجال واستعبد بقية السكان بعد أن اجتاح المدينة بهجوم صاعق .

وعندما هزم أهل سيراكيوز الجيش الأثينى فى صقلية سنة ٤١٣ ق.م، قدموا عرضا بالحرية لأى فرد من أبناء الجزر بين القوات الأثينية يتخلى عنها. وكان من الواضح أن المقاومة بلا أمل وأن الموت وشيك، ، ومع ذلك لم يلجأ إلى صفوف العدو سوى عدد صغير من سكان الجزر. لقد عزا أفلاطون احتفاظ أثينا بالسلطة إلى وجود أصدقاء لها فى كل مدينة ، ومن ثم فإن عمليات الارتداد التى حدثت إبان الحملة التراقية سنة ٤٢٠ ق.م والحملة الآيونية سنة ٤١٢–٤٠٤ق.م ليست اختبارا عادلا للشعبية الأثينية بسبب الضغوط العسكرية التى سببت حركات التمرد .

والحقيقة كان الولاء الذى أبداه الحلفاء تجاه أثينا لافتا للنظر، سواء من جانب تلك الدول التى كانت تتعرض لضغوط عسكرية قاسية ، أو تلك التى كانت ظروفها عادية .

لقد أحكمت أثينا سيطرتها على إمبراطوريتها بعدة طرق ، أهمها الوسائل العسكرية والاقتصادية، على الرغم من نجاحها فى استخدام الوسائل الدستورية والقانونية . وبذلك نظمت أثينا معاهدات تجارية فى الإمبراطورية . وقد أبرمت معاهدات تجارية عديدة بين أثينا وحلفائها ، مثل مدينة فاسيليس (Phaselis) الذى يقرر ضمن شروط أخرى، أن أية قضية بخصوص التجارة بين أهل أثينا وأهل فاسيليس ينبغى أن تنظر فى أثينا. وكانت المعاهدات التجارية تختلف فى أهميتها حسب وضع المدينة الحليفة. ففى حالة الحلفاء المستقلين كانت المعاهدات تتضمن شروطا تتعلق بالحكم فى القضايا المدنية التى تخص أبناء الدول التابعة. فعلى سبيل المثال ، كان يتم نقل القضايا المدنية مع مليتوس إلى أثينا إذا زادت عن مبلغ معين . وهناك قضايا مدنية عديدة ، لاسيما ما يتعلق منها بالتقاضى بين الدول الحليفة أو

سكانها كانت تنقل إلى أثينا هى وجرائم القتل الخطيرة . كما صارت أثينا محل محكمة الاستئناف في جميع الحالات التى كانت تقتضى عقوبة الإعدام ، وبالتدريج تحولت أثينا إلى العاصمة القانونية فى الإمبراطورية .

وقد شجعت أثينا كل أشكال الحكم الديمقراطية فى أنحاء الإمبرطورية ، لأن الديمقراطيين كانوا يميلون إلى أن يكونوا أكثر ولاء لها. بيد أنها لم تكن تطيح بالأوليجاركيين دونما رحمة، على الرغم من عدم تأييد أرسطو . فعندما كانت تتمرد أية دولة ، كانت أثينا تساند الحزب الديمقراطى بطبيعة الحال، وبعد أن يتم قمع الثورة كانت تقيم حكومة ديموقراطية . وحدث ذلك فى إريثراى (Erythirae)، وفى كولوفون (Colophon) ووخالكيس (Chalcis) وساموس (Samos) وغيرها . ولكن الأوليجاركيين كانوا يلقون معاملة متسامحة فى بعض المدن. فبعد تمرد سنة ٤٥٠-٤٤٩ق.م . فى مليتوس سمح بقيام حكومة أوليجاركية، كما أن أثينا لم تتدخل ضد الأوليجاركية فى بوتيدايا (Potidaea)، طالما بقيت الدولة عضوا مخلصا فى الامبراطورية . وكانت سيادة الديموقراطية فى الإمبراطورية راجعًا إلى حد ما إلى حقيقة أن الدول التجارية التى كانت تؤلف معظم الإمبراطورية، كانت تتجه إلى إنتاج الطبقات التجارية التى تحبذ الديموقراطية ، على حين كانت الدول الزراعية أميل إلى الأوليجاركية .

لاينبغى افتراض أن الديموقراطية كانت هى الصيغة الأكثر شعبية فى الحكم فى كل مكان . ففى أماكن عديدة كانت العائلات الكبيرة محاطة بعدد كبير من الأتباع – يتضمن أحيانا أغلبية السكان– الذين كانوا يفضلون أن يحكمهم حكامهم التقليديون بدلا من أندادهم المساوين لهم. ومن ثم، فإنه عندما كانت أثينا تطيح بالأوليجاركية فى دولة كهذه وتقيم «حكومة ديموقراطية» ، وكان «الديموقراطيون» الجدد يدركون تماما أن سلطتهم – بل وحياتهم فى غالب الأحوال– فى أمان طالما أيدوا أثينا وطالما أمدتهم أثينا بالدعم . وهذا ما يوضح سبب إخلاص كثير من الحكومات الديموقراطية لأثينا حتى فى مواجهة الهزيمة المحققة . وقد تمت الإشارة بالفعل إلى هذه الحالات . وتعد ساموس مثالا جيدا. فقد احتفظ الديموقراطيون بالسلطة فى ساموس خلال الشطر الأخير من الحرب البلوبونيزية بقتل كل من وقعت أيديهم عليه من الأوليجاركيين.

إذ إنهم كانوا يعرفون مصيرهم فى حال سقوط أثينا. وهكذا ظلوا مخلصين لأثينا حتى بعد سقوطها . وثمة عامل آخر مالي. إذ كانت لأثينا قاعدة بحرية ضخمة فى ساموس منحت فرص العمل لعدد كبير من سكان الجزيرة.

كذلك كانت أثينا ترسل الموظفين الإداريين إلى شتى أرجاء الإمبراطورية . وحسبما يروى أرسطو وصل عدد الموظفين الأثينيين فى الإمبراطورية إلى سبعمائة فى القرن الخامس ق.م . أو بمتوسط اثنين أو ثلاثة موظفين لكل مدينة . وكان الموظفون يسمون أرخونات (Archontes) (جمع أرخون) . وكان عددهم يختلف حسب حجم المدينة وأهميتها ، ووفقا لمدى السلطة الأثينية فيها . ففى مدينة كولوفون فى سنة ٤٤٧ ق.م. كان هناك خمسة أرخونات على حين كان أرخون واحدفقط فى جزيرة سكياثوس (Sciathus) الصغيرة قليلة الأهمية. أما إذا كانت فى المدينة حامية، يكون قائد الحامية أحد الأرخونات. وكان معظم أولئك الأرخونات مفتشين (Episkopoi) . وقد ورد بمرسوم اريثراى الصادر سنة ٤٥٢ ق.م . ذكر المفتشين وقادة الحامية. وكانت مهمة المفتشين تأسيس مجلس لمدينة اريثراى . وعلى الرغم من أنهم كانوا يتدخلون فى الشئون المدنية للحكومات المحلية، فإن مهمة المفتشين الأساسية كانت رعاية المصالح الأثينية ، ولاسيما تطبيق المراسيم الأثينية ، والمساعدة فى جمع الإتاوة . وفى الدول التى استوطن فيها الكليروخوى كان من الطبيعى أن يساعدوا الأرخونات فى مساندة أثينا باعتبارهم مواطنين أثينيين .

كما كانت الحاميات الأثينية قائمة فى دول عديدة فى أرجاء الإمبراطورية . وكانت مهمتها الأساسية تأكيد التفوق العسكرى الأثينى فى المناطق التى تركزت فيها. ثم يلى ذلك ما كانت تقوم به من سيطرة لصالح أثينا على حلفائها ، على الرغم من أن الحاجة إلى استخدام القوة فى هذا الصدد عادة ما كانت ضئيلة للغاية . لقد بدأت أثينا إقامة الحاميات على نطاق واسع فى خمسينيات القرن الخامس ق.م. أولا لكى تعزز قوتها العسكرية فى مواجهة قوة إسبرطة المتنامية، أكثر من كونها وسيلة للسيطرة على مستعمراتها . فقد كانت كانت هناك حاميات فى إيجينا واريثراى منذ وقت مبكر ، مثلما كان الحال فى مليتوس . وبحلول سنة ٤٤٠ق.م ، وضعت حاميات فى كل من كولوفون وخالكيس وهاليكارناسوس ومتلينى ومدن كثيرة أخرى. وكان على هذه المدن أن تدفع للحاميات المتمركزة فى أراضيها . وعلى الرغم من الغرض الإستراتيجى من

هذه الحاميات، فقد انتهكت سيادة الدول التى عسكرت فيها . ومارست نوعا من السيطرة العسكرية والسياسية على المدن بالتعاون مع المفتشين ، كما أنها قدمت قوة جاهزة لحماية المصالح الأثينية .

كان الاقتصاد هو الوسيلة الأساسية التى أحكمت بها أثينا سيطرتها على إمبراطوريتها . إذ كانت معظم الدول فى الإمبراطورية دولا بحرية ؛ سواء كانت فى الجزر أو على الساحل . ولذا كان اقتصادها يعتمد على البحر، سواء كانت هذه الدول تمارس التجارة بنفسها ، أوأنها كانت راغبة فى استيراد البضائع التى لاتنتجها مثل القمح بصفة خاصة. ويوضح أكسينوفون أهمية أثينا التجارية إذ يقول « ... وكل مسافر يعبر بلاد اليونان من جانب إلى الجانب الآخر يجب أن يمر بأثينا باعتبارها مركز الدائرة ... فى حوزتها أفضل الأماكن وأكثرها أمنا لرسو السفن... ففى معظم الموانئ الأخرى يتم إجبار التجار على حمل بضاعة في مقابل بضاعتهم ؛ لأن عملتهم المحلية غير متداولة فى الدول الأخرى، ولكن فى أثينا لديهم الفرصة لاستبدال بضاعتهم وتصدير أنوا ع عديدة من البضائع المطلوبة ، أو إذا لم يكونوا راغبين فى أن يشحنوا بضاعة فى المقابل ، ويمكنهم تصدير الفضة...» .

وبسبب مناجم الفضة التى كانت أثينا تملكها والإتاوة التى كانت تجبيها من حلفائها كان بحوزة أثينا أموال كثيرة تحت تصرفها . وكانت تستورد منتجات كثيرة ولاسيما الحبوب . وصارت هى السوق الرئيسية فى الإمبراطورية وقد اكتظت بالكثير من البضائع مثل الزبيب والتين والتوابل والكتان والصوف والأثاث والسجاجيد . وقد لاحظنا بالفعل تعليقات بركليس حول كثرة الواردات الأثينية . وفى الوقت نفسه كانت أثينا تصدر زيت الزيتون والخمر والرخام والفخار . وكانت أثينا هى العميل الثرى بالنسبة للعديد من مدن بلاد الإغريق ، كما أنها حافظت على الأمن فى البحار من أجل التجارة . وهكذا كان أعضاء الإمبراطورية يجنون فوائد اقتصادية جمة مقابل الإتاوة التى كانوا يدفعونها . ويعكس مرسوم ميجارا مدى قوة أثينا الاقتصادية ، فعن طريق هذا المرسوم استبعدت أثينا ميجارا التى كانت عضوا دائما فى الحلف البلوبونيزى من دخول موانئ الامبراطورية ، وكذلك منعتها من دخول بيريه ميناء أثينا. وكانت تلك ضربة قاصمة لميجارا على الصعيد الاقتصادى ، بحيث صارت سببا لنشوب الحرب البلوبونيزية .

وبالإضافة إلى السيادة الاقتصادية الطبيعية التى مارستها أثينا على إمبراطوريتها، فإنها بذلت بعض المحاولات لمزيد من السيطرة الاقتصادية . كان أهم هذه المحاولات توحيد النقود . ففى البداية لم تكن تتدخل فى عملات الجزيرة ، ولكن سيطـرة أثينا التى اكتسبتها على الجـزر تبـاعا جعلت هـذه الجزيرة تتوقـف عن سك النقـود . فقد ظلت باروس (Paros) وسفنوس (Siphnos) تسكان عملتيهما حتى سنة ٤٥٠ ق.م تقريبا ، اللتين تظهران بعدها فى قوائم الإتاوة وتوقفتا ، فى أيجينا سنة ٤٥٦ق.م . عندما صارت جزءا من الإمبراطورية . كما أن أيوبويا (Euboea) توقفت عن سك العملة منذ سنة ٤٤٥ق.م . عندما هزمها بركليس حتى عام ٤١١ ق.م . حينما استعادت استقلالها . وقد أصدرت أثينا مرسومًا لتنظيم العملة فمنعت سك العملات الفضية فى المدن الإمبراطورية كما منعت استخدام العملة والأوزان والمقاييس غير الأثينية . وعلى الرغم من أن دور سك العملة قد أقفلت فى العديد من المدن فإن الحظر على العملات الأخرى لم يكن مطلقا ، ولم تستطع أثينا أن تفرض استخدام عملتها دون سواها، لاسيما فى أطراف الإمبراطورية . على نحو ما يتضح من قوائم الإتاوة فى عامى ٤٢٩ – ٤٢٨ق.م ، التى تتضمن موارد بالعملة الأيجينية وعملة خيوس ، وفضة أكانثوس فضلا عن «الفضة الأجنبية المختلطة» .

لقد سيطرت أثينا على العملة فى مستعمراتها ، وجزر بحر إيجه ومدن آسيا الصغرى. وحيثما لم تكن قادرة على فرض العملة الآتيكية ، عادة ما كانت تفرض على الأقل استخدام الأوزان الأتيكية مثلما حدث فى ساموس ورودس . وفى بداية القرن الخامس كانت عملة أيجينا هى أكثر العملات تداولا ، ولكن تزايد قوة أثينا كان يقابله تدهور مستوى عملة أيجينا . وكان المنافسون الرئيسيون للعملة الأتيكية هى العملات الفارسية وعملة خيوس . وقد تأثرت عملة خيوس بعملة أيجينا التى كانت متداولة فى البلوبونيز وبعد عام ٤١٢ ق.م، وعندما زادت القوة البلوبونيزية فى آسيا الصغرى، ازدادت عملة خيوس انتشارا ؛ لأنها كانت تحول بسهولة إلى عملة أيجينا ، وقد تصاعد تداولها إلى حد بعيد عقب سقوط أثينا سنة ٤٠٤ق.م .

لقد شادت أثينا إمبراطورية متماسكة من عدة جوانب . وكانت ركيزتها الأساسية السيادة الأثينية باعتبارها قوة بحرية وقوة اقتصادية . وكانت أثينا مدركة تماما لأهمية الوحدة والولاء، كما أنها بشكل عام كانت تسدى خدمات كافية فى مقابل الإتاوة التى كانت تجمعها . فعن طريق استخدام المستوطنين الكليروخوى أدركت أهمية المواطنة

باعتبارها وسيلة لربط دولة ما بها ، ولكنها لم تسمح بحقوق المواطنة لأعضاء إمبراطوريتها سوى فى حالة استثنائية واحدة. ومع ذلك يحتمل أنه لو كانت إمبراطوريتها قد خرجت سالمة من الحرب البلوبونيزية ، فإنها كانت ستمنح حقوق المواطنة لأعضاء إمبراطوريتها . وفى مسرحية ليسستراتا (Lysistrata) التى قدمت سنة ٤١١ ق.م. يدعو أرستوفانيس كل فرد إلى الاندماج فى الدولة بما فى ذلك المقيمين والأجانب ، وتقترح مسرحية ليسستراتا أن يتم تنظيم الدولة على نحو ما يحدث فى عملية تجهيز صوف الغنم :

بداية تغمسه فى إناء الغسيل وتحكه جيدا
كى تنظفه من الشوائب العالقة
وتطهره من الوسخ وكريه الروائح ...
ثم تجففه ، وتمشطه ، ثم تضعه كله
فى سلة من الحب والانسجام
فالمواطنون والزوار والغرباء والوافدون
يمثلون جميعا مجتمعا كليا لايتجزأ
هل تعرف رجلا يدين للخزانة ؟
فلتضموه إلى الآخرين فى مرح
ولتذكروا كذلك المدن ، مستعمراتنا
تلك الدول القاصية شرقا وغربا
والمبعثرة حوالينا على مسافات بعيدة
تلك هى أجزاؤنا وشذرات صوفنا
فاجمعوها وشدوها فى مجموع سياسى عظيم برفق وحرص
ونظموهم جميعا فى خيط واحد من الرفقة الحسنة
ثم اغزلوه ببكرة هائلة

انسجوا منه رداء من الراحة والفخار
يليق بالشعب أن يرتديه.

(ترجمة ب.ب. روجرز)

والحقيقة ، أن الدولة الوحيدة التى اعترفت لها أثينا بحقوق المواطنة الكاملة كانت هى ساموس، وقد حدث هذا فى موقف استثنائى فى نهاية الحرب البلوبونيزية عندما كانت أثينا قد خسرت بالفعل. إذ كان الأسطول الأثينى قد منى بهزيمة فادحة لتوه فى معركة أيوسبوتامى (Aegostamia) سنة ٤٠٥ ق.م . ولاح سقوط المدينة فى الأفق القريب . وبعد حركة تمرد ديموقراطية تعهدت ساموس لأثينا أن تحارب إلى جانبها حتى النهاية . وإذ أرادت أثينا أن تعبر عن شكرها منحت حقوق المواطنة الكاملة تكريما مجانيا، وهو أمر لم يكن يرد على البال قبل مائة سنة مهما كانت الظروف .

حركة الاستعمار الإغريقى - نظرة تأملية :

لم تطور مدن الدول الإغريقية أبدا الوسائل الناجحة لدمج الأراضى التى غزتها أو لكى تتحد فيما بينها لتشكل دولة متحدة . ويمكن أن نجد بعض الاستثناءات فى ذلك متمثلة فى بعض الأحلاف الهللينستية(*) اللاحقة التى كان الأفراد فى كل دولة منها

(*) الهللينستية Hellenistcism :

استخدم بعض المؤرخين هذا اللفظ للدلالة على ظاهرة التحام الشرق بالغرب التى سادت فى تلك الحقبة حين كانت الحضارة الإغريقية هى السمة التالية فى العالم المأهول بأسره وفى الحقيقة فإن الحضارة الإغريقية قد جمدت عن أن تتطور فى بلادها قبل أن تنزح إلى البلاد الأخرى من حولها، فأمدها هذا الانتشار بقدرات خلاقة جديدة داخل بلاد الإغريق وخارجها شارك فيها الإغريق وغيرهم بنصيب كبير يختلف باختلاف البلاد. وعلى امتداد العالم القديم انتشرت اللغة اليونانية فخلقت بانتشارها عقلية مشتركة جمعت تحت لوائها المتشبعين بالثقافة الإغريقية دون نظر إلى الأصول التى ينتمون إليها ويمكن تقسيم العصر الهللينستى إلى حقب ثلاث : تمتد الأولى ما بين عامى ٣٢٣ و٢٨٠ق.م حين أخذت إمبراطورية الإسكندر فى الانحلال لتحل مكانها مجموعة من الدول الجديدة . وتمتد الثانية ما بين عامى ٢٨٠و١٨٠ وهى حقبة ازدهار الحضارة الاغريقية بعلومها وفلسفتها واسلوب حياتها خلال رقعة فسيحة من العالم القديم . وتمتد الثالثة ما بين عامى ١٦٠ و٢٠ ق.م. حين دب الاضمحلال السياسى وسادت اللاعقلانية ثم ما لبثت أن تسللت الروحانية وافدة من الشرق .

مواطنين . ولكن فى ذلك الحين كان الوقت قد فات بالنسبة لأية وحدة عامة أو لتطوير تأثيراتها بحيث يكون لها نتائج مؤثرة ؛ لأن الغزاة الأجانب كانوا قد فرضوا سيادتهم على البلاد بالفعل .

وعلى الرغم من أنه فى بعض الفترات الباكرة كان يمكن منح حقوق المواطنة لمنطقة جغرافية شاسعة، مثل أتيكا، فإن الدول سرعان ما حددت أراضيها ومواطنيها ، وصارت حقوق المواطنة امتيازا صعب المنال. وكان الديموقراطيون يسمحون لعدد من الناس بأن يصيروا مواطنين أكثر مما كان يسمح به الأوليجاركيون، ولكن كليهما كان يفرض قيودا كثيرة. إذ كانت حقوق المواطنة تجلب معها امتياز حكم الدولة. وهكذا كان منح حقوق المواطنة لدول أخرى يعنى التضحية بالاستقلال الذاتى . وكان الكبرياء والنزعة الفردية التى سادت فى القرن الخامس ق.م. قد جعلت هذا الأمر ضربا من ضروب الكفر.

لقد كانت المدن الدول الإغريقية تفتقر إلى الرغبة الفطرية لخلق دولة كبيرة متماسكة ، كما أن ممارساتهم فى شأن حقوق المواطنة جعلت من المستحيل عليهم تقريبًا أن يستوعبوا دولة أخرى دون أن يغيروا بنيانهم الأساسى. ومن ثم عندما كانت مدينة اغريقية تغزو مدينة أخرى، كانت النتيجة عادة هى السيادة وليس الاندماج . وكان ذلك سيفا ذا حدين ؛ إذ كان المنتصر يصون استقلاله الذاتى، ولكنه كان عاجزا عن إقامة حكم ثابت ومستمر فى الدولة المهزومة .

وعلى النقيض من ذلك لم تعد المدينة الدولة تملك مقومات الحياة سياسيا مع نهاية الحرب البلوبونيزية . فربما كانت أراضيها قد خربت بفعل الحرب، وأهدرت مواردها، كما نقص عدد سكانها من جراء المعارك مع العدو، وتدهورت معنوياتهم بسبب المنازعات الداخلية والمواقف المتأرجحة ، ولم تعد الدولة قادرة على حماية الوجود الجمعى مما أدى إلى انعدام ثقة السكان فى أنفسهم وفى الدولة. لقد كان مفهوم المدينة الدولة باعتبارها كيانا سياسيا قائما على الاكتفاء الذاتى والوعى بالذات ، وباعتبارها كيانا فرديا صلبا- هذا المفهوم كان باستمرار عاملا مناوئا للوحدة السياسية على نطاق واسع ودائم. وفى أثينا أواخر القرن الخامس ق.م . ومطلع القرن الرابع ق.م. كانت المشكلات السياسية والاجتماعية والروحية فى المجتمع عاملا مشجعا للشعراء والفلاسفة ورجال الدولة للبحث عن طرق لتجديد العلاقة بين الفرد والمجتمع ، كما تحول البعض إلى مثال القومية الإغريقية باعتباره القوة التى يمكن أن تنقذهم .

الفصل الخامس

المشكلات الداخلية
الصراع الطبقى والحرب الأهلية

كان النزاع الداخلى والحرب الأهلية مصدر إزعاج للمدينة الدولة الإغريقية عبر تاريخها كله. ومع انهيار المجتمع الزراعى الجامد فى القرنين الثامن والسابع ق.م، تزايدت مطالبة الطبقات الأرستقراطية بحقوقها الكاملة فى التصويت وتولى المناصب وحصلت على مطالبها بالفعل . وفى غضون القرنين السابع والسادس ق.م . ظهر حكم الطغاة الإغريق ، وغالبا ما كان الطاغية هو بطل محدثى النعمة من الأثرياء الجدد وكبار العسكريين، وهو خصم الأرستقراطية القديمة. لقد تضافرت التغيرات الاقتصادية التى جرت فى المجتمع مع القوة الطاقة التى تمتع بها الطغاة الإغريق لكسر سلطة الأرستقراطية القديمة. وحالما كان الطغاة يحققون غرضهم فى مساعدة كبار العسكريين وطبقة الأثرياء الجدد، كان يتم خلعهم . وكان يحل محلهم حكام ديموقراطيون أو أليجاركيون . ويتسم القرن الخامس بأنه كان فترة منازعات داخلية كبيرة وحروب أهلية بين الديموقراطيين والأوليجاوكيين داخل الدويلات الإغريقية . لقد صارت الحرب البلوبونيزية الطويلة التى استمرت سبعة وعشرين عاما بين أثينا واسبرطة صداما ايديولوجيا ما بين هاتين الصيغتين من صيغ الحكم، فأثينا هى الديموقراطية التى تدعم الديموقراطيين ، على حين كانت اسبرطة هى الأوليجاركية التى تشد آزر الأوليجاركيين .

إن تاريخ الصراع الداخلى والحروب الأهلية فى أثينا وفى بلاد الإغريق هو تاريخ صراع الطبقات الدنيا لكى تحصل من الطبقات العليا على حقوق المواطنة المتساوية وعلى نصيب كامل من حكم الدولة . ولكى نصل إلى فهم أوضح لهذه الصراعات حول حقوق المواطنة، فمن الضرورى أولا أن ندرس البناء الطبقى فى بلاد الاغريق .

النظام الاجتماعى الإغريقى :

نظرا لندرة المصادر والمعلومات الأثرية ، فإننا لانستطيع سوى تكوين صورة تقريبية للمجتمع الإغريقى. لقد كان مجتمع العصور المظلمة والعصر العتيق مجتمعا زراعيا يقوم على تقسيم أساسى للنبلاء وغير النبلاء. ولم تكن التقسيمات الفرعية لهاتين المجموعتين واضحة تماما وغالبا ما كانت تتداخل فيما بينها. إذ كان النبلاء مقسمين فى هيراركية فضفاضة ، على قمتها كانت العشيرة الملكية التى يتم اختيار الملك منها؛ وربما كانت أقوى مجموعة تلى ذلك هى مجموعة الكهنة، إذا ما كانوا قد كونوا فعلا طبقة منفصلة؛ وأخيرا طبقة ملاك الأرض الأثرياء. وربما كان النبلاء فى أصلهم فاتحين أو مجرد ملاك أرض أثرياء ، وصاروا «نبلاء» بمضى الوقت بسبب وضعهم فى المجتمع . وسرعان ما تحولت نبالتهم ، التى قامت على قوة السلاح أو الثروة، إلى نبالة بالمولد وصاروا يعرفون باسم «الأخيار» أو «المباركين» أو «السعداء» أو «أبناء الآباء النبلاء» . أما القسم غير النبيل من المجتمع فكان يتألف من ثلاث شرائح رئيسية . كانت أولاها من الفلاحين الملاك الذين يمتلكون مساحات متوسطة أو صغيرة من الأراضى ، وقد أطلق عليهم الأرستقراطيون اسم «الاشرار» أو «السفلة» أو الغالبية. وبعدهم كان العامة (thetes) من الرجال الأحرار الذين لم يكونوا من ملاك الأراضى ، ولكنهم كانوا تجارا وحرفيين وعمالا زراعيين . وأخيرا كان هناك العبيد.

وكان الملك ، وهو عادة رئيس أقوى عشيرة بين الأرستقراطيين، زعيم قبيلة يعتمد فى سلطته الملكية على ما يملكه من أرض ومن قطعان الماشية. وكان المجتمع يقدم له ضيعة (temenos) وبعض موارد الدخل. وفى الفترة الباكرة لم تكن الحروب تشن فى سبيل توسيع رقعة الأراضى، ولكن من أجل الحصول على الغنائم التى كان الملك يأخذ منها النصيب الأكبر. وكان بوسعه أيضا أن يعتمد على عمل المواطنين فى وقت الحاجة ،

لبناء السفن أو للقيام بأعمال الدفاع. كذلك كان الشعب يعطى الملك «الهدايا» الاجبارية. وفى «الأوديسية» يقول الملك الكينوس (Alcinous) ، بعد أن قرر أن يقدم الهدايا لأوديسيوس ، مخاطبا نبلاءه : «فليقدم كل منا الحامل الضخم ذا القوائم الثلاثة والمرجل، وفى المقابل سوف نتجمع بين الشعب ويتم تعويضنا». وكانت «الهدايا» غير منتظمة مثل الضرائب، ولم تكن باهظة فى العادة. وفى المقابل كان الملك يقدم الحماية والدفاع ، وكان ينشر العدالة فى بعض الأحيان.

وعلى الرغم من أن العشيرة الملكية ظلت تحتفظ بالسيادة فى بعض الدويلات ، مثل كورنثة حتى القرن السابع، فإن الملوك سرعان ما فقدوا امتيازاتهم بصورة عامة وذابوا فى النبلاء، وتدهورت مكانة العشيرة الملكية حتى وصلت إلى مستوى العائلات الأرستقراطية الأخرى. لقد كان مركز الملك قائما على أساس الزعامة الدينية والعسكرية والسياسية. ولكى يتم الغاء هذه السلطة اغتصب الأرستقراطيون الدور العسكرى فى البداية ونصبوا واحدا منهم مسئولا عن الشئون العسكرية بوصفه قائدا حربيا . ما أن سيطر الأرستقراطيون على التنظيم العسكرى حتى أمسكوا بزمام السيادة السياسية. وعلى أية حال ، بقى الملك محتفظا بواجباته الدينية ورعاية حقوق الملكية، التى انتقلت فى البداية إلى أعضاء العشيرة الملكية، ثم النبلاء بوجه عام إلى أن آلت فى نهاية الأمر إلى الدولة. ويمكن أن نرى هذا الخط من التطور من خلال أعمال الحكومة فى أثينا القرن السابع وبواكير القرن السادس ق.م. إذ كانت الدولة تدار على يد ثلاثة موظفين عرفوا باسم الحكام (Archons) ، كانوا من أبناء الطبقة الأرستقراطية . وكان الأرخون الملك يتولى مسئولية الشئون الدينية، أما الأرخون القائد فيتولى الأمور العسكرية ، وكان هناك أرخون ثالث له السيطرة السياسية .

كانت معظم الدولة ، التى تمثلت فى الأرض وقطعان الماشية ، بأيدى الأرستقراطية وهو الأمر الذى تعكسه أسماء العشائر ، فهناك على سبيل المثال عشيرة ملاك الأرض (geomoroi) وقد أحرز الأرستقراطيون سلطتهم من خلال التفوق العسكرى وبقى ذلك أساس هذه السلطة . إذ كان النبلاء هم فقط القادرين على تقديم السلاح والخيول اللازمة للحرب والتى تطلبت نفقات كثيرة . ففى عصور الظلام والعصر العتيق كانت المعركة عبارة عن قتال فردى بين المحاربين ، لأن المشاه المنتظمين لم

يكونوا قد عرفوا بعد . وفي مقابر النبلاء الأثينيين الأوائل كانت الجثث تدفن مع السيوف ؛ ولكن مع تقلص سلطة الأرستقراطية وبروز المشاة المسلحين اختفت الأسلحة من مقابر النبلاء . لقد كان المجتمع يعتمد على الأرستقراطية في شئون الدفاع والحماية ، على حين كانت جهود السكان تفتقر إلى المقدرة العسكرية التي تمكنهم من الإمساك بزمام السلطة، حتى وإن رغبوا في ذلك . ولقد أتاحت القوة العسكرية للنبلاء بأن يسيطروا على الأداة السياسية وعلى القبيلة، التي كانت هي الوحدة الأساسية المنظمة في المدينة الدولة . كما كانت السيطرة على القبيلة أمرا ذا أهمية خاصة، لأنها كانت الضمان لحقوق أفرادها في ظل غياب القانون العام، لاسيما في حالات القتل أو الميراث .

ولم يحدث تجاوز للخط الكبير الفاصل بين النبلاء وغير النبلاء سوى في حالات نادرة . إذ لم يكن النبلاء وملاك الأراضي يختلفون عن بعضهم البعض أساسا إلا في مدى الأرض التي يملكونها، وحجم أهل بيوتهم التي كانت تضم العائلة، والمستخدمين ، والعمال الزراعيين (thetes) والأقنان. بيد أن البناء الاقتصادي للمجتمع في العصر العتيق كان قائما على أساس لايسمح لملاك الأرض من الطبقة الوسطى بأن يمتلكوا المزيد من الأراضي . ذلك أن عدد السكان المتزايد ، كما رأينا، تسبب في المزيد من تقسيم الأرض بين الورثة الذين أصبحوا بالتالي أقل استعداداً للتخلي عن أرضهم حتى لو كان ذلك ممكنا . ولأن الاقتصاد لم يكن قائما على أساس النقود ، فقد بات من المستحيل تقريبا تراكم الثروة وبالتالي تخطي الحاجز الطبقي. ولم يكن بمقدور من لاينتمي لطبقة النبلاء أن يمني نفسه بتخطي الحواجز الطبقية من خلال زواج عروس نبيلة ؛ لأن الزواج بين هاتين الطبقتين كان نادرا ولايحظى بالقبول الاجتماعي.

كانت غالبية السكان الأحرار فلاحين يملكون أرضهم . وكان بعضهم ينتمون إلى مجموعة عرفت باسم الحرفيين (demiourgoi) أي «الذين يعملون لحساب الناس». وكانوا تجارا ، ونجارين، وحدادين ، ولكنهم أحجموا عن العمل في مجال الزراعة . وكانوا يعملون لقاء أجر في خدمة المجتمع كله على ما يبدو .

أما أدنى طبقة بين الأحرار الذين كانوا يعملون بالأجر، فقد كانوا كما لاحظنا يعرفون باسم العامة (thetes) ولم يكونوا حرفيين . فقد كان الواحد منهم أقل من مكانة العبد من بعض النواحي . إذ كان العبيد على الأقل جزءا من أهل البيت

كما كانت لهم هوية بشكل ما ، على حين كانت طبقة العامة خارج أى بناء اجتماعى. لقد كان الأجير، وليس العبد، هو الذى اعتبره أخيل(*) فى الأوديسة أحط شخص فى المجتمع ، عندما زاره أوديسيوس فى العالم السفلى، وقال ناديا حظه: «إننى أفضل أن أقيد لأعمل أجيرا عند شخص آخر ، إلى جانب رجل لا أرض له ولايكسب كثيرا، على أن أكون حاكما للموتى الهالكين».

والحقيقة أن العبودية لم تكن منتشرة على نطاق واسع فى العصور المظلمة والفترة العتيقة. إذ كان عدد قليل من العبيد الذكور يعملون بالمنازل والحقول ومزارع الكروم. وعلى عكس ما حدث فى الفترة اللاحقة، فإنهم لم يكونوا يؤجرون للعمل لحساب الغير . وبسبب قلة الذكور، وبسبب الأعباء الاقتصادية اللازمة لتنشئة الصغار ، فقد كان كل الملاك نادرا ما يزوجون عبيدهم . ولم يكن الاقتصاد يتطلب وجود عبيد زراعيين. وبصفة عامة، كان يتم قتل الذكور عند الاستيلاء على إحدى المدن، على حين تسبى النساء والأطفال لكى يصيروا عبيدا. ففى «الإلياذة» ، نجد هيكتور يعبر عن مخاوفه لزوجته أندروماخى قبل سقوط طراودة بقوله إننى لن أحفل كثيراً بحزن الطوراديين فيما بعد ولكنى سوف أحزن عليك عندما يحملك أحد الآخيين من لابسى البرونز وأنت تذرفين الدمع، وعندما تكونين فى أرجوس ستعملين على النول تنفيذاً لأوامر امرأة أخرى، وتحملين المياه من ميسيس (Messes) أو هيبريا (Hypereia)

(*) أخيل Achilles :

ابن بيليوس والحورية ثيتيس ، وأشجع أبطال الإغريق فى حرب طروادة . غمسته أمه إبان طفولته فى مياه نهر ستيكس ، فجعلت كل جزء من جسده منيعا باستثناء عقبه الذى كانت تمسكه منه. تعهده بالتربية القنطور خيرون الذى لقنه أصول الحرب. حين تنبأت أمه بالميتة التى تنتظر ابنها البسته ثياب النساء وأودعته بين بنات ليكوميديس ملك سكيروس الذى آواه حتى لاينخرط فى حرب طراودة التى سيلقى فيها حتفه كما تقول النبوءة . غير أن البطل أجاكس توجه إليه يعرض عليه سلعا من تلك التى تشتريها النساء ودس فيها بعض الأسلحة التى تثير فضول الرجال الشجعان . فما كاد خيل يراها حتى خلع ملابس النساء وتناول الرمح فى يد والترس فى يد ومضى إلى ساحة الوغى فغدا البطل الذى أثار الفزع بين الطرواديين . غير أن الإله بوسيدون كان يضمر له الشر فأوعز إلى أبوللو فى ثنايا سحابة ونزل فى صفوف الطراوديين وآمر باريس أن يصوب سهامه إلى أخيل الذى كان يحصد أعناق الطرواديين ، ووجه بيده الإلهية الباطشة سهم باريس إلى أخيل فأصابه توا فى عقبه ولقد قام أودسيوس بزيارته ضمن آخرين، فى العالم الآخر.

«لقد كانت الاماء تعملن فى المنزل ، غسيلا وحياكة، وتنظيفا إلى جانب طحن الغلال. وإذا كانت هناك امرأة شابة جميلة فإنها ترغم على مشاركة سيدها الفراش . هذه الممارسة وردت فى الأوديسية عندما ذكرت عن يوركليا (Eurycleia) الأمة، التى كانت مربية أودسيوس، ما نصه : «لايرتيس أحضرها ... وعندما كانت ما تزال فى ريعان الشباب.. لكنه لم يمارس معها الجنس أبدا».

هكذا، إذن كانت فرصة الحراك الاجتماعى أو الاقتصادى ضئيلة فى العصر العتيق. ومع حلول القرنين السادس والخامس ق.م . تغير الموقف إلى حد كبير. إذ استمر المجتمع الإغريقى محتفظا بخطوط مماثلة فاصلة بين الطبقات، ولكن بطريقة أقل جمودا وأقل ثباتا وثمة مثال هو الحطاب الأثينى ثيموماخوس (Timomachus) الذى عاش فى الريف، وعندما استقر ابنه فى المدينة صار نجارا، ولكن ابن الابن حفيد تيموماخوس صار قائدا.

ففى ذلك الحين باتت التقسيمات الطبقية قائمة بشكل أساسى على الثروة؛ ويصدق هذا بصفة خاصة على ذوى الأصول الأرستقراطية ، الذين بدأ الأساس الوراثى لهم يتلاشى على نحو ما. إذ تناقصت أعداد الأرستقراطيين كثيرا بالنسبة لبقية السكان، على حين تزايدت أعداد أصحاب الملكيات المتوسطة والصغيرة كما أن قوتهم السياسية تصاعدت ، وهو ما حدث أيضا للمواطنين الذين لايملكون أرضا. فقد بدأ أرباب الحرف يقومون بأعمال كثيرة متنوعة وجدوها متاحة فى المدن. بيد أن أكبر تغيير حدث بين العصر العتيق والفترة الكلاسيكية تمثل فى الزيادة الضخمة لأعداد غير المواطنين ، الذين ربما وصلت أعدادهم إلى حوالى ٤٠ بالمائة من السكان فى دول مثل أثينا فى القرن الخامس ق.م . كما أن عدد العبيد والمجرمين تزايد بصورة كبيرة، وظهرت طبقة تجارية جديدة من غير المواطنين كان قوامها رجال الأعمال الأجانب .

فى المجتمع الكلاسيكى كان يوجد حد فاصل صارم بين المواطنين وغير المواطنين . وعلى أية حال كان المواطنون مقسمين فى طبقات كانت تتداخل فيما بينهما كثيرا، وصار التمييز بين أبناء الطبقة الأرستقراطية وغيرهم أمرا مربكا . إذ كانت استقراطية القرن الخامس ق.م. مزيجا من أرستقراطية المولد القديمة وأرستقراطية الثروة الجديدة .

وكان الأرستقراطيون ما يزالون يحوزون الممتلكات لاسيما فى مجال الأراضى ، بيد أنهم ربما كانوا يستثمرون رؤوس أموالهم فى مجالات اقتصادية أخرى، وربما كانت لهم مصادر أخرى للدخل ، وقد حاول النبلاء القدامى أن يحافظوا على هويتهم – فعلى سبيل المثال، كان النبلاء يشعرون أن واجبهم اجبار الوريثة على الزواج من أحد أقاربها للحفاظ على ممتلكات العائلة . ولكنهم كانوا يذوبون تدريجيا فى الارستقراطية الجديدة القائمة على الثروة، وبحلول القرن الرابع ، ق.م . كانت الارستقراطية الحقيقية الوحيدة هى تلك القائمة على أساس الثروة وحدها .

وعلى الرغم من أن الأرستقراطيين كانوا يمتلكون الأراضى، فإنهم اتجهوا فى تلك الفترة إلى النزوح من ضياعهم إلى المدينة ، حيث وجدوها غالبا مناسبة لأن يصبحوا من الأعيان الذين لا عمل لهم ويعيشون على الدخل الذى تدره ضياعهم ، ويترفعون عن العمل. ففى طيبة ، مثلا، كان أصحاب الحوانيت مستبعدين من الوظائف السياسية، ولكن الواحد منهم يمكن أن يكتسب هذا الحق بعد عشر سنوات من التقاعد . وفى اسبرطة كان القانون يمنع الأسبرطى من أن يتولى عملا ما حتى وإن كان حرفة : ولم يكن أفلاطون يحتقر سوى السفسطائيين الذين كانوا يعملون من أجل المال ، وميز سقراط عنهم لأنه لم يكن يتقاضى أجرا . ولقد حث سقراط شخصا اسمه إيوثيروس (Eutherus) كان يمر بضائقة أن يعمل فى وظيفة وكيل أعمال، بيد أن كبرياء هذا الرجل حال بينه وبين القيام بهذا العمل . وفيما بعد، أى فى القرن ، الأول ق.م. لاحظ بلوتارخ أنه لايوجد شاب موهوب يتمنى أن يكون مثل فيدياس (Phidias) أو بوليكليتوس (Polycleitus) الذين كانا من أعظم المثالين فى الماضى، لأنهما كانا مجرد حرفيين فى نفس طبقة العطارين والصباغين .

ولم يعد الأرستقراطيون يسيطرون على الحياة الدينية بصورة كاملة، على الرغم من أنهم كانوا ما يزالون يحتفظون ببعض المناصب الكهنوتية الهامة ؛ ولكنهم على أى حال كانوا قد فقدوا السيطرة على مقدرات الدولة العسكرية تماما . إذ إن أنماط جديدة من أساليب القتال والسلاح وظهور القوة البحرية نزلت بدورهم العسكرى إلى الحضيض .

كانت المزارع ، حتى تلك التى امتلكها الأثرياء ، صغيرة بالمقاييس الحديثة . ففى القرن السادس قسم سولون (Solon)(*) مواطنى أثينا حسب الثروة ، فكان الشخص الذى ينتمى إلى الطبقة الأعلى فى تقسيمة هو من يمتلك دخلا قدره خمسمائة من الغلال أو ما يقابلها من محصول آخر أو قيمتها بالنقود . وكان إنتاج هذه الكمية يتطلب ما بين خمسين إلى خمسة وسبعين هكتارا من حقول الغلال ومزارع الكروم.

وفى أثينا كانت غالبية السكان الذين يعيشون على ناتج الأرض من متوسطى أو صغار الملاك. وخلال القرنين السابع والسادس ق.م. كان معظم السكان يعيشون فى الريف ، وحتى نهاية القرن الخامس ق.م . لم يكن الريفيون قد اعتادوا حياة المدينة وأساليبها . وعندما أجبرتهم غارات أسبرطة المتكررة على اتيكا خلال الحرب البلوبونيزية على العيش داخل أسوار المدينة، وجدوا أن حياة المدينة غاية فى الصعوبة والغرابة بالنسبة لهم.

وقد خدم متوسطو الملكية والميسورون من صغار المزارعين فى صفوف الجيش بوصفهم مشاة من حملة الأسلحة الثقيلة . وقد تنوع انتماؤهم السياسى؛ فغالبًا ما كانوا يؤيدون الديموقراطية المعتدلة ، ولكنهم دعموا الأوليجاركية فى بعض الأحيان . أما الفلاحون الصغار ، الذين اتجهوا للخدمة فى صفوف الجيش ضمن قوات الأسلحة الخفيفة، فقد ربطوا أنفسهم بالأجراء وبالديموقراطين الراديكاليين بصفة عامة .

(*) سولون Solon :

كان سولون ينحدر من أسرة أثينية ثرية ، ولكن أبوه كان مسرفا اضاع الكثير من ثروته فأرسل ابنه ليعمل فى التجارة فى خارج البلاد فانتهز سولون هذه الفرصة وتعلم من البلاد التى قام بزيارتها كما درس تشريعات المشرع دراكون وتفهمها وصمم على أن يوفق بين طرفى النزاع : الذين يملكون والذين لايملكون وبعد انتخابه ارخونا عام ٥٩٤ ق.م بدأ فى تعديل الاحوال الاجتماعية عن طريق برنامج إصلاحى شامل، وأعاد تقسيم طبقات المجتمع حسب ما تملكه كل طبقة من أموال إلى الطبقات الاجتماعية التالية :

= الأغنياء : الذين لاتقل ملكيتهم عن خمسمائة مكيال من الحبوب، وجعلهم يتربعون على قمة الهرم الاجتماعى ويتمتعون بالمناصب الكبرى.

= الفرسان : وهم الطبقة المتوسطة ومنحهم حق شغل الوظائف الصغرى .

= الحرفيون : وتمتعوا بالعمل فى التجارة والزراعة وببعض المناصب الصغرى .

= العامة من المعدمين: وهم يشكلون الغالبية العظمى . حرم عليهم الوظائف الرسمية تماما مقابل عضوية الجمعية العامة وعملوا كمحلفين فى المحاكم بلا أجر.

وبينما كان الأجراء فى العصر العتيق يشكلون قسما صغيرا نسبيا من مجموع السكان على ما يبدو ، فإنهم شكلوا أكبر طبقة منفردة من المواطنين فى العصر الكلاسيكى. ففى أثينا القرن الخامس كان نصف عدد المواطنين من الأجراء . كان بعضهم مزارعين صغارا للغاية يعيشون على قطعة ضئيلة من الأرض الزراعية، كانت تكفيهم بالكاد. وكانت بعض هذه الأراضى صغيرة فى مساحتها بحيث لم تكن تدر دخلا يزيد عن ٥٠ دراخمة . كان معظم الأجراء يعملون قصارين واسكافيين ونجارين وحدادين وتجار تجزئة وباعة متجولين . وكانت أكثر هذه الحرف نجاحا تدر من الدخل ما يكفى لأن يبرز الأجير داخل طبقته . وكان بعض الأجراء يعملون فى الأعمال الزراعية بالأجر. وتوضح كشوف الحساب الباقية من بناء الارختيوم (Erechtheum) (٤٠٩-٤٠٨ق.م) أنه من بين سبعين من المقاولين والعمال كان هناك خمسة عشر مواطنا ، يرجح أنهم من الأجراء.

فى معظم المدن الإغريقية كانت تطورات التجارة حافزا لظهور طبقة تجارية جديدة من الأجانب غير المواطنين عرفت باسم المقيمين (metics) وفى الوقت نفسه زادت نسبة العبيد زيادة فلكية بالمقارنة لأعدادهم فى العصر العتيق حيث ظهرت فى العصر الكلاسيكى مجالات عديدة كثيرة لاستخدامهم ، مع نمو الصناعة والتجارة والتعدين . وكان دور المقيمين والعبيد والعتقاء صغيرا فى الصراع الداخلى بين الطبقات فى بلاد الإغريق ، على الرغم من أن الأفراد ربما كانوا ينخرطون فى الصراع بين الديموقراطيين والأوليجاركيين، ففى كوركيرا ناصر بعض العبيد الحزب الديموقراطى فى مرحلة معينة ضد الأوليجاركية بناء على وعد بتحريرهم .

لقد كان المقيم أجنبيا جاء إلى مدينة مثل أثينا لتحسين أحواله. وفى أثينا كان الأجانب يقسمون إلى مقيمين مؤقتين أو مؤقتين دائمين. وكانت الغالبية العظمى مقيمين دائمين بشكل ما ، وعادة ما كان يشار إلى الطبقة كلها باسمهم أى «المقيمين» . وكانت نسبة المقيمين فى أثينا أعلى منها فى معظم الدول الأخرى، إذ بلغوا حوالى ١٠٪ من مجموع السكان وكانوا يفدون من شتى البقاع. إذ تشير النقوش التى ترجع إلى القرنين الخامس والرابع ق.م. إلى مقيمين من فريجيا، ومن الكاريين ومن بافلاجونيا ، ومن الكلت والليديين، فضلا عن السوريين والفينيقيين والمصريين والعرب والإسكيثيين

والفرس. وكان المقيم يلقى نفس معاملة المواطن. إذ كان يقيد اسمه فى المنطقة التى يقيم بها. وبالإضافة إلى الضرائب التى كان المواطن يدفعها ، كان على المقيم أن يدفع ضريبة رمزية نظير إقامته . وحسب مقدار ثروته، كان عليه أن يخدم فى الجيش ضمن حملة السلاح الثقيل أو فى الأسطول مجذفا أو بحارا .

ولم تكن هناك أية قيود على مكان اقامته أو الديانة التى يعتنقها . والحقيقة أن الأثينيين قد تأثروا بالديانات الأجنبية بشدة . ففى نهاية القرن الخامس ق.م . ظهرت عبادات تراقية وفريجية وسورية ومصرية وحققت شعبية كبيرة فى أثينا. ذلك أن المشهد الافتتاحى فى جمهورية أفلاطون ، على سبيل المثال، يصور سقراط عائدا من مشاهدة طقوس عبادة الربة بنديس (Bendis) التراقية التى كانت قد قدمت لتوها إلى بيريه .

لقد أثر المقيمون فى البناء الاقتصادى للدولة كثيرا لأنهم تحكموا فى الحرف والتجارة سواءالتجارة الخارجية أو التجارة المحلية. ولم تكن التجارة البحرية ، التى سيطروا عليها تدريجيا تدر ربحا كثيرا للتاجر الفرد، وكانت معظمها تتم من خلال رحلات منفصلة فى سفن صغيرة يقوم بها تجار مركزهم المالى ضعيف ويمولونها بأموال اقترضوها . وكان أولئك الذين يملكون رأس المال يستثمرون أموالهم على ما يبدو فى تلك المشروعات ولكنهم لم يقوموا بدور مباشر كبير. وتشى معدلات الفائدة المرتفعة للغاية للقروض الائتمانية على السفن بأن عوائد التجارة الخارجية كانت سخية، بيد أنه حتى لو كانت الرحلة ناجحة فإن هامش ربح التاجر كان ينخفض بعد تسديد القروض ، وكان من الممكن تماما أن تفشل الرحلة. كان معظم التجار يبادرون بالتخلى عن السفر حالما يتوفر لهم قدر من رأس المال. وفى حديث لديموستنيس (Demosthenes) يقرر أحد التجار : «كنت تاجرا على مدى فترة طويلة من الزمان وخاطرت بحياتى فى البحر ؛ ولكن منذ حوالى سبع سنوات مضت تركت البحر لكى استغل أرباحى المتواضعة فى مجال القروض والأئتمان على السفن» . وعلى الرغم من أن الشحن البحرى كان يديره أفراد من المقيمين بقدر كبير من المغامرة الشخصية ونادرا ما كانت تتكون شركات كبيرة للشحن البحرى، فإن الحجم الاجمالى للتجارة الخارجية كان كبيرا . كما أن صناعة السفن كانت بأيدى المقيمين . ولم تكن صناعة كبيرة على أية حال، لاسيما وأن أية سفينة كان يمكن أن تعمل بكل طاقتها فى التجارة لمدة تصل إلى ثلاثين أو أربعين سنة بحمولتها الصغيرة إذا لم تغرق .

لقد أنتج المقيمون معظم البضائع المصنعة . وكان التصنيع يجرى على نطاق صغير للغاية مثل التجارة وربما لم تكن الورش الفردية تستخدم أكثر من عشرة إلى خمسة عشر عاملا ، كانوا عادة من العبيد . كان أكبر مصنع فى أثينا ، وهو مصنع كيفالوس (Cephalis) للدروع، يعتبر من المصانع الضخمة لأن عدد عماله كان ١٢٠ عبدا . ومنذ البداية كانت تجارة الفخار بأيدى المقيمين ، وبصفة عامة كان الحرفيون من غير المواطنين . وبين أسماء رسامى الفخار فى القرن السادس والقرن الخامس ق.م . نجد الكثيرين من الأجانب أو الرقيق مثل «الليدى» (من ليديا) والأماسيسى والسيراكيوزى .

ولم يمارس المقيمون ، بصفتهم طبقة ، الضغوط للحصول على حقوق المواطنة اطلاقا ، على الرغم من أن بعض الأفراد سعوا للحصول عليها بهمة كبيرة. إذا لم تكن المواطنة ذات أهمية أساسية بالنسبة لمعظم المقيمين . لأن الطبقات كانت تتحرك فى سبيل الحصول على حقوق المواطنة وتحرص على ممارستها عندما تكون هذه الحقوق مجلبة لأمتيازات فقط، سواء على المستوى المادى أو لأنها تزيد من قدر الحرية وترفع المكانة ولم تكن تلك هى الحال بالنسبة للمقيمين عادة . إذ أن وجود المقيمين خارج هيكل المواطنة أتاح لهم قدرا كبيرا من الحراك الاجتماعى. فقد كان من المتوقع وجود مقيم غنى مثل كيفالوس فى بيت أحد الأرستقراطيين، ولكن من الغريب أن تجد هناك مواطنا من طبقة الحرفيين (Zeugites) وكان المقيمون يتمتعون بنفس امتيازات المواطنين وعليهم نفس التزاماتهم . بيد أنه لم يكن بوسعهم حقا أن يمتلكوا أية ملكية حقيقة؛ شأنهم شأن غير المواطنين الذين كانوا ممنوعين من تولى الوظائف العامة ، ولم يكن مسموحا لهم بالمثول أمام المحكمة دفاعا عن أنفسهم ، كذلك استبعدوا من بعض الأعمال المرتبطة بالأرض مثل التعدين . وعلى أية حال ، فإنهم تمتعوا بكافة الحقوق المدنية وحقوق الملكية الأخرى التى تمتع بها المواطنون ؛ وبصفة عامة كانت حياتهم مستقرة وكانت أعمالهم رابحة . وكانوا غير مكترثين بتولى المناصب العامة، ولم يؤلمهم كثيرا استبعادهم منها . وكان من الممكن أن يثور المقيمون فقط فى حال فقدانهم لوضعهم بما يتضمنه من أمن نسبى، أو لو أنهم كانوا بحاجة إلى القوة السياسية لكى، يحافظوا على حقوقهم وامتيازاتهم، وربما تحركوا لحيازة القوة السياسية .

وعلى أية حال ، فقد كان أهم عامل حال بين المقيمين وبين الدخول إلى حلبة الصراع الاجتماعي والضغط من أجل الحصول على حقوق المواطنة ، عاملا نفسيا ففكرة أن حقوق المواطنة حق وليست امتيازا فكرة حديثة نسبيا . فاليوم عادة ما يتم الحصول على حقوق المواطنة بمجرد مولد الفرد فى الدولة. وهناك بعض الشروط المسبقة فى أنحاء قليلة جدا من العالم تتعلق بالعرق والنسب والقبيلة . أما فى بلاد الإغريق القديمة فقد كانت المدينة الدولة امتدادا متناميا للقبيلة والنظام القبلى ، وكانت عضوية الدولة تستلزم أيضا الانتماء إلى القبيلة . ونتيجة لهذا الموقف تميزت المدينة الدولة الإغريقية جزئيا بخصوصية شديدة . فقد كان كل من الأجنبى والأثينى فى أثينا ينظر إلى الأجنبى باعتباره عضوا فى مدينته الأصلية، ولم يكن من حق الأجنبى أن ينال حقوق المواطنة فى أثينا لمجرد أنه عاش أو ولد بها، وكان من الممكن منحه حقوق المواطنة إذا أسدى بعض الخدمات الجليلة للدولة . وحالة لسياس (Lysias) خير مثال على ذلك . فقد كان أبوه رجلا ثريا من أهل سيراكيوز اسمه كيفالوس (Cephalus) (كان منزله هو المسرح الذى تدور عليه أحداث جمهورية أفلاطون) ، وقد استقر فى أثينا بناء على دعوة من بريكليس . وولد ليسياس فى أثينا . وقدم المال والسلاح وخدماته الشخصية للديموقراطيين ضد الطغاه الثلاثين البشعين سنة ٤٠٤ – ٤٠٣ ق.م. وبعد هزيمة الطغاه ، منح الأثينيون كثيرين من المقيمين حقوق المواطنة عرفانا بالجميل وتقديرا لمساعدتهم . وبمجرد أن استقرت الأحوال ، اشتدت الشروط اللازمة للحصول على حقوق المواطنة صرامة ، وتمت اعادة ليسياس وغيره من المقيمين الذين كانوا قد حصلوا على حقوق المواطنة إلى وضعهم السابق وفى ضوء هذا الموقف من جانب الدولة ومن جانب المقيمين أنفسهم يمكننا أن نعرف لماذا لم يكن المقيمون يضغطون أبدا فى سبيل الحصول على المواطنة . فطالما لم تكن مصالحهم الخاصة معرضة للخطر فى خضم الصراع الديموقراطى الأوليجاركى حول حق الحكم، فإنه نادرا ما كان المقيمون يتورطون بأنفسهم ما لم تتعرض أملاكهم للهجوم المباشر.

ولأسباب عديدة مشابهة لم يشارك العبيد والعتقاء، مثل المقيمين ، فى الصراع الطبقى الدائر داخل الدول الاغريقية كما أنهم لم يتحركوا فى سبيل الحرية أو حقوق المواطنة. كانت موارد الرق الثلاثة ؛ المولد، والادانة القانونية ، والحرب . وكان عدد العبيد الذين يولدون بالمنزل قليلا للغاية . فالانجاب والتربية لم يكن ذا عائد كبير بسبب ارتفاع معدل الوفيات بين الأطفال وباستثناء الفترة الباكرة فى القرن السادس لم يكن هناك

استرقاق للمدينين غير القادرين على السداد . ومن ثم كانت الحرب هي مصدر الحصول على العبيد. وازدهرت أسواق النخاسة في كل من بيزنطة وافسوس وخيوس وتساليا . وكان غالبية العبيد من غير الإغريق ؛ أخذوا بالحرب أو تم شراؤهم من أسواق النخاسة ؛ فكان منهم السارماشيون ، والفرس ، والعرب ، والمصريون ، والليبيون ، والتراقيون .

على الرغم من أن نسبة العبيد بلغت ٢٥٪ من عدد السكان ، فإن المجتمع الأثيني لم يعول عليهم في بقائه من الناحية الاقتصادية . كما أن النظام الديموقراطي كان قائما على أساس الرق . وفيما عدا أولئك العاملين بالمنازل أو العاملين بالمناجم ، لم يكن العبيد لازمين لرفاهية المواطن . وعلى عكس عبيد روما في القرن الثاني ق.م أو عبيد جنوب الولايات المتحدة في القرن التاسع عشر الميلادي ، لم تكن للعبيد في بلاد الإغريق أهمية كبيرة في مجال الزراعة ، لأن الأرض كانت فقيرة للغاية . إذ كانت غالبية الزراعة في مساحات ضئيلة جدا، ولم يكن الفلاحون بحاجة إلى العبيد الذين كانوا يتطلبون نفقات إعالتهم . ويصدق هذا أيضا على الحرف الصغيرة ، فإذا كان أحدهم يملك عبدا استغله في العمل بالمحل والمنزل على السواء.

كان استئجار العبيد أكثر شيوعا ، وعادة ما كان العبيد يتقاضون نفس أجر الرجل الحر. ففي مجال البناء، كان يتم استئجار العبيد أو الأحرار وفقا للعمالة المتاحة . ونجد في سجلات بناء الارخثيون فوق اكروبول أثينا ما يفيد أنه كان هناك خمسة وعشرون عبدا بين خمسة وثلاثين عاملاً . وكان العشرة الآخرون من الأحرار؛ وكانت أجورهم جميعا متساوية . وبسبب استئجار العبيد ، ولأن السادة كانوا يسمحون في أغلب الأحوال للعبيد بإدارة شئونهم الخاصة، كان وضع العبيد يشبه وضع العامل الأجير أو الحرفي الصغير من بعض النواحي، بيد أنه كان ملزما بأن يعطي سيده جزءاً من دخله . ومن ثم ، فإنه على الرغم من كون الرق جزءاً هاما من الاقتصاد والمجتمع الأثيني، فإنه لم يكن جزءاً أساسيا تماما. ولو حدث أن تحرر العبيد جملة ، لما تغير أداء أثينا في مجال الاقتصاد كثيرا . أما على المستوى الاجتماعي ، فإن مضايقات منزلية كانت ستحدث بالنسبة للأثرياء على وجه الخصوص ، وإن كان

من المحتمل أن يحل الخدم المؤجرون محل عبيد المنازل. وإذا كانت نسبة العبيد إلى عدد السكان ٢٥٪ فإننا يمكن أن نستبعد عبيد المناجم والعبيد الحرفيين من هذا العـدد، وفى تقديرنا أنه كان يمـكن أن يعانى بشدة من عمليـة التحرير الجمـاعى للعبيد . إذ كانت تكاليف المناجم سترتفع كثيرا بدون عمل العبيد، كما كانت عملياتها المستمرة ستتوقف .

كان تحرير العبيد أمرا نادر الحدوث فى الفترة الكلاسيكية ، ومن ثم كان عدد العتقاء قليلا، فإذا منح أحد عبده حريته، أو سمح له بشرائها، كان عليه أن يجد من يحل محله. ولذلك كانت معظم حالات تحرير العبيد نتيجة مشاعر شخصية، أو رغبة فى الحصول على الثمن المرتفع الذى سيدفع لقاء العتق . وغالبا كان العبيد الذين يستطيعون جمع مبلغ كاف من النقود لشراء حريتهم من الحرفيين المستقلين ، ممن يدفعون مبلغا معلوما لسيدهم . ولأنهم كانوا يتمتعون بقدر معقول من الحرية ، فإن تحريرهم لم يكن ليعود عليهم بفائدة مادية كبيرة . ولنفس الأسباب التى لم تجعل المقيمين يلحون فى طلب حق المواطنة ، لم يكن العتقاء يشعرون بأن لهم الحق فيها . ولاشك فى أن عمال المناجم كانوا سينتهزون الفرصة للتخلص من أحوالهم القـاسية. إذ كانت نوبة العمل فى مناجم الفضة فى لاريوم (Laurium) تستمر عشر ساعات، وكان الحفر يتم على ضوء المشاعل. وفى القرن الرابع ق.م. وصلت آبار المناجم إلى عمق يزيد على ثلاثمائة قدم. وهكذا كان من المتوقع ألا تطول حياة العمال . ولم يكن العبد العامل فى المناجم يجد وسيلة تمكنه من ادخار المال الذى يشترى به حريته .

كانت حركات التمرد بين العبيد نادرة فى بلاد الأغريق إبـان الفترة الكلاسيكية على الرغم من أنه فى بعض المدن، مثل اسبرطة . كانت ثورات العبيد كثيرة الحدوث . إذ كانوا يعاملون بقسوة وكانوا يعانون من القهر والقمع. وفى غالب الأحوال لم تكن تلك الثورات تحقق نجاحا . أما فى أثينا ، فقد كان عبيد المناجم تحت سيطرة قوية بحيث لم يكن بمقدورهم أن يثوروا ، على حين كان عبيد المنازل يلقون معاملة طيبة، كما كان من المحتمل ألا تكون حياتهم أفضل إذا ما حصلوا على حريتهم .

وعلى الرغم من الحقيقة القائلة بأن أثينا صارت المركز الثقافى وأكثر دول بلاد الاغريق قوة، فقد ظلت مجتمعا زراعيا فى المقام الأول مثـل سائر المدن الإغريقية ،

ويقيت كذلك حتى نهاية القرن الخامس ق.م. على الأقل . ومع أن التجارة كانت واسعة النطاق ، فإنها كانت بأيدى غير المواطنين ، ولم تصل أبدا إلى مستوى التجارة الدولية فى الإمبراطورية الألمانية أو الإنجليزية . وعلى الرغم من أن أثينا كانت تنتج الفخار والمشغولات المعدنية ، ومواد أخرى للتصدير ، فإن الصناعة كانت قائمة على نطاق ضيق للغاية كما رأينا. ومن ثم، فإن ذلك النشاط الصناعى المحدود لم يشجع على تطور الطبقة المتوسطة مثلما حدث فى البلاد التى مرت بالثورة الصناعية وكانت الطبقة المتوسطة تضم ملاك الأراضى متوسطة المساحة وعددا قليلا من التجار والحرفيين.

انهيار الأرستقراطية وظهور الطغاة :

عادة ما كانت الحرب الأهلية والصراع الطبقى ينشب فى المدينة الدولة حول مسألة حقوق المواطنة الكاملة ومن يستحقها ، لاسيما حقوق تولى المناصب والتشريع . والواقع أن الحقوق الجزئية عادة ما كانت تعنى الحرمان الفعلى من الحكم . وغالبا ما كان صراع الطبقات الدنيا من أجل الحصول على حقوق المواطنة الكاملة والمشاركة فى الحكم يؤدى إلى الاضطراب الداخلى. ولقد تركزت تلك الصراعات الداخلية فى فترتين أساسيتين . حدثت إحداهما فى القرنين السابع والسادس ق.م. عندما انهار المجتمع الزراعى فى بلاد الاغريق . وجاءت الثانية فى القرن الخامس ق.م. عندما تحارب الأوليجاركيون والديموقراطيون فى سبيل السيادة . وفى تلك الفترة نالت الطبقات الدنيا نصيبا فى الحكم فى العديد من دويلات الاغريق . ولقد حاول الأوليجاركيون، وغالبا ما نجحوا فى محاولاتهم ، أن يقيدوا حقوق المواطنة بيد أن الديموقراطيين عارضوهم فى ذلك . وأدت تلك الصراعات إلى حوادث مثل تلك التى حدثت فى كوركيرا التى تأرجحت ما بين الديموقراطيين، والأوليجاركيين ، وأريقت دماء كثيرة طوال ذلك الصراع، أو ما حدث فى بيزنطة ، التى تحولت من الأوليجاركية إلى الديموقراطية والعكس حوالى ست مرات فى غضون القرن الخامس ق.م. حتى أثينا ، تلك المدينة الديموقراطية الرائدة، تحولت أوليجاركية مرة فى القرن السادس ق.م. وتحولت مرتين إلى أوليجاركية قصيرة العمر فى القرن الخامس ق.م. وتحت وطأة الحرب والهزيمة .

وقد رأينا من قبل أن احتكار الأرستقراطية للسلطة كان ينبع من ملكيتهم للأرض وسيطرتهم على النظام العسكرى. وكانت هناك عوامل ثلاثة بدلت هذا الموقف :

زيادة السكان وما نتج عنها من حركة تكوين المستعمرات والتجارة ، وتحول الاقتصاد إلى اقتصاد نقدى يعتمد على النقود وظهور نمط جديد من أسلحة الحرب هو فيلق المشاة .

وقد وجدت المدينة الدولة فى حركة الاستعمار الحل للمشكلات الاقتصادية الناجمة عن زيادة السكان فى القرنين الثامن والسابع ق.م. ومع حركة الاستعمار ازدهرت التجارة ، وأصابت نجاحا متزايدا وصارت سوقا للسلع الواردة من مدن وأقطار أخرى . وصار الإنتاج أكثر تخصصا وخضع لحاجات السوق بشكل متزايد . ولقد أدى ذلك الاضطراب الاجتماعى والاقتصادى إلى سقوط المجتمع الزراعى الجامد . وتم إنتاج الخزف وغيره من البضائع بكميات أكبر ؛ كما أن الأجراء الذين لا أرض لهم صاروا يجدون فرصا للعمل فى البحر. وصار من الممكن آنذاك أن يحصل الإنسان على ثروة فى أشكال أخرى غير ملكية الأرض، وهكذا ضعف الأساس الذى اعتمدت عليه الأرستقراطية القديمة فى حيازتها السلطة.

كان للتجارة تأثير ثان أدى إلى انهيار الأرستقراطية : إذ إنها زادت من إمكانية توفر المعادن . وإذ تزايد الوارد منها قلت التكلفة ، وبذلك صار فى وسع عدد أكبر من الرجال الحصول على السلاح . وصار أى مواطن يستطيع أن يقتنى سلاحه فارسا بغض النظر عن مولده ، ومع هذه المكانة الجديدة زادت القوة السياسية . ذلك أن زيادة كمية المعادن شجعت على تطور سلاح جندى المشاه مما كان عاملا رئيسيا فى تحطيم سلطة الأرستقراطية .

كما أن إدخال النظام النقدى فى بلاد الاغريق فى القرن السابع ق.م . قد أضعف أيضا الأرستقراطية القديمة. فقبل ادخال النقود لم يكن مالك الأرض غير الارستقراطى يستطيع استغلال زيادة المحصول الذى أنتجه ، كما كان من المستحيل تقريبا أن يحصل على أرض أكثر . ولم تكن هناك وسيلة مرضية يستغل بها الفائض المتراكم لديه على نحو فعال. وإذا ما أنتج المزيد من الحيوانات لم يكن يجد الأرض التى يربيها عليها وربما كان يقايض جزءا من تلك الزيادة بأشياء مادية ، ومن المحتمل أنه كان يأكل أفضل لأنه كان من العسير أن يحتفظ بانتاجه تحت الحشية . بينما كان فى حالة الاقتصاد النقدى يمكنه بيع ما يفيض عن حاجته سنويا ، وبذلك كان يمكنه

تكوين رأس مال بالتدريج . وتتضح مدى تأثيرات النظام النقدى من خلال تحول الأرستقراطية من أرستقراطية تقوم على المولد إلى أرستقراطية تعتمد على الثروة ، وهو الأمر الذى حدث فيما بين القرن السابع والقرن الرابع ق.م. ويؤكد ثيوجنيس(*) (Theogenes) شاعر ميجارا ، الذى عاش فى القرن السادس ق.م ، أن الملاك الصغار وحائزى المزارع متوسطة المساحة قد حققوا ثرواتهم بفضل إدخال النظام النقدى، وأن الاقتصاد قد حطم الفوارق بين الطبقات ؛ فهو يشكو من أن «النقود تخلط الطبقات» ويقول «ليس بدون سبب أن الرجال يمجدونك فوق الجميع ، يابلوتوس Plutus اله الثروة ؛ لأنه عن طريقك يصبح الرجل الوضيع نبيلا».

وطالما ظلت القوة العسكرية للدولة بأيدى الأرستقراطية، فإنهم احتفظوا أيضا بالجهاز السياسى، وكان بيدهم أن يحددوا لمن تمنح حقوق المواطنة الكاملة . وعلى أية حال، عرفت بلاد الإغريق فيالق المشاه حوالى سنة ٧٠٠ ق.م. مما أحدث ثورة فى الفنون الحربية وأدى إلى المزيد من تحطيم الأرستقراطية. إذ كانت المعارك قبل فيلق المشاه عبارة عن منازلات فردية بين المتحاربين يختلط فيها الحابل بالنابل ، وتقوم على مبارزات فردية مع أفراد من العدو. وعلى امتداد «الإلياذة» يحكى هوميروس عن منازلة تلو الأخرى حتى يأتى إلى المعركة الكبرى لمحارب ضد محارب آخر، مثل مبارزة أخيليوس وهكتور قبالة أسوار طراودة . لقد كان القتال غير منظم لدرجة أن المحارب كان يمكنه أن يتوقف فى خضم المعركة لكى يجرد خصمه المقتول من سلاحه . ويصور هوميروس موت أرخيلوخوس (Archeloches) على هذا النحو : «ولكن بوليدامس (Polydamas) نفسه تجنب الموت المظلم ... وتلقى أرخيلوخوس بن أنتينور الحربة، لأن الآلهة الخالدة قدرت هلاكه . ولقد أصابته الحربة فى موضع التقاء العنق والرأس ،

(*) ثيوجينيس Theogenes :

شاعر ميجارى ازدهر حوالى عام ٥٤٠ق.م وكان ، كما يبدو من قصائده، أرستقراطيا محافظا، قصائده مليئة بالوعظ الأخلاقى والأفكار الفلسفية، لكنها تفيض بمشاعر الكراهية والحقد تجاه الطبقات الدنيا التى يرى أنها سبب المتاعب فى زمنه لأنها تحاول أن تأخذ بنصيبها من الثروة والسلطة . لقد فزع ثيوجينيس من قيام الثورة الشعبية فى ميجارا عام ٥٧٠ ق.م ورأى فيها تهديدا لميجارا بنظامها القديم . لذلك فإنه ينصح صديقه الشاب كيرنوس بألا يتعامل إلا مع النبلاء الفضلاء بالمعنى الأخلاقى والاجتماعى والاقتصادى فى إشارة إلى طبقة ملاك الأراضى من الأرستقراطيين.

فى الفقرة الأخيرة فقطعت الوترين ، وهكذا ارتطمت رأس الرجل وفمه وأنفه بالأرض قبل أن تلمسها مقدمة رجله وركبته عندما سقط ... وهنا طعن أكامس (Akamas) ، وهو يقفز متخطيا أخاه، بروماخوس البوثيتى بالحربة عندما حاول أن يسحب الجثة بعيدا » . لقد كان هدف الحرب المجد والحصول على الغنائم سواء كانت من المعدن أو السلاح أو النساء.

وعلى النقيض من ذلك كان فيلق المشاة سلاحا مدمرا جيد التنظيم . إذ كان الجنود يقفون فى أرض المعركة وتروسهم متقاربة متراصة ، كما لو كانوا دبابة مدججة بالحراب ، ولم يكن ثمة أمل لأن يكسب أسلوب الحرب القديم فى مواجهة هذا التطور . وكانت كل دولة مضطرة إلى الأخذ بهذا الأسلوب الجديد فى القتال وإلا فقدت مكانتها العسكرية . ولما كان ينبغى على فيلق المشاة أن يتحرك وكأنه كتله واحدة، وأن يقاتل فى نظام تام ، فقد تطلب الأسلوب الجديد مرانا وتدريبا مستمرا على عكس أسلوب الحرب الأرستقراطى القديم، كما تطلب اشتراك أعداد كبيرة من المواطنين . وكانت لدى غير الأرستقراطية الرغبة والوقت اللازم للتدريب ، وهكذا صار فى امكان عدد أكبر الانخراط فى سلك الجندية ، إذا لم تعد ثمة حاجة للخيول المرتفعة الثمن ، كما أن انخفاض تكلفة المعادن قلل من ثمن السلاح .

وقد اختلفت معدات تسليح المشاة عن النمط القديم من عدة وجوه. إذ كانت الحربة تقذف فى النظام القديم ويعقبها اشتباك المحاربين بالسيوف فى مبارزات فردية. وهكذا نجد فى «الإلياذة» أن هكتور يقذف رمحه تجاه أخيليوس، فتضرب درعه ، ثم «يسحب السيف القاطع الذى كان فى غمده يتدلى جانبه ... ثم ينقض عليه، وكأنه نسر يحلق عاليا يخرج من ظلمة السحاب هابطا إلى الأرض المنبسطة لينقض على حمل وديع أو أرنب مذعور ، وهكذا انقض هكتور ملوحا بسيفه البتار». وكان الدرع من النمط القديم بمقبض واحد فى منتصفه وشريط حول العنق حتى إذا ما أضطر الجندى للفرار أمكنه أن يلف الدرع للوراء لكى يحمى ظهره . وكانت أسلحة المشاة الدفاعية أكثر ثقلا ، والقطعة الرئيسية فيها عبارة عن درع معدنى، وكان الرمح يستخدم للطعن، على حين كان الدرع يعلق بشريط من القماش حول الذراع وكأنه يغطى الجانب الأيسر فقط من الجسم أساسا . أما الجانب الأيمن للجندى فكان يحميه درع زميله الواقف إلى يمينه .

وهكذا كان لابد للصف أن يقف ثابتا ، وإلا انكشف الجانب الأيمن. وبذلك تطور نمط جديد من الشجاعة فى الحرب ؛ هى ثبات جندى المشاة فى أرض المعركة . وينشد الشاعر ترتايوس(*) (Tyrtaeus) الذى عاش فى القرن السابع ق.م :

ما من أحد يثبت أنه جيد فى الحرب
ما لم يواجه المذبحة اللعينة بشجاعة
فمواجهة العدو وطرحه أرضا
هى امتياز الرجل وأرقى خصاله
وأشرف الأمجاد التى يحوزها الشباب
وخير لكل المدينة، ولكافة الناس
أن يثبت الرجل فى جبهة القتال
ولا يحجم أو يفكر فى الانسحاب الوضيع
وإنما يعزم بقلبه وروحه على الاحتمال
ويشجع من بجانبه بكلماته
وهكذا يتجلى الرجل الجيد فى الحرب

(ترجمة س.م. باورا)

(*) ترتايوس Tyrtaeus :

تضاربت الآراء حول جنسية هذا الشاعر، وهل كان اثينيا أم إسبرطيا، فهناك حكاية أثينية تقول إنه كان فى الأصل مدرسا أثينيا أرسله بنو وطنه إلى اسبرطة كمساعدة لها فى الحرب الميسينيه الثانية. وبالفعل كانت إشعار تيرتايوس الحماسية هى التى نجحت فى حث الإسبرطيين على الحرب ببسالة حتى يتحقق لهم النصر ، فى حين تذكر إحدى الشفرات المنسوبة للشاعر نفسه بأنه إسبرطى. ولقد جمع السكندريون أشعار تيرتايوس فى خمسة كتب، ولكنهم قسموها إلى ثلاثة أنواع : الاناشيد الحربية – قصائد تحث الناس على الصمود وكانت منظومة بالوزن الإليجى – قصيدة تسمى نظام الحكم أو دستور الدولة وهناك إحدى الشذرات التى تكشف عن شخصية الشاعر ومفاهيمه وقيمة وتدور حول موضوع الفضيلة . لقد كان تيرتايوس يرى الفضيلة فى الشجاعة ويعتبر الرجل الفاضل هو المحارب الباسل.

ولم يكن الدرع يوفر أية حماية أثناء الهرب ، ولذلك كان بإمكان جندى المشاه أن يرميه . وكتب الشاعر أرخيلوخوس يهاجم قيم الشجاعة الأرستقراطية «إن بعض السايين يفرح بدرعى. وعلى الرغم من أننى لم أكن أود تركه فقد تركته قرب شجرة صغيرة ولا لوم على، فقد نجوت بنفسى من الموت . فليذهب ذلك الترس إلى الجحيم فسوف أحصل على غيره يضاهيه فى جودته».

كما أن أرسطو يقول إن التنظيمات الباكرة كانت محدودة لأن الدويلات الإغريقية الباكرة أقامت قوتها العسكرية على الخيالة ، ومن ثم على الأثرياء الذين كان يمكنهم الحصول على الخيول . وعلى أية حال، فإنه بظهور المشاة اتسعت قاعدة القوة العسكرية وحصلوا على نصيب أكبر فى حكم الدولة . ففى أثينا كان الحصول على حقوق المواطنة الكاملة مرتبطا بالمساهمة فى النشاط العسكرى للدولة . فقد كان الأرستقراطيون يملكون بزمام السلطة الكاملة عندما كانوا يسيطرون على القوات العسكرية ؛ ولم يتمكن أصحاب المزارع الصغيرة والمتوسطة أن يحصلوا على هذه الحقوق سوى بعد أن صاروا عماد القوة العسكرية فى فيالق المشاة. أما أدنى طبقات المواطنين ، أى الأجراء فقد حصلوا على حقوق المواطنة الكاملة تقريبا فى أثينا أواخر القرن الخامس ق.م. عندما احتاجت إليهم الدولة للعملة مجذفين بالسفن التى كان رخاء المدينة يعتمد عليها .

وخلال القرنين السابع والسادس ، عندما كانت قوة الأرستقراطية آخذة فى التفكك ، كانت المدن الإغريقية تغلى بمظاهر الاضطراب والصراع الطبقى. وفى خضم هذه الاضطرابات ظهر الطغاه فى عدة أماكن . وكانوا حكاما فرديين ، لكنهم لم يكونوا مستبدين بالضرورة . وفى بعض الأحيان أورثوا أبناءهم الحكم، بيد أن حكم الطغاة نادرا ما كان يستمر أكثر من جيلين أو ثلاثة أجيال . وكان السبب الأساسى فى ذلك راجعا إلى أن الظروف التى أتت بهم كانت تزول بسرعة . وغالبا ما ساهم الطغاة أنفسهم فى عملية سقوطهم بطريقة غير مباشرة . وذلك أنهم كانوا يحطمون قوة الارستقراطية بسياستهم مما ساعد على ظهور المشاة والتجار على حساب الارستقراطيين. وإذ صارت تلك الطبقات أكثر قوة فإنها لم تعد قادرة على تحمل حكم الطغاة بديلا عن السلطة المفوضة دستوريا . وهكذا كان حكم الطغاة الاغريق، فى

الشطر الأكبر منه مرحلة انتقالية قصيرة من الارستقراطية إلى أشكال جديدة من الحكم- أوليجاركية وديموقراطية .

لقد اختلفت أسباب فرض حكم الطغاة من دولة لأخرى، ولكنها ليست مصادفة أن حكم الطغاة ظهر ببلاد الاغريق بعد استخدام المشاة الثقيلة بوقت قصير. فبعض الطغاة ، مثل بيزستراتوس الأثينى، كانوا قادة عسكريين قبل أن يصيروا طغاة . وتكشف الحوادث التى جرت فى كورنثة عن أهمية المشاة الثقيلة وحكم الطغاة فى انهيار القوة الارستقراطية . إذ كانت كورنثة تحت حكم عشيرة باكخيادس (Bacchiads) الارستقراطية . وتحت تأثيرهم تمكنت كورنثة أن تتوسع كثيرا فى تجارتها الغربية فى القرن الثامن ق.م. وقد أسست عشيرة باكخيادس مستعمرتى سيراكيوز وكوركيرا الهامتين فى الغرب؛ كما أن أبناء هذه العشيرة حفزوا التجارة التى انعشت كورنثة وزادت من رخائها. وعلى أية حال ، فإنهم فى أثناء ذلك كانوا يزرعون بذور طبقة جديدة تملك المال ويضعون جرثومة الفناء للمجتمع الزراعى القديم المتوازن . وازدادت مشاعر السخط عندما خان الباكخيادس التوفيق فى سياساتهم الخارجية والاقتصادية عند نهاية القرن الثامن ق.م. وصار حكمهم مقيدا بدرجة أكبر، وسرعان ما أطاح بهم كبسيلوس (Cypselus) ويسجل هيرودوت صعوده إلى السلطة ، ويزخرف روايته بعنصر شعبى نجده أيضا فى قصص كل من برسيوس وقورش وموسى. ذلك أن أم كبسيلوس التى تسمى لابدا (Labda) كانت من عشيرة الباكخيادس وتزوجت من خارج العشيرة ، نظرا لأنها كانت عرجاء بحيث لم تجتذب شباب العشيرة للزواج منها. وعندما ولد كبسيلوس عقد أبناء العشيرة عزمهم على قتله، حسب بعض النبوءات المعاكسة ؛ ولكن أمه خبأته منهم فى صندوق (Kypsele) ، ومن هنا اشتق اسمه . وعندما كبر حصل على السلطة ونصب نفسه طاغية . ومن المحتمل أن المشاة كانوا هم المؤيدين له، على الرغم من أن الدليل على ذلك ضعيف متهالك ، وكان ذلك بمساعدة الأثرياء الجدد. فمن الواضح أنه تقلد منصب قائد الحرب قبل أن يصبح طاغية . هذه الحقيقة والحقيقة القائلة بأنه عندما تولى السلطة لم يكن بحاجة إلى حرس شخصى يجعلنا نفترض أن الجيش كان يؤيده .

وبالنسبة لحال كل من أثينا واسبرطة تتوفر لنا أدلة أكثر على أهمية الطبقات الجديدة والمشاة الثقيلة فى الصراعات الداخلية فى القرنين السابع والسادس ق.م.

إذ أن اسبرطة ، كما رأينا، عمدت إلى تجنب حكم الطغاة بأن أخذت بالنظام الليكورجي. فبعد هزيمتها على يد جارتها أرجوس فى هيساى (Hysae) سنة ٦٦٩ق.م. توقفت مؤقتا عن التوسع فى البلوبونيز١١١، وبعد هذه النكسة بوقت قصير حدثت حركة تمرد كبرى فى أعقاب حروب أهلية ضد أرجوس (Argos) واركاديا (Arcadia) وأيليس (Elis) . وبسبب عدم فاعلية الحكومة الارستقراطية ، والدمار الذى أحدثته الحرب، طالب المشاة الاسبرطيون باعادة توزيع الأرض . وبدلا من الاستجابة لهذا المطلب عمد ليكورجوس إلى زيادة حقوق المشاة السياسية وجعلهم من فئة «المساوين» كما أعاد تنظيم الادارة السياسية والعسكرية باسبرطة . وصار الجيش منذ ذلك الحين فصاعدا مبنيا على أساس المناطق لا على أساس القبائل؛ كما تم تثبيت حجم المجلس وتكونت جمعية تضم تسعة آلاف من المتساوين. وفي بقية أنحاء بلاد الاغريق كان المجلس يقدم للجمعية مقترحات لكى تقرها؛ ولكن فى أسبرطة كان يمكن للمجلس ألا يعير الجمعية اهتماما «إذا ما تحدثت بصوت ملتو» لقد أدى النظام الليكورجى إلى استقرار اسبرطة، وبفضله تمكنت الارستقراطية الاسبرطية أن تحل تلك المشكلة التى أدت إلى ظهور الطغاة فى الدويلات الأخرى . وقد تمكن الارستقراطيون من تحقيق ذلك بتلبية مطالب المشاة وخلق منظمة تستوعبهم . وقد ساعدت الاصلاحات العسكرية ، باعتبارها حلا سلميا للثورة ، اسبرطة فى فرض سيادتها على الدول الأخرى فى القرنين السادس والخامس ق.م. وكان ذلك النظام فعالا أولا من حيث مساعدة اسبرطة فى السيطرة على الأقنان ، بحيث أن التخلى عن ذلك النظام كان يعنى فقد لاكونيا (Laconia) بيد أنه لم يكن نظاما مرنا بالقدر الذى يسمح بالتعديلات المثمرة .

كان الشعور بالتذمر وعدم الرضا بين سكان اسبرطة فى منتصف القرن السابع ق.م. فى أدنى درجاته . ومن المؤكد أن الصراعات على السلطة كانت تحدث ، ولكن لم يحدث فى أى وقت أن نشبت الحرب الأهلية بين المواطنين ، مثلما حدث فى معظم مدن بلاد الإغريق . لقد كانت الحرب الأهلية ستدمر اسبرطة لأنها كانت ستوفر للعبيد الفرصة للقيام بثورة ناجحة . وهكذا كان على المجتمع العسكرى الذى خلقته اسبرطة أن يقف وقفة رجل واحد فى مواجهة خطر العبيد الماثل على الدوام. وبدلا من الحرب الأهلية بين أقسام المجتمع المختلفة عرفت اسبرطة ثورات العبيد. فمع وجود جمهرة من السكان المعادين والمستعبدين ، كان من المستحيل تقريبا تحقيق الانسجام الداخلى، على الرغم من امكانية الحفاظ على الوضع الراهن .

ويقدم لنا الموقف فى أثينا صورة أكثر اكتمالا عن سقوط النفوذ الارستقراطى وصراع الطبقات . ففى أواخر سنة ٦٣٠ق.م . حاول أحد أفراد الأرستقراطية، واسمه كيلون (Cylon) أن يقيم حكم الطغاة فى أثينا بمساعدة والد زوجته طاغية ميجارا (Megara) . وفى ذلك الوقت كانت أثينا ما تزال خاضعة لحكم الارستقراطية (كان يطلق عليهم اسم (Eupatrids) أو ذوى الأصل الطيب) . واستولى كيلون على قلعة أثينا (الاكروبوليس) بمساعدة القوات الميجارية ، بيد أن ميجاكليس (Megacles) شن هجوما مضادا بتأييد شعبى واضح وهزم الغزاة، وأجبرهم على اللجوء إلى معبد أثينا طلبا للحماية . وإذ حصل كيلون ومؤيدوه على وعد بحفظ أرواحهم إذا استسلموا ، تركوا ملجأهم ثم أعدموا . وربما كان فشل كيلون راجعا إلى نقص التأييد الشعبى، مما يوحى بأن مشاعر السخط لم تكن متفشية على نطاق واسع ، ومع هذا فلابد أنه كان هناك بعض الاحتكاك داخل المدينة بحيث فكر كيلون فى القيام بمحاولته . ومن المؤكد أن الصراع الارستقراطى كان موجودا ، لأن الارستقراطيين ترابطوا فى مواجهة ميجاكليس وعشيرته، الألكمايونيين (Alcaeonids) التى قيض لها أن تقدم فى المستقبل عددا من زعماء أثينا الراديكاليين، ومنهم كليستنيز (Cleisthenes) وبريكليس (Pericles) وحصلوا على قرار بنفيهم ، واستنزلوا عليهم لعنات نبوءة دلفى، بحجة أنهم قد أعدموا كيلون. ووفقا لرواية بلوتارخ فإن جثث الالكمايونيين قد أخرجت من القبور ، وألقى بها بعيدا خارج حدود المدينة.

ويلاحظ أرسطو أنه «فيما بعد (أى بعد كيلون) نشبت منازعات أهلية بين النبلاء والشعب على مدى فترة طويلة من الزمان» . وبعد سنوات قليلة من محاولة كيلون لاقامة حكم الطغيان نشر شخص يسمى دراكون (Draco) أول نظام قانونى فى أثينا. ويمكننا أن نستنتج أنه لابد أن ثمة تيارا تحتيا من التذمر كان موجودا قبل ذلك لأن النظم القانونية عادة تستخدم باعتبارها وسيلة لحل المنازعات وتحدد حقوق المواطنين على نحو دقيق . كان هذا هو الحال بالنسبة لألواح روما الأثنى عشر، وكذلك بالنسبة لدستور سولون (Solon) الذى تم وضعه فى أثينا بعد قوانين دراكون بعقود قليلة . ولانعرف سوى القليل عن قوانين دراكون وسوى أنها كسبت شهرتها من قسوتها . ووفقا لرواية بلوتارخ فإنها لم تكتب بالحبر وإنما كتبت بالدم . ويقال أنه عندما سئل دراكون عن السبب فى أنه جعل الاعدام عقوبة لمعظم الجرائم، يقال أن دراكون أجاب

بأن الجرائم الصغرى تستحق عقوبة الاعدام على حين لاتوجد عقوبة أقوى للجرائم الكبرى. وعلى أية حال ، فإن هناك جزءا مستنيرا فى القوانين، هو تمييز دراكون بين القتل العمد والقتل الخطأ .

بحلول سنة ٥٩٤ ق.م. كانت أثينا قد ، وصلت إلى حالة الأزمة . إذ كانت الحرب الأهلية أو حكم الطغاة قاب قوسين أو أدنى. إذ كانت كافة عناصر المجتمع مشتبكة فى منازعات ضد بعضها البعض ؛ الفقراء والأغنياء والمشاة الثقيلة والأرستقراطية. وكانت هناك مشكلتان رئيسيتان تواجهان المدينة ، احداهما اقتصادية والأخرى سياسية . إذ كان الاغنياء الجدد ، وأكثرهم من المشاة الثقيلة يتطلعون إلى الحصول على نصيب أكبر فى السلطة، ويسعون إلى زيادة الحقوق التى منحت للمشاة الثقيلة باعتبارهم جماعة . وبسبب الديون وقع كثير من صغار المزارعين فى حال تشبه العبودية عرفت بمصطلح (hectemorage) كما تحول آخرون إلى عبيد بالفعل . إذ كان على أصحاب السدس أن يقدم سدس محصوله لدائنه ، الذى كان من ملاك الأرض الأثرياء عادة . وإذا فشل فى الوفاء بهذا الالتزام ، كما قد يحدث فى سنة قحط يحتاج فيها إلى محصوله كله ليسد رمق عائلته ، يتعين عليه هو وعائلته أن يتحولوا إلى أرقاء . والزراعة بالمشاركة ، ربما تكون قد ظهرت بسبب القروض الممنوحة إلى صغار المزارعين، وفى الحقيقة أنها كانت معروفة فى عالم البحر المتوسط. فقد كانت تحدث فى مصر على سبيل المثال ، فقد ورد على لسان يوسف فى التوراة أنه قد قال للناس أنه حاز الناس والأرض للفرعون ، واعطاهم البذور لكى يبذروها فى الأرض. وعندما ينضج المحصول عليكم أن تقدموا الخمس للفرعون وتحتفظوا بأربعة أخماس لأنفسكم من أجل البذور والطعام لكم ولأفراد عائلاتكم ولتغذية الأطفال (سفر التكوين : ٤٧) .

وكان المزارع الصغير يقع فى شباك الديون لأسباب عديدة ، أهمها الموقف الاقتصادى المتغير. فقد قضى نمو التجارة فى القرنين الثامن والسابع ق.م. على قواعد الاقتصاد الزراعى الذى كان سائدا فى بلاد الإغريق . وفى القرن السابع ق.م. أُدخلت النقود إلى بلاد الاغريق . وساعد النقد وامكانية تخزين الثروة، كما لاحظنا، على النيل من قوة الارستقراطية ، ولكنهما ساهما أيضا فى وقوع المزارعين الصغار فى الديون. فقد ظل الاغريق يتعاملون بنظام المقايضة حتى القرنين الثامن والسابع ق.م. وعندما

جعلتهم التجارة يتعاملون مع شعوب الشرق الأدنى الأكثر تحضرا عن كثب، كانت المعادن الثمينة ، كالذهب والفضة مستخدمه هناك منذ زمن طويل فى التجارة . ولم تكن حكومات الشرق الأدنى تسك عملات ثابتة ؛ وبدلا من ذلك كان التجار يزنون كميات منها فى كل صفقة. أما الاغريق ، فإنهم فى بعض الأحيان استخدموا عملة حديدية، التى اتخذت شكل أدوات حديدية، مثل الأسلحة أو الحوامل ثلاثية القوائم. وفى وقت لاحق استخدمت الحلقات الحديدية باعتبارها معيار قياسى أكثر ثباتا .

وفى بعض الأوقات كانت الدول المختلفة فى الشرق الأدنى تضمن عيار المعادن الثمينة بيد أنها لم تكن تصدر عملات حتى بدأ أهل ليديا هذه الممارسة فى القرن السابع ق.م. والمفهوم الأساسى وراء اصدار العملة أن الدولة تضمن نقاء وزن العملة عندما تضع خاتمها عليه. وعلى الرغم من أن العملات الأولى لم تكن قد سكت فى بلاد الاغريق حتى الربع الأخير من القرن السابع ق.م، فقد أدى استخدام المعادن الثمينة فى التجارة، والعملة الحديدية البدائية إلى شيوع استخدام العملة بسرعة .

لقد أثر حجم التجارة واستخدام النقد على الظروف الاقتصادية تأثيرا عميقا إذ كانت كل قطاعات المجتمع قادرة على الاستفادة باستثناء المزارع الذى زادت هذه التغيرات من سوء حالته . وقد شجعت الأرستقراطية التجارة التى كون الكثيرون ثرواتهم من خلالها ، كما استطاع ملاك الأرض المتوسطون أن يكونوا ثروات بسبب وجود النقود ، بيد أن معاناة الفقراء، زادت بسبب ارتفاع أثمان المحاصيل لاسيما ما كان منها يجد أسواقا خارجية . ولم يكن بمقدورهم أن يتحولوا ببساطة إلى زراعة تلك المحاصيل التى تدر أفضل العوائد لأنها كانت تحتاج إلى استثمارات معينة. إذ كانت شجرة الزيتون تحتاج إلى اثنتى عشرة سنة حتى تصل إلى درجة النمو الكافية لكى تعطى محصولا ، على حين تحتاج الكروم إلى ثلاث سنوات أو أربع لكى تعطى محصولها . وهكذا لم يكن بوسع المزارع الذى يسد رمقه بالكاد أن يقتطع جزءا من أرضه ليزرعها بهذه المحصولات الجديدة، كما أنه قد يموت جوعا . ومن ثم انقسم المجتمعين إلى فقراء جدا، وأغنياء جدا، وطبقة التجار الجديدة والمشاة ثقيلى التسليح .

فى خضم هذا الاضطراب ظهر سولون . وكان أرستقراطيا أثينيا من عشيرة ميدونتيد (Medontid) الملكية القديمة، بيد أن ولاءه لم يكن مكرسا للأرستقراطية ،

وأمضى شطرا من حياته تاجرا، وفى سنة ٥٩٤ ق.م. جاء إلى السلطة فى أثينا ليقوم بالوساطة . فقد وقف إلى جانب الفقراء فى مواجهة الأرستقراطية بيد أنه لم يكن راديكاليا بأى حال من الأحوال، وإنما كان وطنيا أثينيا يميل إلى الموقف المحافظ المعتدل. ومن حسن حظ المؤرخين أنه كتب قصائد عديدة حول الأزمة ، وحفظ الزمن بعضا منها. وبعد أن قرأ أرسطو القصائد كلها خرج باستنتاج مؤداه أن سولون قد ألقى اللوم بشدة على الأغنياء بسبب تلك الصعاب التى عانت منها أثينا. كما هاجم الأغنياء لجشعهم الذى خلق العبودية فى المدينة وهو ما أشعل نيران الصراع الأهلى وأيقظ الحرب النائمة» . وقد وضع سولون نفسه بين زمرة الفقراء وهو ما يتضح من شعره : «كثير من السفلة أغنياء ، كما أن نبلاء كثيرون يشكون الفقر، ولكننا لن نستبدل فضائلنا بثروتهم».

وباعتباره وسيطا بين الأطراف المتنازعة ومشرعا قانونيا قام سولون باصلاحاته الاقتصادية والاجتماعية والسياسية وكانت المشكلة الأولى التى واجهته تتمثل فى الفلاحين الذين تحولوا إلى شبه أقنان وفى مرسوم «التخلص من الأعباء» (Seisachteia) ألغى سولون ديونهم ، ومنع أن تكون القروض بعد ذلك بضمان الشخص وألغى نظام الرهن . كما اشترى الآثينيين الذين بيعوا عبيدا فى الخارج وأعادهم إلى أثينا. ولقد تباهى سولون نفسه بأنه حرر الأرض حين انتزع منها العلامات (horoi) التى كانت توضح أن الأرض توضع بها مرهونة .

ولم يكن بوسع سولون أن يلغى كافة الديون فى اصلاحاته . لأنه لو فعل ذلك لكن قد حطم البنية الاقتصادية للمجتمع الأثينى. وقد خفض الدين بالقدر الذى يناسب الحياة اليومية. كانت النقود قد أدخلت لتوها ولم تكن الوحدات النقدية الصغيرة اللازمة للتعامل اليومى موجودة بالفعل آنذاك . وتعين على الفلاح الذى يشترى جرة من بائع الفخار أن يدفع مقابلها بعض البضائع أو الحلقات الحديدية؛ إذ لم يكن يسمح له بأن يشترى بالأجل. وربما كانت الديون الكبرى تتخذ شكلين أساسيين ؛ الرهونات على الأرض، والديون المرتبطة بالسفن . وعادة ما كان الارستقراطيون يعملون فى التجارة مستثمرين بدلا من العمل تجارا أفراد. ولم تكن القروض بضمان السفينة كما رأينا ، وكانت الديون المعتادة تأتى فى سياق العمل التجارى. وقد أراد سولون على نحو خاص

أن يشجع التجارة، وتجلت رغبته تلك فى أجزاء من تشريعاته مثل منح حقوق المواطنة الكاملة للحرفيين الأجانب إذا ما هاجروا إلى أثينا. ولدينا الدليل على أن أحد صانعى الفخار الكورنثيين قد استغل هذا العرض وبذلك أعطى دفعة جديدة لصناعة الفخار الآثينية. وأدخل سولون تعديلات على الأوزان ونظام العملة ونظم التصدير والاستيراد، لاسيما بمنع تصدير أية حاصلات زراعية باستثناء الزيت. وكان زيت الزيتون يحظى بمكانة وأهمية خاصة فى حوض البحر المتوسط ، حيث كانت الشحوم الحيوانية نادرة . كما استخدم وقودا للمصابيح وهكذا ، فإن تنشيط سولون للتجارة يكشف عن أن مرسوم «التخلص من الأعباء» كان قاصرا على ديون الأرض الزراعية .

وعلى الرغم من أننا لانملك دليلا مباشرا على وجود حركة قوية من أجل الحصول على حقوق المواطنة ، فإن اصلاحات سولون الدستورية تكشف عن أن جزءا من الأزمة كان راجعا إلى الحاجة إلى حقوق المواطنة الكاملة والقدرة على المشاركة فى الحكم. ومن أهم سمات قوانين سولون فى هذا المجال تقسيم المواطنين إلى أربع طبقات : أصحاب الخمسمائة مكيال (Pentakosiomedmonoi) والفرسان (Hippeis) والحرفيون (Zeugitai) والأجراء (Thetes) وبما أن استخدام الفرسان كان قليلا للغاية ، فإن الفرسان لم يكونوا فرسانا سوى بالاسم وحده حقا. وعادة ما كانوا يخدمون باعتبارهم مشاة إلى جانب الحرفيين الذين كانوا يشكلون غالبية مجموعة المشاة . وقد كتب أرسطو يقول أن الفوارق بين الطبقات قد أرسيت طبقا لدخل الرجل الذى يحصل عليه من ملكيته، وهى حسب الترتيب خمسمائة ، وثلاثمائة ، ومائتى مكيال (medimnoi) من المحصول جافا كان أو سائلا من الطبقات العليات الثلاث . وكانت تلك تقديرات تقريبية حيث أن المحصول كان يمكن أن يختلف من عام لآخر . وبذلك كان من المستحيل اعادة تقييم وضع الأفراد سنويا. وكان لابد من وضع الثروة الناجمة عن التجارة أو أية ثروة مادية أخرى غير مرتبطة بالأرض فى الأعتبار. إذ لم يكن فى نية سولون أن يعرقل التجارة بحرمان أولئك الذين كونوا ثرواتهم من خلالها من الحصول على وضعهم الطبقى والاجتماعى الملائم.

وتتمثل أهمية الإصلاح فى ربط الحقوق بالمكانة الطبقية إذا كان جميع الذين ينتمون إلى طبقة أصحاب الخمسمائة مكيال أهلا لأن يصيروا من كبار الموظفين ، مثل

الأرخون وأمين الصندوق ، بغض النظر عن مولدهم . فقد زالت سيطرة الارستقراطية على الحكم على الرغم من عدم زوال سيادتها . إذ حصلت الطبقة الجديدة من الأغنياء غير الارستقراطيين، على نصيبها في الحكم، وباستثناء وظيفة الأرخون وأمين الصندوق ، كانت الوظائف العليا مفتوحة أمام الفرسان أيضا. وقد سمح سولون لأبناء طبقة الحرفيين بتولى الوظائف الأدنى على حين أتاح الفرصة أمام الأجراء لكى يصبحوا أعضاء فى الجمعية العمومية . وبما أنه كان من مهام المجلس انتخاب الموظفين، فقد كان للأجراء حق التصويت حتى فى اختيار رئيس الدولة، على الرغم من أنهم أنفسهم لهم حق التقدم للمنصب .

ويقال أن سولون أنشأ مجلس الأربعمائة وكان يتكون من مائة من كل قبيلة . وربما كان المائة من الطبقات الثلاث العليا . وكانت مهمة ذلك المجلس الجديد تشريعية ، إذ كان يجهز القوانين لكى يتم التصويت فى المجلس، أو فى الجمعية العمومية. وبانشاء هذا المجلس الجديد قلص سولون سلطة المجلس الأرستقراطى **(Areopagus)** الذى كان يتألف من الأرخونات السابقين. إذ كان بمقدور الأثرياء الجدد تولى منصب الأرخون (الحاكم) ، فقد صار بامكانهم بالتالى أن يصبحوا أعضاء فى المجلس الارستقراطى (الاريوباجوس) . ولكن فى سنة ٥٩٤ق.م. كان هذا المجلس يتألف بكامله من الارستقراطيين القدامى، إذ كان لابد أن تمضى سنوات كثيرة حتى يحظى الأثرياء الجدد بالتمثيل الكافى فى هذا المجلس، لاسيما وأن العضوية كانت لمدى الحياة، وربما لم يكن هناك من ألأغنياء الجدد من يتم انتخابه سنويا .

لقد أمكن حل المشكلات الاقتصادية والسياسية المماثلة ، والصراعات الطبقية التى أعقبتها ، فى دويلات أخرى من خلال حكم الطغاة. ولم يحدث مثل هذا التحول فى الأحداث فى أثينا بسبب مهارة سولون الادارية ، وبسبب عدم رغبته هو شخصيا فى أن يصبح طاغية. وهو يعلق على ذلك فى أشعاره . فعلى الرغم من أن بعض الفئات كانت تحثه على أن يصير طاغية فقد رفض «لأننى إذا أمسكت بزمام السلطة، وحصلت على ثروة لاتحصى، ثم صرت طاغية فى أثينا ولو ليوم واحد، تعين على أكون مستعدا أن يسلخ جلدى من أجل زق خمر، وأن تمسح عائلتى من الوجود». ولابد أن أكثر طبقة كانت تلح عليه أن يسلك هذا السبيل هى طبقة الفرسان إذ كان الأجراء راضين إلى

حد ما، لأن نظام الاسترقاق بالدين كان قد ألغى. كما أن العامة الأغنياء كانوا قد حصلوا على نصيب فى الحكم باعتبارهم من طبقة الخمسمائة مكيال أو من طبقة الفرسان . أما الحرفيين الذين كانوا الأقل ثراءً من طبقة الفرسان ، فكانت مكاسبهم هى الأدنى ، على الرغم من أنه كان هناك قدر من الاضطراب يسرى بين جميع الطبقات لأن الطبقات الدنيا أحست أن سولون لم يذهب فى اصلاحاته إلى المدى المناسب، على حين شعرت الطبقات العليا أنه ذهب إلى أبعد مما ينبغى .

هكذا حلت اصلاحات سولون الاقتصادية والسياسية الأزمة فى أثينا دونما حرب أهلية أو حكم الطغاة – بيد أن هذا لم يكن سوى حل مؤقت، لأنه.فى غضون ثلاثين سنة نشب النزاع من جديد، وفى هذه المرة تمثلت فى حكم الطغاة . والسبب فى أن اصلاحات سولون أحرزت نجاحا مؤقتا فقط هو فشله فى تحطيم قوة الارستقراطية القديمة. وعلى الرغم من أن الأثرياء الجدد قد حازوا الاعتراف بحقهم فى تولى المناصب العليا، فإن الارستقراطية القديمة كانت ما تزال ممسكة بزمام معظم قوتها القديمة. إذ ظلت مسيطرة على التنظيمات القبلية والدينية، كما امتلكت معظم النفوذ السياسى. وكان النموج السائد فى بلاد الاغريق يناسب ظهور طاغية يؤيده الأثرياء الجدد والمشاة الثقيلة ، وأن يضع نفسه فى مواجهة الارستقراطية القديمة، التى سرعان ما تنهار سلطتها وتتلاشى. ولكى يحدث الشئ نفسه فى أثينا كان لابد من وجود طاغية . وكان هذا الرجل هو بيزستراتوس (Pisistratus) الذى سحق سلطة الارستقراطية القديمة القائمة على ملكية الأرض، وبذلك مهد الطريق لقيام الديموقراطية تحت حكم كليستينيز (Cleisthenes) .

وإذا تم سن قوانين سولون ، رحل هو عن أثينا ليسافر على مدى عشر سنوات ، بعد أن جعل الأثينين يقسمون على عدم اجراء أى تغيير فى القانون أثناء غيابه. ويقول أرسطو «لم يشأ أن يفسر القوانين بنفسه... ولكن كان على كل مواطن أن يطيع القوانين حسب صياغتها المكتوبة» وقد نشبت منازعات صغيرة عقب ذلك مباشرة، ربما بسبب معارضة الارستقراطية للتقسيم الطبقى الجديد. ومن بين السنوات الخمس عشر التالية كانت هناك سنتان ليس فيهما حاكم (أرخون) ، وتولى رجل واحد، هو داماسياس (Damasias) الحكم بطريقة غير شرعية على مدى عامين من سنة ٥٨٢

إلى سنة ٥٨٠ق.م. وعندما تمت الاطاحة بداماسياس تم التوصل إلى حل وسط لاقتسام السلطة بين النبلاء وغير النبلاء .

وعلى أية حال، فإن الارستقراطيين قد منعوا أى انتقاص آخر من سلطتهم، وبحلول ستينيات القرن السادس ق.م. كان هناك حزبان كبيران بارزان فى الصراع من أجل السلطة ، حزب السهل الارستقراطى الذى يقوده ليكورجوس (Lycurgus) ، والحزب الارستقراطى الساحلى الأكثر اعتدالا ، ويقوده ميجاكليس (Megacles) من عشيرة الكمايونيد. ووفقا لرواية هرودوت ، كون بيزسستراتوس آنذاك حزبا ثالثا باسم (hyperakrioi) أى «رجال ما وراء التل» ، بهدف أن يجعل نفسه طاغية . وكانت تمتلك بيزسستراتوس رغبة جارفة فى أن يصير طاغية . وقد تطلب الأمر منه أن يقوم بثلاث محاولات قبل أن ينجح فى تنصيب نفسه. وقد حدثت محاولته الأولى سنة ٥٦١ق.م. فقد جرح نفسه، وأدعى أن أعداءه هاجموه وبذلك أقنع الجمعية العمومية بأن تسمح له باصطحاب حرس خاص، وعلى الرغم من أنهم كانوا مسلحين، بالهراوات فقط، فقد أثبتوا كفاءتهم وقوتهم بحيث مكنوه من الاستيلاء على الاكروبول وتنصيب نفسه طاغية .

هذا التصرف حفز كلا من ميجاكليس وليكورجوس على توحيد قواهما لطرده. وعلى أية حال، فقد انهار التحالف المؤقت بين ميجاكليس وليكورجوس عند خروج بيزبستراتوس ، وتجدد النزاع بينهما. وإذ خاف ميجاكليس الهزيمة، تحالف مع عدوه الحالى بيزستراتوس ودبر مؤامرة لكى يعيده إلى الحكم طاغية . وتبدوا خطتهما ساذجة ، بيد أن نجاحها يوضح أنهما كانا يفهمان الأثينيين وعقليتهم أحسن من فهم هيرودوت ، الذى كان ميالا إلى الشك فى بلاهة الشعب الأثينى فى هذه المسألة ، إذا ما كانت القصة حقيقية برمتها . إذ يقال أن فتاة طويلة بشكل غير عادى اسمها فيا (Phya) ارتدت ثوبا مثل الربة أثينا ، وقادت بيزستراتوس مرة أخرى إلى الاكروبول ، على حين أعلن أتباعه أن الربة أثينا بنفسها هى التى أعادت بيزستراتوس إلى السلطة. وربما لم يكن الأثينيون على هذا القدر من السذاجة الذى تخيله هيرودوت . فلاشك فى أن التحالف بين قوات بيزستراتوس وميجاكليس كان كافيا وحده لاستعادة السلطة لبيزاستراتوس . إذ أن التحالف بين بيزستراتوس وميجاكليس قد توج بزواج ابنه

ميجاكليس لبيزاستراتوس ، بيد أن هذا الزواج لم يلبث أن فشل . وسواء لأن بيزستراتوس أراد أن يتحاشى انجاب أولاد، أو بسبب نزعاته غير الطبيعية، فإنه كان يعاشر زوجته «بعكس المعتاد» وعندما اكتشف أبوها هذا الأمر، انهار التحالف الهش بين بيزستراتوس وميجاكليس ووجد الأول نفسه فى المنفى مرة أخرى .

فى هذه المرة لجأ بيزستراتوس إلى تأسيس مركزه على أسس أكثر ثباتا ولم يخرج للسفر أبدا. واستخدم اريتريا (Ertria) قاعدة له وأمضى السنوات العشر التالية فى تدعيم قوته بحيازة الثروة من مناجم الفضة التراقية ، وفى ضمان الدعم من حلفاء خارجيين، لاسيما من آرجوس حيث تزوج زوجته الثانية) . وحوالى سنة ٥٤٦ق.م أرسى بالقرب من ماراثون على رأس جيش من الجنوب الأجانب، ومعظمهم من المرتزقة . ثم انضم إليه مؤيدوه من أثينا ، وخاض معركة ظافرة فى باللينى (Pallene) مكنته من أن ينصب نفسه طاغية مرة أخرى. كانت الفترة الباقية من عهده فترة ناجحة ساد فيها السلام؛ ونجح سياسيا واقتصاديا. ومات سنة ٥٢٧ ق.م. وخلفه ابناه هيبياس (Hippias) وهيبارخوس (Hipparchis) اللذان حكما باعتدال حتى اغتيال هيبارخوس سنة ٥١٤ ق.م. على يدى هارموديوس (Harmadius) وأرسطوجيتون.(Aristogiton) ومن بعدها صار حكم هيبياس أكثر قسوة ، وفى سنة ٥١٠ ق.م. تم طرده على يد عشيرة الكمايونيد بمساعدة اسبرطة .

إن مفتاح سر الصراع الأهلى الذى جاء بيزستراتوس إلى السلطة يكمن فى فشل تشريعات سولون واصلاحاته فى الاستمرار وفى طبيعة الأحزاب السياسية الثلاثة. وكون ميجاكليس استطاع أن يتحالف مع ليكورجوس أولا ثم مع بيزستراتوس بعد ذلك، على حين لم يتحد ليكورجوس وبيزستراتوس أبدا، يوحى بأن ميجالكيس كان يقود الحزب المعتدل ، على حين يمثل ليكورجوس وبيزستراتوس التطرف يمينا ويسارا على التوالى. ووفقا لرواية أرسطو كان حزب ليكورجوس من الأوليجاركية، كما أن ميجاكليس كان معتدلا، على حين حاز بيزستراتوس على تأييد الشعب. وربما كانت للأحزاب الثلاثة بعض الروابط الإقليمية ، كما يتضح من أسمائها . فحزب السهل يفترض عادة أنه كان يتألف من الأرستقراطيين القدامى من ملاك الأراضى . لاسيما وأنه من المحتمل أن ليكورجوس نفسه كان سليل احدى العائلات الارستقراطية القديمة.

ويعتبر «حزب الساحل» حزب الطبقة التجارية و«محدثي النعمة» ، على حين كان «حزب رجال الجبل» يمثل صغار المزارعين وفقراء سكان المدن ، وربما تكون أسماء الأحزاب قد ظهرت بسبب التأييد المحلي للزعماء في هذه المناطق . إذ أن بيزستراتوس نفسه جاء من براورون (Brauron) على مسافة من المدينة ، ولكن معظم قوته جاءت من بين عامة المدينة. وكانت الارستقراطية القديمة منتشرة في سائر أنحاء الريف ولم تكن محصورة في نطاق السهل، وكذلك لم يكن الأثرياء الجدد مرتبطين بالساحل وحده.

وحتى ظهور بيزاستراتوس ، ظل الصراع محصورا بين حزب الساحل الذى يمثل أولئك الذين حازوا حقوق المواطنة من وقت قريب، وحزب السهل الذى يمثل ارستقراطية ملاك الأرض القدماء. وربما كان بيزستراتوس يمثل طبقة المشاة ثقيلى التسليح وكذلك المزارعين الفقراء وعامة سكان المدينة . وشأن بعض الطغاة الآخرين كانت له ارتباطات عسكرية . وقبل أن يتولى السلطة كان قائدا في الحرب ضد الميجاريين واستولى على مينائهم نيسايا (Nisaea) وعندما تولى السلطة أولا بالقوة لم يجد أية معارضة مسلحة على ما يبدو، وهو مؤشر على أنه كان مؤيدا من المشاة الثقيلة، أو على الأقل حظى باعترافهم. وكانت عودته إلى حكم الطغاة فى المرة الثانية مشابهة للمرة الأولى فلم يواجه أية مقاومة مسلحة، على حين أنه عند توليه الحكم للمرة الثالثة خرج أتباعه من أثينا لكى يقاتلوا معه. وكانت معركة بالينى (Pallene) معركة من جانب واحد بما يوحي بأنه حصل على مساعدة من جانب المشاة الأثينيين لقواته المرتزقة. ومن ناحية أخرى، فإنه لو لم يكن بيزستراتوس قد حاز ولاء المشاة الثقيلة لتم طرده من البداية. ووفقا للمصادر القديمة فإن الفقراء وعامة المدينة، ومعهم المحرومون من حقوق المواطنة وأولئك الذين لم يستفيدوا من اصلاحات سولون ، كانوا هم الذين أيدوا بيزستراتوس .

كان ميجاكليس زعيم حزب السهل، أحد أفراد عشيرة الكمايونيد، وهو ارستقراطى، بيد أن ميوله كانت ليبرالية تقليدية قوية . كان جده الذى حمل نفس الاسم هو الذى تصدى لمحاولة كيلون اقامة حكم الطغاة . وقد تزوج ميجاكليس اجاريستى (Agariste) من سيكيون (Sicyon) وأنجب أبنا أسماه كليستينيز على اسم صهره . وقيض لكليستينيز هذا أن يكون التحررى الكبير الذى أسس الحكم

الديموقراطى بعد طرد هيبياس، ابن بيزستراتوس . وكان حزب ميجاكليس يتكون من التجار الأثرياء، وأفراد الطبقة التجارية والأثرياء الجدد الذى منحهم سولون حق المواطنة. وحتى ظهور بيزستراتوس على المسرح كان نضالهم موجها ضد ملاك الأرض من أبناء الأرستقراطية القديمة، ولاشك فى أن بيزستراتوس أخذ عناصر الجناح اليسارى فى حزب ميجاكليس عندما أنشأ حزبه الجديد.

وعندما تولى بيزستراتوس الحكم لم يغير دستور سولون . إذ كان جنوده المرتزقة يضمنون له الحكم، واحتفظ بالسلطة عن طريق توزيع المناصب السياسية على أتباعه. واتبع ابنه نفس الطريقة ، عندما وضع مؤيديه السياسيين فى منصب الأرخون، وقد بقيت قائمة بأسماء من تولوا منصب الأرخون من سنة ٥٢٨ إلى ٥٢١ ق.م. وقد مات بيزستراتوس سنة ٥٢٧ / ٥٢٨ ق.م ، وفى سنة ٥٢٦-٥٢٥ ق.م. تولى ابنه هيبياس منصب الأرخون . ثم تلاه كليستينيز ، ثم ميلتيايديس (Myltiades) ، ثم كاليايديس (Calliades) ثم ابن هيبياس الذى حمل اسم بيزستراتوس ، وكان بيزستراتوس مواطنا عاديا فى الظاهر . لدرجة أنه مثل مرة أمام الايروباجوس بتهمة القتل؛ ولكن ما أن ظهر الطاغية بنفسه أمام المجلس ليدافع عن نفسه أختفى الرجل الذى رفع الدعوى لسبب غير معروف .

وعندما استعاد بيزستراتوس السلطة فى أثينا بعد معركة بالينى سنة ٥٤٦ ق.م، كانت المدينة قد عانت على مدى خمسة وعشرين عاما من الصراع الحزبى والأهلى. وعمل بيزستراتوس فى الحال على استرضاء كافة الأحزاب ونجح فى ذلك بمهارة . وحسب رواية ارسطو «كانت غالبية النبلاء والعامة على السواء مؤيدين . فقد كسب النبلاء بالدبلوماسية وكسب العامة عن طريق المساعدات التى منحها لهم فى أمورهم الخاصة ؛ وبرهن على الدوام أنه كان منصفا لكليهما».

وقد عول على مساعدة المزارع الصغير والمعدمين من أهل المدن. فقد كانت الضرائب على الانتاج الزراعى تتراوح ما بين ٥ , ١٠٪ وقد أعاد جزءا من النقود إلى الفلاح الصغير فى شكل قروض ، ربما لكى يساعدهم على التحول من انتاج القمح إلى

زراعة الكروم والزيتون . وقد حولت قروض الدولة لصغار الفلاحين التزامات هؤلاء الأولية من النبلاء الذين كانوا يقترضون منهم سابقا ، إلى الدولة. كما أن ضرائب الانتاج وفرت للدولة مصدرا ثابتا للدخل أعيد توجيه الشطر الأكبر منه داخل العملية الاقتصادية على شكل أعمال عامة ، مثل بناء المعابد والنافورات وقد ساعد برنامج بيزستراتوس البناء، بما فى ذلك بناء معبد أثينا بارثينوس(*) (Athena Parthenos) فوق الاكروبول ، وبداية تشييد معبد زيوس الأوليمبى الكبير، واقامة مجمع النافورات المعروف باسم «الينابيع التسعة (Enneakrounos) . كلها ساعدت على جعل أثينا مركز أتيكا، كما ساعد فى الوقت نفسه على نشر الثروة الجديدة وتوزيعها بين السكان بتوفير فرص عمل ثابتة للعمال المهرة والعمال غير المهرة لاسيما من أفراد الطبقة الفقيرة بين سكان المدن.

وبنهاية القرن السادس ق.م. وبداية القرن الخامس ، كان الفلاح الأتيكى يزرع أولا الكروم والزيتون وكان يعيش فى بحبوحة معقولة، وهو موقف يعود الفضل فيه إلى بيزستراتوس إلى حد كبير. وعندما تناقصت امدادات الحبوب المحلية، اضطر بيزستراتوس أن يزيد من السيطرة الأثينية على الحبوب الأجنبية . ولكى يؤمن استمرار امدادات الحبوب من انتاج اقليم البحر الأسود ، قام بيزستراتوس فى البداية بدعم ليجداميس (Lygdamis) فى سعيه لاقامة حكم الطغاة فى جزيرة ناكسوس (Naxos) ، ثم استولى على سيجيوم (Sigeum) وجعل ابنه هيجسستراتوس (Hegesistratis) حاكما عليها، على حين قام ابنه الأكبر ماليتياديس باحتلال خرسونيس فى تراقيا، وبهذا مكن أثينا من السيطرة الفعالة على مضيق الدردنيل وطرق الملاحة فى البحر الأسود .

(*) معبد البارثينون Parthenon :

بدأت خطة بركليس الطموح لبناء البارثينون فى عام ٤٤٧ ق.م. واكتمل بناؤه بعد عشرة أعوام فقط خلال أعياد الباناثينايا ، تكريما للربه أثينا حامية المدينة. ويتكون معبد البارثينون من بهوين ملتصقين من الخلف ، وكان البهو المواجه للشرق والمسمى بالخلوة يحوى تمثال أثينا العذراء (Athena Parthenos) الذى نحته ميدياس من الذهب والعاج والجزء الأخر كان يضم الخزانة أو بيت المال الخاص بالمدينة وحلفائها، والذى كان يحتوى على سبائك الذهب والفضة والأحجار الكريمة والآلات الموسيقية وغنائم الحرب من أسلحة ودروع . وقد شيد البارثينون من الرخام الأبيض باستثناء بعض أجزائه مثل السقف الخشبى الذى يحمل القراميد وكذا الأبواب باطاراتها .

وعلى العموم كان بيزستراتوس حريصا على رضاء النبلاء طوال عهده . وعلى الرغم من أنه أخذ رهائن من بعضهم ، وهم الرهائن الذين أرسلهم إلى ليجداميس ضمانا للسلامة ، وعلى الرغم من أنه صادر أراضى بعض خصومه الذين كانوا قد ماتوا فى بالينى والبعض الآخر ممن نفاهم ، فإن طريقته الأساسية فى كسر قوة الارستقراطية من ملاك الأراضى لم تكن تتمثل فى مصادرة الأراضى أو التخويف ، ولكن تمثلت فى الحكومة المركزية ، وهو ما أنجزه فى نواحى كثيرة، قانونية . ومالية، ودينية وسياسية. إذ أنه حرم العشائر من بعض امتيازاتها، مثل حق سك النقود، وفى الوقت نفسه حسن العملة وزاد من كمية النقود المتداولة. كما أنه عين قضاة محليين وقام بنفسه برحلات تفتيشية ، وبذلك قلص السلطة التشريعية للعشائر.

لقد حاول بيزستراتوس أن يوحد الدولة من خلال الدين. فقد رعى عبادة ديميتر (Demeter) وديونيسوس (Dionysus) وأثينا (Athena) . وكان هو أول من بنى التليسترين (Telesterion) فى أليوسيس، مركز ديانة الأسرار. كما أنه طهر معبد أبوللو (Apollo) فى ديلوس بيد أن أهم ما فعله هو تطوير الباناثينايا (Panathenaea)(*) إلى مهرجان دينى رئيسى وبدأ عمل عيد الديونيسيا وقد حاول بيزسستراتوس أن جعل البانثينايا، الذى يتم الاحتفال به كل أربع سنوات تمجيدا للربة أثينا، منافسا للمهرجانات الاغريقية فى منطقة الأوليمبى، وفى كورنثه ودلفى. وكان هذا المهرجان موردا للمال إلى المدينة، كما جلب الزوار الأجانب الذين يحتاجون للطعام والسكن . وكانت جوائز المسابقات من الأوانى المزخرفة سببا فى رواج تجارة الفخار كما لعبت دور الدعاية للبضائع الأثينية فى الخارج. وكانت أشعار هوميروس تحكى فى المهرجان ، بل أن هناك قصة، ربما كانت زائفة عن أن بيزستراتوس قام بتنقيح للألياذة والأوديسة . وكان عيد الديونيسيا مواتيا لأهداف بيزستراتوس فى التوفيق بين مختلف عناصر السكان. لقد كان ديونيسيوس إلها زراعيا للخمر، والموسيقى والخصوبة ، وكان هذا العيد السنوى المكرس له يساعد على سد الفجوة بين العناصر الريفية والعناصر

(*) عيد الباناثينايا Panathenaea :

عيد يقام كل أربع سنوات تكريما للربة أثينا ، الربة الحامية لمدينة أثينا، وكان يحتشد موكب ضخم زاخر بهذه المناسبة السعيدة، تربط الناس جميعا خلاله وحدة قوية قوامها اجلال ارباب السماء وتمجيد الوطن .

الحضرية بين السكان. كذلك ساهم المهرجان فى تطوير التراجيديا الاغريقية، إذ كان الكورس عادة ينشدون فى المهرجان . وفى سنة ٥٣٤ ق.م. كتب ثسبس (Thespis) مسرحية للمهرجان قدمت ممثلا يسانده الكورس. وفى غضون سبعين سنة كان ايسخولوس وسوفوكليس يكتبان مسرحياتهما العظيمة .

ودعا بيزستراتوس وابنه الحرفيين إلى أثينا وخلقا مواطنين جدد من بين صفوفهم ، كما أسبغا حقوق المواطنة على مؤيديهما . كذلك استخدم طغاة اغريق آخرون منح المواطنة باعتبارها وسيلة لتقوية سلطتهم . ويقال أن جيلون (Gelon) حاكم سيراكيوز قد أعطى حقوق المواطنة السيراكيوزية لأكثر من عشرة آلاف من المرتزقة العاملين فى خدمته ، وربما يكون بيزستراتوس قد منح حقوق المواطنة الكاملة لبعض الأجانب والأثينيين الأصليين الذين كانت لهم حقوق جزئية أو لم تكن لهم حقوق مواطنة على الاطلاق . وقد أدى ادخال مواطنين جدد إلى المزيد من انهيار سلطة الارستقراطية القديمة الممثلة فى العشائر ، لأن حقوق المواطنة كانت مشروطة بالانتماء إلى أحد العشائر فيما قبل. وكان لابد من جعل المواطنين الجدد أعضاء فى عشيرة ما. وقد أدى هذا بالضرورة إلى تقليص تضامن العشيرة . ولأن الأرستقراطيين القدماء كانوا يسيطرون على العشائر ، فإن التقليل من شأن العشائر أدى بالضرورة إلى تقليص نفوذ الارستقراطية وسلطتها . وجد بيزستراتوس أثينا مدينة صغيرة؛ ولكنها تركها مدينة عالمية كبرى. وبينما قضى الرخاء الجديد والمركزية على سلطة الأرستقراطية القديمة مالكة الأرض تماما أو كاد، فإنه ساهم فى زيادة سلطة الأثرياء الجدد وأهميتهم السياسية ، كما زاد من سلطة المشاة الثقيلة والطبقات الدنيا إلى حد ما . وخلال حكم الطغاة توقف الصراع الطبقى تماما. إذ أن مجرد وجود الطاغية كان يعنى أن المنازعات بين العشائر الارستقراطية قد انتهت . وكان بيزستراتوس يؤيد الطبقات الدنيا ومن ثم لم تكن لديها أسباب هامة لمعارضة نظامه. وكان تيار المتاعب الخفى الوحيد يتمثل فى معارضة الارستقراطية لحكم الطغاة . وعلى أية حال ، فإنه عند نهاية حكم الطغاة حدث استقطاب سياسى بين اليمين ممثلا فى الأوليجاركيين، واليسار ممثلا فى الديموقراطيين . ومثلما يحدث فى مجتمعات كثيرة، فعندما أضمحلت الارستقراطية القديمة القائمة على الميلاد تداخلت مع الأثرياء الجدد من غير النبلاء.

وهذان سويا مع الشطر الأكثر ثراء من المشاة الثقيلة شكلوا قلب الأوليجاركية، وكان الديموقراطيون يتشكلون عادة من الفقراء، وملاك المساحات المتوسطة من الأراضى ، والأعضاء الأقل نجاحا من طبقات التجار والمشاة الثقيلة.

وعلى أية حال، فغالبا ما كان يحدث أن يتحالف أفراد من الطبقة الأرستقراطية مع الطبقات الأقل ومع الأحزاب الديموقراطية، فيعتنقون فلسفتهم السياسية ويصبحون زعماء لهم. وأكثر زعماء الديموقراطيين قوة فى أثينا القرن الخامس غالبا ما كانوا من الأرستقراطيين بالمولد والطبقة، مثل بريكليس (Pericles) والكيبياديس (Alcibiades) . وفى بعض الأحيان كان يتم شراء التأييد الشعبى بوسائل مثل الاسراف فى تقديم الكورس فى المهرجانات من قبل الارستقراطيين سواء كانوا من ذوى الميول الأوليجاركية أو من أصحاب الاتجاهات الديموقراطية . ولكن حتى على الرغم من أن الأفراد الأرستقراطيين كانوا ما يزالون قادرين على السيطرة على الدولة سياسيا من هذا الطريق ، سواء كانوا من الأوليجاركية أو الديموقراطية ، فإن قبضتهم القوية على السلطة كانت قد ولت إلى غير رجعة ؛ إذ كان من الممكن أن يسقطوا من علياء السلطة تحت نزوات العامة. بل أن رجل الدولة العظيم بركليس قد حوكم وأدين بتهم ملفقة وطرد من منصبه سنة ٤٣٠ ق.م. لأن الأثينيين كانوا غير راضين عن تطورات حرب البلوبونيز . وعلى مدى القرن التالى لحكم بيزسستراتوس كان الصراع فى أثينا حول مسألة من يستحق حقوق المواطنة الكاملة، وهو ما كان يعنى فى التحليل الأخير من له حق الحكم . وكان الديموقراطيون فى جانب والأوليجاركيون فى الجانب الآخر.

كان حكم الطغاة بمثابة مرحلة انتقالية من حكم الأرستقراطية القديمة فى بلاد الاغريق إلى الدساتير الجديدة فى الفترة الكلاسيكية ، أى الديموقراطية والأوليجاركية. وقد تحولت المنافسة الكبرى ثم الحرب بين أثينا واسبرطة إلى صدام ايديولوجى بين الأوليجاركية والديموقراطية تورطت فيه معظم بلاد الإغريق . وقد بدأ الصراع الداخلى بين النظم فى أثينا مع سقوط الطاغية هيبياس ، واستمر خلال القرن الرابع ق.م. وكانت الحكومة فى كل من أثينا واسبرطة من أكثر نظم الحكم استقرارا . وقد عانت أثينا من ثلاث فترات حكمت فيها حكومات الأقلية (الأوليجاركية) فى الفترات من ٥١٠-٥٠٨ ق.م ، ومن ٤١١-٤١٠ق.م ، على حين بقيت اسبرطة أوليجاركية دائما .

وعلى أية حال ، فإن الدويلات الأصغر لم يكن لها مثل هذا الحظ، لاسيما أثناء حرب البلوبونيز ، لأن كلا من أثينا واسبرطة كانت تفرض الديموقراطية والأوليجاركية على الدول التي تنجح في السيطرة عليها .

الصراع بين الأوليجاركية والديموقراطية :

لقد شهد القرن الخامس أكبر فترة من التمزق الداخلي والحرب الأهلية في المدن الدول ببلاد الاغريق . إذ حاول الأوليجاركيون تقييد حقوق المواطنة في نطاق الأقلية، على حين حاول الديموقراطيون أن يمدوها إلى قطاع أعرض من السكان. وكانت كل من الأوليجاركية والديموقراطية متشابهتين من حيث أن كليهما قيدت حقوق المواطنة ومن حيث أن الدولة كانت تحت حكم من يملكون حقوق المواطنة الكاملة. بيد أن الأوليجاركية كانت أشد تقييدا وأقامت معاييرها على أساس الثروة وملكية الأرض. وعلى كل حال، فإن الديموقراطية أيضا كانت تستطيع حرمان البعض من حقوق المواطنة الكاملة على أساس الثروة ؛ في أثينا ، مثلا كان أفراد طبقة الحرفيين محرومين من تولي المناصب العليا حتى منتصف القرن الخامس ق.م، وكان كل من النظامين يستبعد الأجانب العبيد المُحررين من المواطنة ، وكان يمنح حقوق المواطنة الجزئية فقط لمن لا أرض لهم في بعض الأوقات وللنساء والأطفال في كل الأحيان.

وعلى الرغم من أنه لايمكن تقسيم الديموقراطيين والأوليجاركيين ببساطة على أساس خطوط بسيطة من الثروة والطبقة ، فإن هذه كانت عوامل هامة . ذلك أن الصراع بين الجانبين كان يحتوي على عناصر متعددة من عناصر الصراع الطبقي. وعادة ما كان الديموقراطيون من أصول أكثر فقرا على حين كان الأوليجاركيون ينحدرون من العناصر الأكثر ثراء في المجتمع . وفي الواقع أن أرسطو كان يصر على القول بأن الفرق بين الأوليجاركية والديموقراطية هو ببساطة الفرق بين الثراء والفقر.

وإذا كان الحكام يتولون الحكم بفضل ثروتهم، كان النظام أوليجاركيا في نظره، حتى ولو كان الأثرياء هم غالبية المجتمع ، وتوصف الحكومة بأنها ديموقراطية إذا ما كان الفقراء سادة النظام السياسي. لقد اعتبر الأوليجاركيون أن الديموقراطية هي

النظام الذى يستغل الفقراء فيه الأغنياء، وكان الديموقراطيون ينظرون إلى الحكم الأوليجاركى نظرة معاكسة . وفى كتيب كتبه واحد من الأوليجاركيين فى القرن الخامس نجد تعليقا موجزا عن الديموقراطية الأثينية : «فى رأيى أن الأثينيين يستحقون من المديح قدرا قليلا لأنهم أصلا تبنوا مؤسساتهم السياسية الحالية ولأنها قد منحت الفقراء والأشرار مكانة لايستحقونها فوق الأغنياء والطيبين».

وكما لاحظنا، كان الأوليجاركيون إلى حد كبير من الارستقراطية القديمة والأغنياء الجدد وأفراد طبقة المشاة الأكثر ثراء، على حين كان الحزب الديموقراطى مكونا من المشاة الفقراء ومن الفلاحين ومن الأجراء الفقراء أساسا. وكانت مجموعة المشاة الثقيلة تقف فى الوسط ، وعلى الرغم من أنها كانت تميل إلى مساندة الديموقراطيين، فإنها غالبا ما أيدت الأوليجاركية بدلا منهم. ولم تكن الخطوط الطبقية التى سببت الصراعات الطبقية مرسومة بصرامة . ولكن بينما كان كثيرون من الأفراد الارستقراطيين أعضاء فى الحزب الديموقراطى، كان كثيرون من الفقراء يحبذون الحكم الأوليجاركى، ولم يكن الفقير غير الارستقراطى يلقى القبول من جانب الأوليجاركيين الأغنياء إلا نادرا – على الرغم من وجود بعض الاستثناء، مثل سقراط.

ولقد نتج عن الصراع الأوليجاركى- الديموقراطى حول حقوق المواطنة وحق المشاركة فى الحكم الفرقة والنزاع الداخلى فى العديد من المدن الإغريقية . وفى بعض الأحيان كانت الصراعات تنفجر فى حرب أهلية. كما كان الصراع الحزبى مستمرا وقد اصطدم الحزبان حول السيطرة على الجمعيات العمومية ، وتجاريا فى ساحات القضاء، وقاما بنفى خصومهما وإغتيالهم عند الضرورة . وكانت حالات الخيانة عامة بين المدن ، لأن الصراع تعدى حدود الدولة. إذ كان الأوليجاركيون فى أثينا يشعرون أنهم أكثر ولاء للأوليجاركيين فى اسبرطة منهم للنظام الديموقراطى فى أثينا. كما كان الديموقراطيون فى مدينة ما، ينشدون المساعدة من الديموقراطيين فى مدينة أخرى، حتى لو كانت معادية ، ضد حكامهم الأوليجاركيين. وغالبا ما كان الصراع الأهلى الداخلى يصير أشد تعقيدا بسبب التدخل الخارجى. ويصدق هذا بشكل خاص على فترة الحرب البلوبونيزية ، عندما كانت بلاد الاغريق مقسمة إلى كتلتين . وقد كتب ثوكيديديس معلقا على الحروب الأهلية الدموية فى كوركيرا (Corcyra) ، ولاحظ أن تلك كانت أول ثورة تحدث ، وبعدها زلزل العالم الإغريقى بأسره ، إذ كان الديموقراطيون

فى كل مدينة على خلاف مع الأوليجاركيين، وبينما حاول الأولون احضار أثينا، كان الآخرون يحاولون ادخال اسبرطة .

وبنهاية حكم الطغاة فى أثينا عند غروب شمس القرن السادس قبل الميلاد تمزقت المدينة بفعل الصراعات الداخلية والخيانة فى شكل العمالة لحساب القوى الأجنبية . كان الاسبرطيون تواقين إلى اقامة حكومة صديقة لهم فى أثينا ولذلك ساعدوا ألكيبياديس المنفى فى الاطاحة بالطاغية هيبياس ، ابن بيزسستراتوس. وسرعان ما اشتعلت الحرب الأهلية . وكان ايساجاروس (Isagaros) يقول أحد الحزبين المتعارضين وهو أوليجاركى أرستقراطى من عائلة نبيلة قديمة، وضده كليستينيز ابن ميجاكليس، وكان طبعا من الكمايونيد. ووفقا لرواية هيرودوت عندما ساءت أحوال كليستنيز فى الصراع تحالف مع الشعب (demos) وعندما جوبه ايساجروس بقوة كليستنيز المتزايدة ، أرسل إلى اسبرطة طالبا المساعدة ، ولأن كليومينيس (Cleomenis) ملك اسبرطة كان واثقا من أن حكما أوليجاركيا تحت قيادة ايساجروس سوف يخدم مصالح اسبرطة تماما، أرسل مبعوثين يطلبون طرد عشيرة الكامايونيد وعددا كبيرا من عائلات أخرى وكذريعة استحضر الاسبرطيون اللعنة القديمة التى كانت قد أنزلت على عشيرة الكامايونيد بعد أن قام سلفهم ميجاكليس باعدام كيلون بطريقة دنسة فى القرن السابع ق.م. وانسحب كليستينيز بحكمة وتبصر، ولكن كليومينيس غزا أثينا بقوة صغيرة ، ونفى سبعمائة عائلة ، وأقام حكومة أوليجاركية تحت قيادة ايساجروس وثلاثمائة رجل من أتباعه. وفى وجه المقاومة القوية حاول ايساجروس أن يحل المجلس القديم لكنه فشل ، وبعد ذلك استولى على الأكروبول مع شركائه . وجمع رجال المجلس الشعبى الأثينى وراءهم وحاصروا الأكروبول على مدى يومين. وكانت قوات كليومينيس عندئذ أقل من أن تمنحه أى أمل فى النصر، ولذلك تفاوض على أساس خروجه هو وقواته وايساجروس سالمين من البلاد؛ بيد أنه أجبر على التخلى عن مؤيدى ايساجروس تاركا اياهم تحت رحمة الأثينيين الذين اعدموهم فى الحال. وصار بوسع كليستينيز وأتباعه أن يعودوا إلى أثينا ليمسكوا بزمام السلطة .

وكان كليستنيز ، مثل أبيه من قبله ، يبدو وكأنه قاد الأحزاب التحررية المعتدلة من الارستقراطيين والأثرياء الجدد. ونتيجة لهذا استطاع أن يحوز تأييد المشاة الثقيلة له

كما استطاع أن يجعل من نفسه حليفا للشعب. وكان نجاحه علامة على بداية فترة شكل الشعب أثناءها قاعدة السلطة في الدولة ، كان عليهم أن يعولوا على الشعب في سلطتهم. وبنهاية القرن الخامس بدأ الشعب يفرز قياداته الخاصة من غير الارستقراطيين.

وقد عمل كليستينيز على تحطيم ما بقى من السلطة الارستقراطية وتدعيم قوته. فقد قام باصلاحات دستورية لتخدم هدفه وبذلك أسس الديموقراطية على أسس راسخة . وقد قسم أتيكا إلى ثلاثة أقاليم ، المدينة ، والساحل ، والجزء الداخلى، وتجاهل خطوط الأحزاب الثلاثة الكبرى السابقة. وصارت القرية هى الوحدة الادارية المحلية، التى أطلق عليها اسم (deme) وكانت أتيكا تضم حوالى ١٧٠ حيا سكنيا . وكانت الأحياء السكنية داخل كل إقليم قد تشكلت فى عشر مجموعات عرفت باسم مراكز محلية (Trittyes) ثم أخذ مركزا محليا واحدا من كل منطقة وأدمجت الثلاث فى قبيلة جديدة . وقد نتج عن هذا عشر قبائل تتكون كل منها من ثلاثة مراكز محلية . وقد أسس كليستينز مجلسا جديدا من خمسمائة عضو، بأن أخذ خمسين رجلا من كل قبيلة . وقد حلت القبائل العشر الجديدة محل القبائل الآيونية الأربع كما حل مجلس الخمسمائة الجديد محل مجلس الأربعمائة القديم، الذى كان مكونا من مائة من كل من القبائل الأربع. ولم يقض كليستينيز على القبائل الأربع القديمة، وإنما ترك لها وظائفها الدينية والاحتفالية . وكان استحداث نظام الاحياء السكنية (Deme) وسيلة للتركيز السياسى فى المنطقة المحلية، وفى الوقت نفسه كان وسيلة للتقليل من أهمية القبيلة والعشيرة. وعلى أية حال ، كان ما يزال على المواطن أن يكون عضوا فى عشيرة واستمر الحاق المواطنين الجدد بالعشائر .

وبسبب افتقارنا إلى المعلومات عن البناء الاجتماعى والسياسى لنظام الاحياء السكنية فإننا غير متأكدين من أهداف اصلاحات كليستينيز ونتائجها . وحسب رواية أرسطو كان الدافع وراء اعادة التنظيم القبلى هو تمهيد الطريق أمام مواطنين جدد كما أن فرض اسم الحى السكنى كان وسيلة لحجب أصول أولئك المواطنين . وقد منح كليستينيز حقوق المواطنة لعدد كبير من غير المواطنين ، كان بعضهم قد حصل على هذه الحقوق تحت حكم بيزسستراتوس ولكن ايساجوراس حرمهم منها هو وحزبه فى

أعقاب طرد هيبياس . ووفقا لما يقوله أرسطو فإن كثيرين من الأجانب والعبيد المقيمين (أى العبيد المحررين والذين صاروا فى منزلة المقيمين) قد ألحقوا أيضا بالقبائل ، وبالتالى حصلوا على حقوق المواطنة . ومع ذلك استمر استبعاد الأجراء من تولى الوظائف وكان الحكام ما يزالون من الطبقتين العليتين .

وعلى الرغم من أنه يعتقد أن وصف أرسطو لتفصيلات اصلاحات كليستينيز جديرة بالثقة، فإن تفسيره للدوافع ليس كذلك. إذ أن منح كليستينيز حقوق المواطنة لأولئك الذين كانوا مستبعدين ومحرومين من حقوق المواطنة إنما جاء عرضا فى سياق اصلاحاته الرئيسية فحسب . ذلك أن غرضه من وراء تنظيم القبائل كان واضحا أنه تحطيم سلطة القبائل الأربع القديمة التى كانت تحت سيادة الأرستقراطية فى غالبيتها . ولكى يضمن عدم انزلاق القبائل الجديدة فى نفس الموقف، قام كليستينيز بتقسيم القبائل حتى لاتمثل منطقة جغرافية واحدة ، وبذلك يقوض أركان الأرستقراطية الذين كان نفوذهم محليا بالدرجة الأولى. وبينما عمل على تقليص سلطة العشائر الارستقراطية بهذا التقسيم الجديد، فإنه زاد فى الوقت نفسه من سلطة عشيرته عن طريق تقسيم المناطق على أسس انتخابية تضمن لها النفوذ . ومن المحتمل أن الكمايونيد كانوا أصلا يستوطنون الاقليم الساحلى الجنوبى الغربى ولكن فى زمن كليستينيز ، ثم توطين فروع من هذه العشيرة فى ثلاثة أحياء سكنية مختلفة فى منطقة المدينة، على حين عاشت عائلة محالفة فى الحى الرابع . وقد خصص كليستينيز هذه الأحياء الأربعة لأربعة مراكز محلية مختلفة، ولكنه ربط كلا منها بالوحدات الساحلية. المشابهة التى كانت قديما موطن عشيرة الكمايونيد . وكان المركز المحلى الحضرى الذى عاش فيه الفرع الرئيسى من العشيرة مرتبطة أيضا بالمركز المحلى الساحلى حيث كان موطن العشيرة منذ القدم. وهكذا تمكن كليستينيز بضربة واحدة أن يكسر القوة الاقليمية للعائلات الأرستقراطية الأخرى، على حين أبقى على قوة عشيرة الكمايونيد وربما زاد فيها وقد تجلى واضحا إلى حد ما من خلال النفوذ السياسى لهذه العشيرة فى أثينا خلال السنوات المائة التالية، إذ كان نجاحهم فى ضمان انتخاب واحد منهم ليكون قائدا لقبيلتهم نجاحا مطلقا .

وقد استحدث كليستينيز نظام النفى من غير محاكمة (ostracism) إذ كان المجلس يصوت مرة كل سنة حول ما إذا كان ينبغى أو لا ينبغى تطبيق هذا النظام خلال السنة نفسها.

فإذا كان الاقتراع ايجابيا ، يعقب ذلك سباق غير شعبى فيه يكتب كل رجل على قطعة من الفخار (Ostrakon) اسم السياسى الذى يرغب فى نفيه . ومن يحصل على أكثر الأصوات يذهب إلى المنفى لمدة عشر سنوات دون أن يفقد أملاكه . هذا النظام الغريب كان يقدم حلا سلميا للصراع الحزبى ، غالبا من خلال نفى زعيم أحد الأحزاب السياسية . وهناك غموض كثير يحيط بأصول نظام النفى دون محاكمة، لأنه على الرغم من اعتبار كليستينيز مؤسسا له فإنه لم يستخدم حقا سوى بعد سنة ٤٨٧ ق.م. أى بعد موت كليستينيز . وقد أدى هذا ببعض المؤرخين لأن ينكروا نسبته إلى كليستينيز . ومع ذلك فربما يكون هو الذى ابتكره كسلاح سياسى ووجد أنه لايحتاج إليه أثناء حكمه. إذ كان وسيلة احتياطية تستخدم فى المستقبل للتخفيف من حدة الصراع الحزبى، وكان نجاح كليستينيز فى تحطيم قوة الارستقراطية ، وفى منع الصراع بين الديموقراطية والأوليجاركيين ، وفى توطيد دعائم الاستقرار فى الدولة واضحا من خلال الحقيقة القائلة بأن نظام النفى دون محاكمة لم يستخدم لفترة طويلة بعد استحداثه .

وعلى الرغم من نجاح كليستينيز فى ادارة الانقلاب على سلطة الارستقراطية القديمة من ملاك الأراضى، فإن المجتمع كان ما يزال فى حال الاستقطاب . إذ أن الأثرياء الجدد (محدثى النعمة) قد كسبوا الحقوق السياسية والسلطة، ولكنهم كانوا يخشون أن تنتقض إذا سمحوا للطبقات الأدنى أن تكسب نصيبا فى الحكم . ومن ناحية أخرى، كانت الطبقات الدنيا تتحول إلى الثراء وبدأت تشارك فى قوة الدولة العسكرية مشاركة فعالة ، ومن ثم أخذت تناضل على مدى القرن الخامس ق.م. لكى تزيد من سلطتها .

وبنهاية حكم كليستينيز حوالى ٥٠٠ ق.م ، صار بمقدور الشعب أن يدعى أنه الحاكم الحقيقى فى أثينا، على الرغم من أن الارستقراطيين كانوا يقودونه كما يرشدونه . ولم يعد باستطاعة الأوليجاركيين أن يمسكوا بزمام القوة مرة أخرى حتى ٤١١ ق.م، وفى ذلك الوقت تحت ضغوط أحوال زمن الحرب وحدها . وبقى الموقف فى حال من السيولة على أية حال؛ إذ أن الصدام الايدولوجى تسبب فى الصراع الحزبى والتشرذم الداخلى خلال القرن الخامس ق.م، مع محاولة الأوليجاركيين المستمرة لتخفيض عدد المواطنين ومحاولة الديموقراطيين لزيادة أعدادهم.

وفى أثينا وغيرها بدأت النوادى السياسية تكتسب أهمية فى هذا الوقت تقريبا. وكانت لمعظم النوادى ميول أوليجاركية ، ولكن بعضها كان فى المعسكر الديموقراطى. وعادة ما كانت هذه النوادى صغيرة من حيث عدد أعضائها ، كما أنها كانت مرتبطة بزعيم من ذوى الثراء، وكانت تتألف من رجال يتماثلون فى العمر والمكانة الاجتماعية . ومن المحتمل أن هذه النوادى قد وجدت أساسا باعتبارها جماعات اجتماعية قبل أواخر القرن السادس ؛ ويلمح أفلاطون إلى أن غالبية المواطنين كانوا مرتبطين بالنوادى على نحو ما . وكانت النوادى توجه النشاطات الاجتماعية مثل اقامة حفلات الشراب . وقد حدث فى احدى هذه الحفلات سنة ٤١٥ ق.م. أن رجلا يدعى أوفيليتوس (Euphiletus) أقنع أعضاء ناديه الأوليجاركى بأن يرتبطوا سويا من خلال ارتكاب جريمة عامة، وهى تشويه مقدسات المدينة ، على النحو الذى تورط فيه الكيبياديس كما رأينا. وقد عملت هذه النوادى على كبت معظم المنافسة السياسية والحزبية ، لأنها كانت تعمل من أجل مرشحيها المختلفين. إذ كان الأعضاء نشطين فى سبيل المرافعة عن زملائهم ، وغالبا ما كانوا يناورون بأساليب قانونية لصالحهم . وربما كانت مختلف النوادى ذات اللون السياسى المماثل تلجأ إلى الترابط بحيث تخلق الأحزاب الأوليجاركية. وكانوا يجعلون رغباتهم السياسية محسوسة من خلال تعبئة الجمعيات، وتوزيع الكتيبات ، والطواف لجمع أصوات الناخبين والرشوة، والتواطؤ مع الموظفين وتزوير الانتخابات ، ونفى المعارضين بل واغتيالهم . وشكلوا أساس المقاومة الأوليجاركية للديموقراطيين، كما كان أعضاء تلك النوادى هم زعماء حركات التمرد الأوليجاركية التى حدثت فيما بعد.

ولم يحدث سوى مرة واحدة فى أثينا بعد هزيمة ايساجروس (Isagoras) أن أدى الصراع الأوليجاركى- الديموقراطى إلى حرب أهلية صريحة. إذ تمكن الأوليجاركيون من السيطرة على الدولة سنة ٤١١ / ٤١٠ ق.م ، ولفترة قصيرة ، مرة أخرى ٤٠٤ / ٤٠٣ ق.م، وفى المرة الأولى تمت ازاحتهم بدون عنف، ولكن فى المرة الثانية تمت اراقة الدماء بشكل رهيب .

وعندما تأزمت أحوال أثينا الديموقراطية بشكل سئ فى السنوات الأخيرة من الحرب البلوبونيزية ، تمكن الأوليجاركيون المحليون من استغلال المعنويات المنهارة للمواطنين وأمسكوا بأعنة الحكم . وفى سنة ٤١٥ ق.م، كما رأينا، أرسلت أثينا حملتها الصقلية ، بهدف غزو سيراكيوز التى كانت أقوى مدينة دولة اغريقية فى صقلية . وفى سنة ٤١٣ ق.م . انتهت الحملة بكارثة تمثلت فى القضاء على القوات الآثينية قضاء مبرما. وقد أحرزت سيراكوز انتصارها بفضل قوتها البحرية، وفى غضون سنوات ثلاث تم استبدال الحكم الديموقراطى المعتدل فى سيراكيوز بحكم ديموقراطى ثورى. وحدث العكس فى أثينا . إذ كانت استراتيجية بريكليس فى بداية الحرب البلوبونيزية قائمة سنة ٤٣١ ق.م . على أساس السيطرة على البحر والتنازل عن السيطرة فى البر. وكان معنى هذا أن الأجراء الذين عملوا مجذفين فى الأسطول باتوا هم العمود الفقرى للأسطول ، واكسبهم هذا أهمية عسكرية أكبر مما كان لهم فى السنوات الخمسين السابقة على تفوق أثينا البحرى، وتأثرت قيمة الخدمات العسكرية للمشاة الثقيلة سلبيا نتيجة لهذا . وقد ساند الأجراء الديماجوجيين والديموقراطية الثورية التى جعلت لهم صوتا أعلى فى الحكومة . وعلى أية حال ، كانت الكارثة التى وقعت فى سيراكيوز بمثابة ضربة قاصمة للأجراء سواء من حيث أعدادهم أو مكانتهم وهيبتهم . وفى سنة ٤١٤ ق.م جددت اسبرطة الحرب البلوبونيزية وفى السنة التالية أقامت أولا قاعدة ثابتة فى أتيكا عند ديكيليا (Decela) وأخذت تنهب الريف وأجبرت الفلاحين الأثينين على الاحتماء داخل المدينة. ونتيجة للحاجة إلى التعامل مع قوات العدو على الأرض تجددت أهمية المشاة الثقيلة. ولكى تتعقد الأمور أكثر، تجددت الحرب البحرية تجاه ساحل آسيا الصغرى بعنف من جانب الاسبرطيين سنة ٤١٢ ق.م . ومنذ ذلك الحين حتى سنة ٤١٠ ق.م ، غاب كثيرون من الأجراء الذين كانوا فى سن التجنيد عن المدينة . وفضلا عن ذلك، فإن الحزب المعتدل الذى كان يضم غالبية المشاة الثقيلة فقد زعيمه نيكياس (Nicias) الذى أعدمه السيراكيوزيون بعد هزيمته فى صقلية.

كانت الظروف مواتية لقيام ثورة أوليجاركية. إذ ظهرت سلالة جديدة من الأوليجاركيين فى السنوات التى اعقبت اندلاع حرب البلوبونيز . ولم يعودوا محافظين جامدين من الناحية السياسية والأخلاقية ، ولكنهم تعلموا فى خضم الثورة الثقافية

التى أشعلها السوفسطائيون(*)، الذين كرسوا اهتمامهم بالعلم أولا، ثم بالنظرية السياسية والفلسفية . وعلى الرغم من أن الديموقراطيين تعرضوا أيضا لتعاليم السوفسطائيين وتأثر منهم عدد بشكل عميق ، فإن التأثير عليهم فى مجمله كان أضعف كثيرا . وهكذا كان الأوليجاركى الجديد يشعر بنفسه منفصلا بالتعليم والطبقة أيضا عن الديموقراطيين .

وفى سنة ٤١٢/٤١١ ق.م كان الكيبياديس ، القائد الأثينى الذى كان قد هجر أثينا إلى اسبرطة سنة ٤١٥ ق.م. ومنها إلى فارس سنة ٤١٢ ق.م. يتفاوض مع الحزب الأوليجاركى الأثينى فى ساموس ، مقر قيادة الأسطول الأثينى. وأكد لهم أن بوسعه أن يجعل الفرس يقفون فى جانب أثينا إذا غيرت حكومتها إلى حكومة أوليجاركية . وعاد بيساندر (Peisander) الأوليجاركى الذى كان الكيبياديس يتعامل معه فى أثينا وأقنع جمعيتها بالموافقة على شروط ألكيبياديس . بيد أن الكيبياديس لم يكن قادرا على الوفاء بوعده بالدعم الفارسى وانفصل عن الأوليجاركيين . وعلى أية حال ، فإن الأمور كانت فى أثينا آنذاك قد سارت أبعد مما كان الأوليجاركيون يرغبون . إذ سادت فترة من الارهاب وتم اغتيال عدد من الديموقراطيين الراديكاليين، من بينهم قائدهم اندروكليس (Androcles) وبرزت من طيات هذا أوليجاركية ضيقة من أربعمائة شخص أمسكت بزمام الحكم فى أثينا. وقد تمكنوا من فعل هذا بسبب اذعان المعتدلين. إذ كان هذا الحزب المعتدل ما يزال بدون زعيم وكان يعارض الديموقراطيين الثوريين؛ ولكن عدم تنظيمهم جعلهم عاجزين عن القيام بأى عمل ايجابى، وهكذا التقوا

(*) السوفسطائيون Sophists :

كان السوفسطائيون معلمين محترفين يرسل اغنياء الاثينيين أبناءهم إليهم ليتعلموا بالأجر. وقد كونوا طبقة ذاع صيتها إبان حكم بركليس . وقد قدموا إلى أثينا آنذاك من أصقاع العالم الإغريقى ، وكانوا يتجولون من بلد إلى آخر ومن مدينة إلى مدينة وهم يلقون دروسهم فى شتى العلوم (الفلك ، علم الأخلاق، علم قياس الأرض ،القانون ، السياسة ، البلاغة ، وفن الشعر) . وكان هدفهم تعليم الإنسان كيف ينجح فى شق طريقه فى الحياة، وكانوا يتخصصون فى تدريب الشباب على فن السياسة كى يصبحوا من الطبقة الراقية بغض النظر عن أصولهم الاجتماعية ويمكن القول بأن جوهر التعليم السوفسطائى كان تحقيق القدرة على الجدل عن طريق الاقناع ولو كان ذلك على حساب الحقيقة، وكان أساس جدلهم الشك فى كل شئ موجود كبداية للتفكير السليم. ومن أشهر السوفسطائيين بروتاجوراس وجورجياس وهيبياس . ورغم هجوم بعض المفكرين والشعراء عليهم فقد ساهموا فى خلق ثورة فكرية فى المجتمع الاثينى آنذاك واحدثوا ثورة فى التعليم القديم.

مصادفة مع الأوليجاركيين، وزعم الأوليجاركيون أنهم كانوا يريدون أن يقيموا نظاما ديموقراطيا أكثر صحة، وهو ما كان يعنى حرمان الطبقات الدنيا من حقوق المواطنة الكاملة. وفى الحال استبعدوا المعدومين الأجراء من الجمعية ، ومنعوا دفع مرتبات لقاء وظائف الدولة باستثناء العسكرية منها، كما حصروا نطاق المواطنة فى خمسة آلاف رجل.

وعلى الرغم من أن الأوليجاركيين كانوا يحكمون سيطرتهم على أثينا آنذاك ، فقد كان ما يزال عليهم أن يكسبوا تأييد الأسطول الأثينى الذى لاغنى عنه، وكان الأسطول فى ذلك الحين يتخذ من جزيرة ساموس قاعدة له. ومن ثم حرضوا على نشوب حركة تمرد أوليجاركية هناك، ولكنها فشلت فشلا مزريا ، من ناحية بسبب عدم ملاءمة الوقت، ومن ناحية أخرى بسبب المشاعر الديموقراطية التى كانت غاية فى القوة بين البحارة . وكان الأسطول متحرقا للابحار إلى أثينا لخلع الأوليجاركيين، ولكن ادراكهم أن هذا التصرف المتهور سوف يترك ساحل آسيا الصغرى فريسة أمام أسبرطة ، مكن الكيبياديس من أن يقنع الأسطول بالانتظار . وبدون السيطرة على الأسطول فشل الأوليجاركيون وقد أرغموا على التفاوض مع ألكيبياديس ، الذى أصر على أن ما يُسمى «جمعية الخمسة آلاف» يجب أن تحل محلها «جمعية الأربعمائة»، وعلى أن يعاد تكوين مجلس الخمسمائة . وهرب غالبية المتطرفين إلى ديكليا التى كانت تحت سيطرة اسبرطة، ولكن أثنين من زعمائهم، هما انتيفون (Antiphon) وارخيبوتليموس (Archeptolemos) بقيا بأثينا حيث حوكما وأعدما . وفى ذلك الوقت تولى الحكم واحد من الأوليجاركيين المعتدلين هو ثيرامينيس (Theramenes) وكان الأجراء ما يزالون محرومين من عضوية الجمعية، ولكن جميع من كانوا يستطيعون توفير أسلحة المشاة منحوا حقوق المواطنة: وارتفع عددهم إلى حوالى تسعة آلاف مواطن . وبما أن أثينا كانت تعتمد إلى حد كبير على المجذفين فى الأسطول، فإن مثل هذا الموقف لم يكن ليستمر طويلا على أية حال. فبعد نصر بحرى حاسم على اسبرطة سنة ٤١٠ ق.م فى كيزيكوس (Cyzicus) أعيدت الديموقراطية الراديكالية .

لقد كانت الثورة الأوليجاركية سنة ٤١١ ق.م . تمثل أوج التقسيمات الطبقية والكراهية التى كانت تتراكم منذ اندلاع حرب البلوبونيز ، فبعد موت بركليس سنة ٤٢٩ ق.م.

تزايدت قوة الديموقراطيين الراديكاليين وزادت ثوريتهم بشكل مطرد . وعلى الرغم من أن بعض زعمائهم كانوا ما يزالون من الأرستقراطيين، فإنهم لم يكونوا من نفس النوعية التى كانت تحكم منذ أيام كليستينيز ، ولكنهم كانوا أكثر جنوحا نحو الديماجوجية المتطرفة . وقد رأينا أنه عبر تاريخ بلاد الإغريق ، كانت المساهمة العسكرية لطبقة ما تؤدى إلى زيادة حقوقها السياسية. وقد فشل الأجراء فى صقلية وكان ذلك هو ما أتاح الفرصة للأوليجاركيين لكى يحرموهم من حقوق المواطنة الكاملة وأن يعيدوا عقارب الساعة إلى الوراء. وقد ساند المشاة ثقيلو التسليح الأوليجاركيين مؤقتا، ومع هذا فشل الأوليجاركيون لأنهم لم يستطيعوا الحفاظ على هذا الوفاق ، ولأن الدولة كانت ما تزال معتمدة على الأجراء فى قوتها البحرية.

وفى غضون ست سنوات من اعادة الحكم الديموقراطى سنة ٤١٠ ق.م جاءت نهاية حرب البلوبونيزية ، بعد تحطيم الأسطول الأثينى فى ايوسبوتامى ، وهزيمة أثينا . ولأن الحرب كانت تجسيدا للصراع الايدولوجى بين الديموقراطية والأوليجاركية، كان حتميا أن تتحول أثينا فى ظل الهزيمة إلى الأوليجاركية. وبدون الحرب وبدون الامبراطورية لم تكن هناك أدنى قيمة للأجراء وفضلا عن ذلك ، فإن أعدادهم تدهورت بسبب اعدام ثلاثة آلاف منهم بيد ليساندر (Lysander) بعد معركة ايوسبوتامى. ولم تكن ضمن شروط السلام مع أسبرطة أية قيود على تغيير شكل الحكم . بيد أن ثيرامينيس ، الأوليجاركى المعتدل الذى كانت دبلوماسيته من أسباب اعتدال شروط الصلح التى نالتها أثينا، وبما يكون قد أوضح بصفة خاصة أنه سوف يقوم بعمل التغيير المطلوب حالا. والواقع أنه فى خلال أوضح بصفة خاصة أنه سوف يقوم بعمل التغيير المطلوب حالا. والواقع أنه فى خلال وقت قصير، وتحت اصرار ليساندر والاسبرطيين غير الرسمى، قامت الجمعية الأثينية بالتصويت لصالح حكومة مؤقتة من ثلاثين رجل. وقد عرفت هذه المجموعة باسم «الثلاثين» ثم فيما بعد باسم الثلاثين طاغية. وفى بداية الأمر كان ثيرامينيس يسيطر على الثلاثين، ولكنه لم يلبث أن خسر أمام كريتياس (Critias) الذى كان أوليجاركيا متطرفا طلب من أسبرطة أن تمده بحامية وبدأ عهدا حافلا بالارهاب . وأعد قائمة من ثلاثة آلاف يمكن أن يكونوا مؤيدين من مختلف الفصائل الأوليجاركية ومنحهم حقوق المواطنة الكاملة . وكل فرد غير مدرج

فى القائمة كان يمكن للثلاثين حرمانه من حقوق المواطنة دون محاكمة . وبسبب عجز الميزانية اقترح «الثلاثون» آنذاك أن يعدموا بعض المقيمين الأغنياء ويصادروا ممتلكاتهم . وعندما اعترض ثيرامينيس ، شطب كريتياس اسمه من قائمة الثلاثة آلاف مواطن وأمر باعدامه . وتم اقتياد ثيرامينيس عبر الشوارع وأعطى نبات الشوكران السام ليتجرعه . وعندما رفع الكأس إلى شفتيه كانت كلمته الأخيرة «أشرب هذا فى صحة حبيبى كريتياس »، وبموت ثيرامينيس، زال آخر كابح لجموح الثلاثين، ومع استمرار حكم الارهاب هرب كثير من أهل أثينا من وطنهم .

وفى شتاء سنة ٤٠٤/٤٠٣ ق.م قام حوالى سبعين من المنفيين الآثينين تحت زعامة القائد الديموقراطى ثراسيبولوس (Thrasybulus) بالعودة إلى أتيكا من ملجئهم فى طيبة ، وكونوا قوة قوامها حوالى ألف رجل وساروا صوب بيريه وتم ذبح كريتياس أثناء القتال . ولما كانت المعارضة ضد الثلاثين قد قويت ، فإنهم تراجعوا إلى مقاطعة اليوسيس القريبة تاركين بعض أتباعهم من بين الثلاثة آلاف مواطن ليمسكوا بزمام الأمور فى أثينا، على حين سيطرت قوات المعارضة بقيادة ثراسيبولوس على بيريه. وأخيرا، عندما بدأ ثيراسيبولوس حصاره على أثينا نفسها، توسل الثلاثون إلى اسبرطة طالبين المساعدة ، وبتحريض من ليساندر أرسلت أسبرطة أسطولا لكى يسد ميناء بيريه. وسار ليساندر نفسه إلى اليوسيس بقصد مهاجمة الديموقراطيين فى بيريه من هناك ، ولكن فى اللحظة الأخيرة تسببت المنازعات الداخلية باسبرطة فى افشال خطته- فقد شعر كثيرون من الاسبرطيين، وخاصة الملك باوسانياس أن ليساندر كان يحرز سطوة كبيرة للغاية من خلال صنائعه الأوليجاركيين فى المدن المقهورة ، ولذلك قاد باوسانياس (Pausanias) فى ذلك الحين جيشا اسبرطيا ثانيا إلى داخل أتيكا لكى يمنع ليساندر من أحكام سيطرته على أثينا. وفرض باوسانياس حلا وسطا بين أثينا وبيريه، أى بين الثلاثة آلاف مواطن فى أثينا والديموقراطيين فى بيريه. وبما أن الثلاثة آلاف لم يكونوا متطرفين فى مشاعرهم الأوليجاركية . كما أن الكثيرين منهم لم يكونوا متورطين فى الأعمال الطائشة غير الشرعية التى ارتكبها الطغاة الثلاثون، حتى وإن كانوا قد أيدوهم بقوة، فقد وافق الديموقراطيون على العفو عن الجميع باستثناء الطغاه الثلاثين وحوالى عشرين من أكثر مؤيدهم قربا. ولم تفرض اسبرطة أية صيغة

الحكم، ولكن الديموقراطيين كانت لهم اليد العليا. ورضى باوسيناس بهذا: فعلى الرغم من أنه لم تكن هناك حكومة أوليجاركية فى أثينا فإن قادة المدينة على الأقل لم يكونوا موالين لليساندر. وبقى الطغاة الثلاثون فى اليوسيس ، ولم يمسهم أحد بسوء حتى سنة ٤٠١ ق.م . عندما بدأوا يستأجرون قوات المرتزقة . وازاء هذا التهديد الجديد خرج الديموقراطيون لمواجهتهم ، وبعد أن استدرجوهم إلى اجتماع ، اغتالوهم جميعا . ثم أرسو دعائم السلم مع من بقى من الأوليجاركيين بأليوسيس .

ولم يكن ثيرابولوس رجل سياسة، فانتقلت قيادة الديموقراطيين إلى أشخاص آخرين ، أرخينوس (Archinus) وانيتوس (Anytus) وكان هناك اقتراح بتحديد حقوق المواطنة الكاملة فى اطار من يملكون الأرض، ولكن تم استبعاد هذا الاقتراح . وفى خلال فترة قصيرة تصالح كثيرون من الثلاثة آلاف مع الديموقراطيين وبرزت ديموقراطية معتدلة بزعامة أنيتوس . وبعد سنوات من الحرب الخارجية، التى تبعتها الحرب الأهلية، بدأت أثينا تحث الخطى نحو الشفاء.

لقد سقط الأوليجاركيون المتطرفون بسبب تطرفهم ذاته. فلو أنهم كانوا سمحوا بنمط أكثر اتساعا من الحكم الأوليجاركى ، مثل أوليجاركية الخمسة آلاف التى تولت الحكم بزعامة ثيرامينيس سنة ٤١٠ ق.م لاستطاعوا تطوير قاعدة مناسبة للسلطة بين السكان ، لاسيما وأن الأجراء لم تعد لهم أهمية عسكرية حيوية. وحتى بعد أن حددوا الدولة بثلاثة آلاف مواطن كاملى الجنسية كان بوسعهم أن يحكموا ، لو لم يكن عهدهم قد تحول إلى عهد للارهاب مكرس لمصالحهم الخاصة أقدموا خلاله على ضرب أعدائهم الشخصيين ، وركزوا على جمع الثروات، وتجاهلوا تماما مصالح كافة الآثينيين. وقد نجحت أفعالهم فى تحويل الدولة بأسرها ضدهم ، المواطنين والمقيمين ، الأوليجاركيين والديموقراطيين. وقد تسببت بربرية الطغاة الثلاثين فى جعل الأثينيين أشد ولاء للديموقراطية العائدة أكثر من أى وقت مضى . حتى أفلاطون ، الذى لم يكن يحب الديموقراطية، لاحظ أن تجاوزات الطغاه الثلاثين جعلت حكومة الديموقراطيين الثوريين السابقة تبدو كذهب خالص. ومع تناقص قوتها البحرية لم تعد أثينا بحاجة إلى الاهتمام بالأجراء بل وحتى عندما استعادتها أخرست صوتهم. وهكذا كانت الديموقراطية المعتدلة آمنة لسنوات عديدة .

وثمة مدينة أخرى تستحق الذكر بصفة خاصة هى كوركيرا، لأن الصراع فيها بين الأوليجاركيين والديموقراطيين والحروب الأهلية الناجمة عنه كانت دموية بشكل كبير. وكانت الشرارة التى جعلت كلا من الأوليجاركيين والديموقراطيين يمسكون بخناق بعضهم بعضا قد اندلعت من ابيدامنوس (Epidamnus) المجاورة وقبل اندلاع الحرب البلوبونيزية بوقت قصير، وطرد أهل أبيدامنوس أبناء الطبقة الأرستقراطية الذين انضموا إلى البرابرة المجاورين فى الهجوم على أبيدامنوس . وطلب الديموقراطيون فى المستعمرة مساعدة كوركيرا ولكنهم ووجهوا بالرفض . فولوا وجوههم صوب كورنثة ، التى رحبت بمساعدة ديموقراطيى ابيدامنوس ، على الرغم من أنها كانت أوليجاركية، وذلك لكى تضرب كوركيرا. وقد أدت مساندة كورنثة لأبيدامنوس إلى نشوب الحرب بينها وبين كوركيرا، وهو ما ساعد بدوره على اندلاع نيران الحرب البلوبونيزية .

وفى سنة ٤٢٨ ق.م استمالت أثينا عددا معروفا من أهل كوركيرا لكى يحاولوا اعادة تثبيت تحالف مدينتهم مع أثينا . وأدى هذا التصرف إلى الحرب الأهلية. فقد رفع الأوليجاركيون الاتهام ضد بيثياس (Peithias) ، وهو كوركيرى كان يتصرف باعتباره ممثلا لأثينا، وكان يحاول اخضاع كوركيرا لسيادة أثينا. وعندما فشلت القضية ، رفع بيثياس قضيته ضد خمسة من أغنى الأوليجاركيين بتهمة انتهاك حرمة المقدسات. وإذا كانت الأغلبية للديموقراطيين، فقد أدانوا أولئك الأوليجاركيين وفرضوا عليهم غرامة باهظة . ولأن أولئك الرجال عجزوا عن الدفع، فإنهم قادوا الأوليجاركيين فى اجتماع المجلس واغتالوا بيثياس وستين آخرين من أعضاء المجلس . وإذ صارت السلطة بأيديهم انتهجوا سياسة محايدة فى الحرب البلوبونيزية . وعلى أية حال ، فقد استمرت الحرب الأهلية، وقام الديموقراطيون بهجوم مضاد بمساعدة العبيد وانتصروا. ومع اقتراب الأسطول الأثينى شعر الديموقراطيون بأنهم فى أمان، وبدأوا فى قتل أعدائهم الأوليجاركيين. وتم اقناع خمسين أوليجاركيا كانوا قد لجأوا إلى معبد الربة هيرا بأن يستسلموا مع وعد باجراء محاكمة عادلة، بيد أن المحاكمة كانت تلفيقا وتم اعدامهم بسرعة . ويخبرنا ثوكيديديس «لقد ذبح الأب ابنه» ، وتم سحب الرجال من المعابد حيث ذُبحوا بالقرب منها، وتم تعليق البعض على حوائط معبد ديونيسوس حيث هلكوا فى مكانهم . لقد ذهبت الثورة إلى هذا المدى من التجاوزات الوحشية .

ولجأ الأوليجاركيون الناجون إلى جبل ايستون (Istone) ، ولكن عندما انضم الديموقراطيون الكوركيون إلى القوات الآثينية أيقنوا أن الخيار أمامهم أن يستسلموا أو يموتوا . ولأنهم خافوا أن يسقطوا في قبضة الديموقراطيين، فقد تفاوضوا مع الأثينيين على الاستسلام لهم فقط، بشرط أن يمثلوا أمام المحكمة في أثينا. ولكن الديموقراطيين الكوركيين كانوا متعطشين للدماء، وأغروا بعض السجناء بمحاولة الهرب. وكان هذا التصرف انتهاكا لشروط الاستسلام ، واستطاع الكوركيون أن يتولوا حراسة السجناء . وتم سحب ستين منهم خارج السجن لكي يقوموا بمنازلة، وأهينوا وضربوا وهم في الطريق. وعندما مات أولئك الستون هاجمت الغوغاء السجن وصبوا وابلا من السهام والحجارة من السقف . وتلى ذلك مشهد مروع ؛ إذ حاول بعض الأوليجاركيين أن يدافعوا عن أنفسهم وانتحر آخرون بغرس السهام في حلوقهم أو بطعن أنفسهم . وعندما طلع النهار كان الكوركيريون قد شبعوا من القتل فحملوا الجثث على العربات وألقوا بها في خارج المدينة. ولم يعد هناك تقريبا أحد من الأوليجاركيين حيا بالمدينة لكي ينهي الحرب الأهلية .

وبعد ذلك بسبعة عشر عاما، أي سنة ٤١٠ ق.م . كان مد الحرب البلوبونيزية يتحول ضد أثينا . وكان حكم الحزب الأوليجاركي في كوركيرا قد صار في ذلك الحين كبيرا بالقدر الكافي لأن يجعلهم قوة سياسية محتملة مرة أخرى . إذ زادت أعدادهم برجوع المنفيين ، لاسيما أولئك الذين فروا من مذبحة سنة ٤٢٨ق.م. أما الأوليجاركيون الذين كانوا يدعمون الاسبرطيين ، فقد قرروا تسليم المدينة لهم. ولكي يمنع الديموقراطيون ذلك أرسلوا يطلبون الجيش الأثيني، وبمساعدة القوات الأثينية التي بلغ عددها ستمائة رجل، قبضوا على الكثير من الأوليجاركيين وذبحوهم، وساقوا أكثر من ألف رجل إلى المنفى. كما أنهم حرروا العبيد الذين ساعدوهم ضد الأوليجاركيين كما منحوا حقوق المواطنة لأولئك الأجانب الذين ساندوهم . وبعد أيام قليلة قام بعض الأوليجاركيين ممن بقوا بالمدينة بالاستيلاء على مكان السوق واستدعوا المنفيين . ونشب قتال دموي ، كانت للأوليجاركيين اليد العليا فيه بصعوبة وتحت قيادتهم عادت كوركيرا مرة أخرى إلى سياسة الحياد التي كانت تنتهجها قبل الحرب . ويرى ديودور الصقلي (Diodorus Siculus) في هذه الحرب الثانية : «أنه لم يحدث في أية مدينة أن قتل

هذا العدد من المواطنين ولم يحدث نزاع أكبر وأكثر استمراراً بالشكل الذى أراق الدماء على هذا النحو». وكان الصدام الأوليجاركي الديموقراطى فى كوركيرا صراعا طبقيا فى الأساس، ولكن بسبب الحرب البلوبونيزية تحول إلى صراع دولى. وكانت كوركيرا ، مثل أثينا ، قوة بحرية ، ومن ثم اعتمدت على الطبقات الدنيا فى توفير الرجال اللازمين للأسطول . ومثلما كان الحال في أثينا كان الديموقراطيون يحوزون القدر الأكبر من التأييد الشعبى. وكان معنى هذا أن الأوليجاركيين ، حتى وهم فى ذروة سلطانهم سنة ٤١٠ ق.م، لم يكونوا قادرين سوى على اتباع سياسة الحياد .

وفى الصراعات الأوليجاركية – الديموقراطية التى حدثت فى القرن الخامس ق.م، كما لاحظنا ، كانت الولاءات الأيديولوجية تتفوق على الولاء للدولة. وقال القائد الأسبرطى براسيداس لمواطنى اكانثوس (Acanthus) معترفا : «اننى لم آت هنا لكى أنضم إلى حزب ، ولا أظن أن الحرية التى أقدمها حرية حقيقية إذا كان على أن أستعبد الأغلبية لصالح الأقلية أو الأقلية لصالح المجموع ، بغض النظر عن مؤسساتكم الموروثة عن أسلافكم . لأن ذلك سيكون أشد مرارة من الحكم الأجنبى» . ومن ناحية كان الاستعداد لخيانة المدينة لحساب عدو أجنبى يمكن تفسيره من خلال الطريقة التى كان العدو الغازى ينتهجها . فعادة ما كان يترك للمدينة الاستقلال الذاتى على نحو ما ، وربما وضع بها حامية ، ولكنه يتركها بأيدى أولئك الذين خانوا المدينة. وهكذا ، فإنه عندما خان الديموقراطيون فى سليمبريا (Selymbria) وبيزنطه مدينتهما لصالح الكيبياديس وأثينا سنة ٤٠٩ / ٤٠٨ ق.م ، أقام الكيبياديس حكومة ديموقراطية تحت سيطرة الخونة .

وفى سبيل طرد هيبياس من أثينا سنة ٥١٠ ق.م ، طلبت عشيرة الكمايونيد المساعدة الاسبرطية، وهم يعرفون أنهم سوف يتركون فى مراكز السلطة بعد طرده . وعلى نفس المنوال ، عندما كان ايساجوراس يقاتل كليستينيز حول السيطرة على أثينا سنة ٥٠٨ / ٥٧٠ ق.م، طلب المساعدة من أسبرطة . لقد فضل أن تكون أثينا أوليجاركية تحت سيطرة اسبرطة على أن تكون ديموقراطية حرة . ويسجل بلوتاريخ أنه عشية معركة بلاتايا سنة ٤٧٩ ق.م، عندما كانت أثينا وبلاد الاغريق تحارب ضد فارس ، حاك بعض الأثينيين مؤامرة للاطاحة بالديموقراطيين وخيانة الدولة لدى فارس . وكانت

العقول المدبرة للمؤامرة من عائلات كانت ذات مرة ثرية وصاحبة نفوذ لكنها فقدت الثروة والسلطة بسبب نمو الديموقراطية. ومن حسن حظ أثينا، أن اكتشف اريستيدس Aristides المؤامرة وقمعها . فى سنة ٤٥٧ ق.م، قبل معركة تاناجرا Tanagra مباشرة طلب بعض الأوليجاركيين سرا من اسبرطة أن تجرد حملة على أثينا لكى تسقط الديموقراطيين. وأفشل الأثينيون المؤامرة بالخروج لملاقاة الاسبرطيين. وكانت هذه الخيانة من عمل أحد النوادى الأوليجاركية. وكان الديموقراطيون بأثينا يخشون دائما من خيانة مدينتهم لحساب اسبرطة . وعندما تم انتهاك حرمة المقدسات سنة ٤١٥ق.م ، افترض الديموقراطيون فى الحال أن هذا كان جزءا من مؤامرة أوليجاركية ضد الديموقراطية.

وفى أثناء ثورة ٤١١ ق.م . الأوليجاركية كان الجناح المتطرف من الأوليجاركيين يخطط لخيانة أثينا لحساب اسبرطة . ويلاحظ ثوكيديدس : «أن التهمة لم تكن مجرد افتراء، ولكن كان لها بعض الأساس من حيث الرغبة فى التخلص من الحزب الحاكم . إذ ماذا يمكن أن يدخل السرور إلى قلوبهم أكثر من عودة الأوليجاركية بأية وسيلة، بحيث تبقى الامبراطورية الأثينية فوق الحلفاء؛ فإذا ما فشلوا فى هذا أمكنهم الحفاظ على سفنهم وأسوارهم وحافظوا على استقلالهم ؛ وإذا ما استحال تحقيق ذلك ، فإنهم على أية حال لن يروا الديموقراطيين يعودون للحكم بحيث يكونوا هم أول الضحايا ، ولكنهم سوف يجيئون بالعدو ويتفقوا معه ، غير مبالين إذا تسبب هذا فى خسارة المدينة للسفن والأسوار وكل شئ آخر ، بشرط أن يتمكنوا من انقاذ أرواحهم » (ترجمة B. Jowett) وقد أحرز الطغاة الثلاثون السيادة على أثينا سنة ٤٠٤ ق.م . بمساعدة ليساندر والاسبرطيين . وقد طلبوا وحصلوا على قائد عسكرى اسبرطى وسبعمائة من جنود المشاة الثقيلة ، ثم طلبوا مزيدا من المساعدة فيما بعد .

والأمثلة على الخيانة من جانب الأوليجاركيين أو الديموقراطيين كثيرة . وحوالى سنة ٤٩٢ ق.م، حاك الديموقراطيون فى أيجينا مؤامرة لخيانة الجزيرة لحساب الأثينيين، ولكنهم فضحوا ، وتم ذبح سبعمائة منهم. وقد بدأت حرب البلوبونيز بخيانة. وخلال الحرب كانت هناك على الأقل سبع وعشرون حالة خيانة أو محاولات خيانة داخل المدن. وفتح الأوليجاركيون فى بلاتايا سنة ٤٣١ ق.م، بوابات المدينة أمام الطيبيين.

وإذا احكمت القوات الطيبية سيطرتها فإنها مع هذا فشلت فى سحق خصومها وفى اليوم التالى ضربت هذه القوات. وقد استولى القائد الاسبرطى براسيداس على مدن كثيرة فى حملته شمال غرب البحر الايجى فى أواخر عشرينيات القرن الخامس ق.م، ومن بين المدن التى استولى عليها مدينتا تورون (Torone) ومندى (Mende) بفضل خيانة الأوليجاركيين . وصار من الأمور العادية بالنسبة لأى جيش يواجه مدينة ترفض الاستسلام أن يقنع الديموقراطيين أو الأوليجاركيين داخل المدينة بأن يفتحوا المدينة.

وفى خضم الصراعات الأوليجاركية - الديموقراطية فى أثينا وغيرها صارت المحاكم ميادين قتال يمكن فيها مهاجمة الأعداء. وبسبب طبيعة الاجراءات القانونية الأثينية كان حصاد المحاكمة يعتمد على مدى شعبية المتهم. ويكشف لنا مثال من القرن الرابع ق.م، مدى امكانية استخدام ساحات المحاكم للقتال السياسى. فقد كان ديموستينيس على مدى فترة من الوقت يستدعى كل يوم بتهمة جديدة من أعدائه . وفى سنة ٤٦٢ ق.م، أفاد أفيالتيس من المحاكم فى هجومه على الاريوباجوس، المجلس الارستقراطى القديم الذى ظل المعتقل الأخير للقوة الادارية الارستقراطية فى أثينا؛ إذ أنه اتهم عددا من أعضاء المجالس البارزين أمام محكمة (Heliaea) التى كانت محكمة الاستئناف الشعبية، لكى يمنعهم من معارضة اصلاحاته . وقد حوكم بركليس وأدين بتهمة الرشوة سنة ٤٣٠ ، وربما بفضل جهود الحزب الأوليجاركى والديموقراطيين الثوريين. وفى ٤٠٦ ق.م، خطط المعارضون لادانة واعدام القادة الذين قادوا معركة أرجينوساى (Arginusae) بسبب فشلهم فى انقاذ الناجين من غرق السفينة . وقد أدان الطغاه الثلاثون الزعيم الديموقراطى كليوفون (Cleophon) وأعدموه بتهمة ملفقة .

وكانت هناك طريقة أخرى للهجوم تمثلت فى تعطيل التشريع. وكان هذا يتم عادة بواسطة تهمة اقتراح اجراءات غير شرعية، وكان هذا يؤدى إلى ابطاء التشريع بل وقتله تماما . وقد استجدت وسائل أخرى، مثل مؤتمرات النوادى الأوليجاركية، التى كانت تصوت جملة فى الجمعية، وكان التكتل وجمع الأصوات بالرشوة من الأمور الشائعة فى الجمعية. كما كانت الخشونة ومقاطعة الخطب والصياح والجلبة من الأساليب المستخدمة . وغالبا ما كانت النوادى الأوليجاركية هى البادئة بهذه الوسائل. كما أنها لعبت دورا هاما فى الانتخابات .

وتمثلت أسلحة الأحزاب السياسية أيضا فى النفى بدون محاكمة والاغتيال فنحن نرى كلا من هذين السلاحين يستخدم فى الصراع الأوليجاركى- الديموقراطى فى أثينا من أجل الحصول على السلطة فى الأريوباجوس سنة ٤٦٢ / ٤٦١ ق.م وليست لدينا معلومات مفصلة فيما يخص هذه السلطة ؛ وكل ما نعرفه أنه كانت للأريوباجوس بعض السيطرة على الموظفين والقضاء، وأنه كان بمثابة محكمة ابتدائية فى بعض القضايا ، مثل القتل وعدم التقوى، وكان بمثابة محكمة الاستئناف فى قضايا أخرى. وكان يتألف من الحكام السابقين ويخدمون فيه طول حياتهم. وبما أن الحكام كانوا من طبقتى القمة فقد كان هذا يعنى أن الاريوباجوس كان مجلسا للطبقة العليا . وفى سنة ٤٨٧ ق.م، تغيرت الانتخابات لمنصب الحاكم الأرخون من انتخابات مباشرة إلى اختيار بالقائمة . وهكذا ، فبدلا من وجود مجموعة مختارة من الحكام ، تنتخبهم كل قطاعات السكان ، صار الأريوباجوس يمثل قطاع الارستقراطية. وقد عارض الحزب الأوليجاركى المحافظ بقيادة كيمون ابن ميلتياديس أى تغيير فى المجلس . وكان الديموقراطيون راغبين فى الحد من سلطات مجلس الأريوباجوس باعتباره انتهاكا لسيادة الشعب ؛ فبينما كان الموظفون الآخرون يخدمون سنة واحدة، كان أعضاء الأريوباجوس يتولون مناصبهم ، كما رأينا، لمدى الحياة، وهو ما أعطاه الاستمرارية والسلطة المتزايدة .

فى سنة ٤٦٢ ق.م. أقنع كيمون الأثينيين بارسال قوات تحت قيادته لمساعدة اسبرطة فى قتالها ضد أقنانها الذين كانوا فى حالة تمرد آنذاك . وفى أثناء غيابه اقترح الزعيم الديموقراطى افيالتيس بعض القوانين التى تنقل بعض السلطات القانونية من الأريوباجوس إلى محكمة الشعب (Heliaea) ونجح فى ذلك ، كما نجح فى نقل بعض وظائف الأريوباجوس إلى مجلس الخمسمائة. وفى الوقت نفسه كان كيمون قد وصل بقواته الأثينية لمساعدة اسبرطة بيد أن مساعدته قوبلت بالرفض . وعاد خائبا إلى أثينا حيث تقرر نفيه دون محاكمة بمجرد وصوله. وإذ صار الأوليجاركيون بدون زعيم، ناداهم الثأر فاغتالوا إفيالتيس . وتم تقليص وظائف الأريوباجوس، آخر المعاقل الدستورية للأرستقراطية والأوليجاركية، بحيث اقتصرت على بعض الوظائف غير السياسية. ومن هذه النقطة فصاعدا لم يعد بوسع الارستقراطيين أن يحكموا سوى باكراه الشعب.

وحقيقة أن عملية النفى دون محاكمة لم تكن تحدث سوى مرة واحدة سنويا، وأنها كانت تستدعى القيام باجراءات قانونية معقدة وتتطلب تعبئة الأصوات، جعلت منها وسيلة ذات فعالية جزئية فقط فى الهجوم أثناء الصراع الأوليجاركى/ الديموقراطى. وتفاصيل معظم عمليات النفى بدون محاكمة التى تمت فى أثينا غير متوفرة ، بيد أنها كانت وسيلة مستخدمة من الطرفين. كانت أول عملية نفى بدون محاكمة هى تلك الخاصة بهيبارخوس سنة ٤٨٧ ق.م؛ ومن المرجح أنه كان متعطفا مع الأوليجاركيين. وفى خضم أحداث ثمانينيات وسبعينيات القرن الخامس ق.م، تم نفى ثيموستكليس واريستيديس . وأشد صدامات الأوليجاركيين والديموقراطيين حول النفى بدون محاكمة إلى جانب قضية كيمون ، حدث سنة ٤٢٤ ق.م، عندما نشبت أزمة بين الديموقراطيين بقيادة بركليس والأوليجاركيين بقيادة ثوكيديديس ابن ميلسياس ، انتهت بنفى ثوكيديديس بدون محاكمة . وفى سنة ٤١٨ / ٤١٧ ق.م وفى خضم الصراع بين الأحزاب السياسية القائمة، حاول هيبربولس الزعيم الديموقراطى أن يضمن نفى الكيبياديس بدون محاكمة . وفى مواجهة هذه المحاولة ضم الكيبياديس حزبه إلى حزبين آخرين، هما حزب نيكياس وحزب فاياكس ، وهما من اتجاهات أوليجاركية مختلفة ، وبذلك نجح فى نفى هيبربولس نفسه. وكانت تلك آخر مرة استخدم فيها النفى دون محاكمة فى أثينا. ويشكو بلوتارخ من أنه لم يحدث أبدا أن نفى شخص تافه أو مغمور قبل هيبربولس، وكان هذا هو السبب فى انتهاء هذه الممارسة . وعلى أية حال ، فإنه يبدو أن السبب الحقيقى وراء هذا التوقف كان راجعا إلى وجود وسائل أخرى أكثر فعالية للتخلص من الخصوم.

كان الاغتيال هو الوسيلة الأكثر شيوعا فى التعامل مع الأعداء السياسيين لأنه كان أسهل فى التنفيذ . وكان الأوليجاركيون والنوادى الأوليجاركية يمارسونه أكثر من الديموقراطيين. فعلى سبيل المثال ، اغتال الأوليجاركيون الزعيم الديموقراطى الأثينى هيبربولس فى ساموس سنة ٤١١ ق.م . ولكى يحكم الأوليجاركيون سيطرتهم على أثينا سنة ٤١١ ق.م اغتالوا الزعيم الديموقراطى أندروكليس (Androcles) أولا، ثم اغتالوا كل من عارضهم فى الجمعية والمجلس. كذلك قتل الطغاة الثلاثون فى أثينا أكثر من ألف وخمسمائة رجل بعضهم عن طريق الاغتيال ، والبعض قتلوهم بشكل قانونى.

وارتكب الديموقراطيون فى أثينا حالة اغتيال كبرى واحدة فى نهاية القرن الخامس قبل الميلاد، عندما اغتالوا القائد الأوليجاركى فرينيخوس (Phrynichus) وعلى أية حال، فإنه فى أى مكان آخر غير أثينا كان الطرفان يلجآن كثيرا إلى الاغتيال فى تلك الفترة .

وعلى الرغم من المصالحة التى تمت بين الأوليجاركيين والديموقراطيين سنة ٤٠٣ ق.م ، فإن التوجس والعداوة استمرت قائمة فى السنوات القليلة الأولى من القرن الرابع ق.م وقد شهدت سنة ٣٩٩ ق.م. محاكمة اثنين من الأوليجاركيين، هما سقراط واندوكيديس بتهمة عدم التدين. وربما لم يكن سقراط مذنبا ، ولكنه أدين، على حين أن اندروكيديس ربما كان مذنبا ، وحكم له بالبراءة . وقد اعتبر اعدام سقراط على أنه مثال لقاعدة عامة، هى زيف الديموقراطية، كما نظر إلى الاعدام باعتباره تصرفا ضد المفكرين وضد الحرية الفردية . وفى رأى هيجل أن عظمة سقراط وقوة أفكاره هى التى جعلت محاكمته امرا محتوما . وقد اعتبره أفلاطون شهيدا، والواقع أنه بالفعل صارا شهيدا فى التراث الغربى نظرا لأهميته هو وأفلاطون فى تاريخ الفلسفة. والحقيقة أن استشهاده كان بارادته بحيث كاد أن يكون انتحارا .

ولد سقراط سنة ٤٧٠ ق.م، وكان مثل أبيه قد تدرب ليكون قاطع أحجار وتزوج امرأة كان اسمها كسانثيبى (Xanthippe) وأنجب منها ثلاثة أبناء. وبما أنه كان من سكان المدينة الثابتين وكان مخلصا لأثينا، فقد خدم جنديا فى المشاة الثقيلة فى عدة معارك خلال حرب البلوبونيز . وفى سنة ٤٠٠ ق.م، كان رئيس الجمعية فى اليوم الذى حوكم فيه القادة الأثينيون لفشلهم فى انقاذ رجالهم الغرقى بعد معركة أرجينوساى . وقد عارض محاكمتهم بالجملة على أساس أن هذا أمر غير قانونى، وضغط من أجل محاكمة كل منهم بمفرده ولكنه لم ينجح فى مسعاه. وكان من ضمن الثلاثة آلاف مواطن الذين حددهم الطغاه الثلاثون، وكان صديقا ومعلما لكريتياس (Critias) ابن عم أفلاطون ، وزعيم الطغاه الثلاثين . ومع هذا، فإنه رفض القبض على شخص يدعى ليون (Leon) من سلاميس عندما صدر إليه الأمر بذلك من الطغاة الثلاثين . وفى سنة ٣٩٩ ق.م، بعدما عاد حكم الديموقراطية، تمت محاكمته بتهمة عدم التدين وبتهمة «افساد الشباب» ، وأدين ، وحكم عليه بالاعدام وأعدم.

ولم يترك سقراط أية مؤلفات مكتوبة ، ولكن من خلال التأثير الذى مارسه على تمليذة أفلاطون ، صار واحدا من أهم أعلام الفلسفة الغربية . وبسبب مركزه والأسطورة التى خلقت من حوله على يد أفلاطون أولا ثم استمرت على مدى الأجيال التالية، أصبح الكثير من تعاليمه ومحاكمته محجوبا وراء ستر الغموض.

كان الأثينيون يعتبرون سقراط أبرز السفسطائيين ، وهم مجموعة من الفلاسفة ، غالبا ما كانوا جوالين ، واشتهروا منذ منتصف القرن الخامس ق.م. فصاعدا . وكان سقراط بالنسبة لشعب أثينا رمزا للتفكير الحر الذى سبب أزمات فى أواخر القرن الخامس ق.م. على كل المستويات، فى الديانة ، والأخلاق ، والسياسة . فقد كان الفلاسفة الأيونيين (آسيا الصغرى)، الذين بدأوا بطاليس (Thales) فى مطلع القرن السادس، قد بدأوا تأملاتهم حول أصل وطبيعة الكون. وفى منتصف القرن الخامس بدأ رد الفعل بزينون (Zeno) من ايليا الذى شجع تحليله للفضاء والحركة والزمن الشكوك فى كل انجازات الكوزمولوجى(علم الكون) والأنطولوجى (علم الوجود) . وكانت أهم المشكلات الفلسفية هى تلك التى لم تركز على الكوزمولوجى وإنما على المعرفة والأخلاق، ونرى هذا الاتجاه الجديد فى كلمات بروتاجوراس (Protagoras) : «إن الإنسان هو مقياس كل الأشياء؛ وهو مقياس وجود الأشياء الكائنة ، وعدم وجود الأشياء غير الكائنة» ومن هذا المنطلق شكل السفسطائيون النتيجة الطبيعية التى تقول بوجود مجادلتين، الأضعف والأقوى. فقد كانت النسبية تسمح للجدل الأضعف أن يصبح أقوى إذا ما سانده عرض مقنع . وهكذا بدأ السفسطائيون يدربون تلاميذهم على البلاغة ، أى فن الاقناع.

وانتشرت الاتجاهات العقلانية للسفسطائيين لتصل إلى الطب، ولاسيما فى تعاليم هيبوقراطيس (Hippocrates) من كوس (Cos) . فقد أحدث ثورة فى الطب بالقول بأن المرض سببه الوحيد العلل الطبيعية. فقد قال عن الصرع، مثلا «بالنظر إلى ما يسمى مرضا مقدسا يتضح أنه ليس أكثر قداسة أو سماوية من أى مرض آخر ولكن له سببا طبيعيا مثل سائر الأمراض...» وهم (الأطباء) يستخدمون القداسة ستارا يدارون به عجزهم عن معالجة المريض ولكى يخفوا جهلهم ، ويعتبرون هذا الداء مقدسا».

وكان للبنية والعقلانية السفسطائية تأثيرها البالغ الخطورة فى تقويض دعائم الديانة التقليدية لدى الإغريق . كان هذا الهجوم على الديانة «والأخلاقيات الجديدة» والأفكار الخطيرة لأشخاص مثل يوريبيدس (Euripides)(*) وسقراط هى التى أثارت نفور شعب أثينا. وغالبا ما ينظر إلى محاكمة سقراط على أنها تصرف معادى للفكر ضد شخص يحاول أن يقدم للناس الحقيقة ويجلب الاستنارة إلى أثينا. ولكن على الرغم من أنه يمكن أن يكون العداء لتعاليمه الفكرية قد ساهم فى ادانة سقراط، فإن محاكمته كانت قد تمت أصلا بسبب تصرفاته السياسية وتعاليمه السياسية . وخلال القرن الرابع كان الشائع عموما هو أن سقراط قد أعدم لأنه كان معلم كريتياس وألكيبياديس ، وهى تهمة وجد اكسينوفون أن من الضرورى أن يدافع عنه ازاءها.

وكان سقراط أوليجاركيا بميوله وانحيازه على السواء . إذ كانت فلسفته نفسها ضد الديموقراطية. فقد كان يعتقد بأن الخبير هو الذى يجب أن يتولى الأمور؛ فالخبير فى بناء السفن ينبغى أن يبنى السفن، والمدرس الخبير هو الذى ينبغى أن يعلم الشباب. وبنفس المنطق يجب أن يحكم الدولة خبراء فى شئون الحكم، لا أن تحكمها الجماهير العاطلة من المواهب المتخصصة . ومن ثم كان سقراط يعارض الانتخابات الجماعية، وهو الاجراء الذى كان يعتبر غاية فى الديموقراطية . وقد لقن هذه الأفكار المناهضة للديموقراطية لتلاميذه الذين كان أغلبهم من الارستقراطيين، المعادين للديموقراطية بحكم مولدهم، والذين تحولوا بالممارسة إلى أعداء للديموقراطية مثل كرتياس ، أو خونة لأثينا ذاتها مثل ألكيبياديس واكسينوفون فيما بعد. وبينما كانت الرغبة فى أن يتولى خبراء شئون الحكم مقاليد الأمور ميلا أوليجاركيا لدى سقراط، بالنظر إلى الفكرة الاغريقية البدائية عن الديموقراطية ، فإن نفس الرغبة عند توماس

(*) يوريبيديس Euripides :

شاعر مسرحى إغريقى درس البلاغة على يد سقراط والفلسفة على يد اناكساجوراس وأشتهر بأنه لايميل إلى الجنس الآخر حتى لقب بعدو المرأة . كان يوريبيديس فى تفكيره حرا طليقا لايقيم وزنا للماضى بمقدساته، أمعن فى النقد وتناول بالتجريح كل ما يتصل بالآلهة كما اتخذ الموضوعات الاسطورية مجرد ركيزة لمناقشة فلسفات عصره ومشاكل حياة الطبقة الوسطى كعلاقات الجنسين ومكانة النساء والعبيد. وكان على سنة أساتذته السوفسطائيين غير منتم إلى طبقة اجتماعية معينة فكان نمطا جديدا من الشعراء. ألف نحو من اثنتين وتسعين مسرحية لم يبق لنا منها غير تسع عشرة مسرحية كاملة ومقتطفات من البعض الآخر.

جيفرسون (Thomas Jefferson) (الذى كان ارستقراطيا بخصاله ومواهبه، أى ارستقراطيا طبيعيا) أخذت منحى ديموقراطيا . أما طريقة اختيار الخبراء وجعلهم مسئولين فإنها أمر جدير بالاعتبار فى المسألة. إذ كان جيفرسون يتوقع أن يقوم المواطنون بانتخابهم ، فإذا فشلوا يعزلهم المواطنون . وعلى الرغم من أن جيفرسون اتفق مع سقراط (وأفلاطون) فى أن الحكم الجماعى أمر غامض تماما، فإنه نفر من دولة أفلاطون المثالية ومن جمهوريته الفاضلة، التى قرأها مرارا بعناية واهتمام .

ويكشف وضع سقراط ضمن الثلاثة آلاف مواطن كاملى المواطنة الذين عينهم الطغاه الثلاثون عن حقيقة أنه كان أوليجاركيا بالكلمة والواقع أيضا. وفى خطبته دفاعا عن نفسه كما أوردها أفلاطون فى كتاب «الدفاع» (Apology) أوضح سقراط بعناية أنه عندما امره الطغاة الثلاثون بالقبض على ليون من سلاميس رفض الامتثال ، وعلى الرغم من أن عصيانه للأوامر على هذا النحو جلب لروحه الهلاك . ولكن مجرد حقيقة أن الاختيار قد وقع على سقراط تكشف عن أنه كان وطيد الصلة بالطغاة الثلاثين، الذين جعلوا من هذا وسيلة لالزام حلفائهم بالتآزر معهم من خلال ارتكاب جريمة عامة. فعلى سبيل المثال ، تم اختيار ثلاثين من المقيمين لكى يتم القبض عليهم، بحيث يقبض على كل منهم واحد من الطغاة الثلاثين. عندما عارض ايراتوسثنيس (Eratosthenes) الذى كان واحدا من الطغاة الثلاثين، أن يلقى القبض على ليسياس وأخيه، أجبره الطغاة الثلاثون المواطنين الثلاثة آلاف فى الحكم على سكان اليوسيس بالموت. ومن خلال أوامرهم بالقبض على ليون كان واضحا أنهم يحاولون تأكيد انحياز سقراط لهم. وحقيقة أن سقراط رفض لاتكشف سوى عن أنه لم يكن واحدا من الأوليجاركيين المتطرفين .

فى سنة ٣٩٩ ق.م. كان كل من أثينا والديموقراطيين العائدين يبذلون غاية الجهد لتدعيم مراكزهم. إذ عمل أنيتوس(Anytus) وأرخينوس (Archinus) وثراسيبولس (Thrasybulus) بجد على مصالحة الثلاثة آلاف مع بقية السكان، لاسيما من خلال دفاعهم الباسل عن عفو سنة ٤٠٣ق.م، ولم يمكن لأثينا أن تحتفظ بحريتها وديموقراطيتها سوى لأن الظروف السياسية لم تكن مستقرة بسبب الشقاق بين ليساندر والملوك الاسبرطيين. وعلى أية حال، فإن سقراط كان مصدر ازعاج بتعاليمه

المهيجة. وهكذا عول أنيتوس على اسكاته وبذلك استأصل تهديدا آخر كان خطرا على الأمن السياسى للدولة وعلى المصالحة بين الأوليجاركية والديموقراطية.

وقد واجه أنيتوس مشكلة القيام بهذه العملية دون أن ينتهك العفو الصادر سنة ٤٠٣ق.م، الذى كان الحفاظ عليه محل شك. ويمتدحه ايسوقراط (Isocrates) لأنه لم يحاول استرجاع ممتلكاته الشاسعة التى كان الطغاه الثلاثون قد صادروها. وكانت آنذاك بأيدى ملاك جدد ولم يكن ممكنا المساس بها حسب شروط العفو. وفضلا عن ذلك، فعلى الرغم من أن أنيتوس كان معارضا سياسيا لاندركيديس، فإنه هب لمساعدته عندما كان بين أولئك الذين حاولوا أن يشوهوا التمثيل المقدسة وينتهكوا الأسرار الأليوسية عشية الحملة الصقلية. ومن المحتمل أن أنيتوس لم يكن قادرا على اعتقادا منه أن أندروكيديس كان محميا بقرار العفو. ولأن أنيتوس لم يكن قادرا على اتهام سقراط بضمير مستريح فى الأحداث التى جرت قبل سنة ٤٠٣ ق.م، فإنه كان يحتاج إلى شئ جديد يحاكمه على أساسه. ويجب التأكيد على انيتوس لم يكن يحاول أن يقتل سقراط؛ وإنما كان غرضه أن يسكته وكان أمله أن يفعل ذلك بأن يجبره على الرحيل إلى المنفى. ولو أن اجراءات النفى بدون محاكمة كانت ما تزال تمارس فى سنة ٣٩٩ ق.م. فمن المحتمل تماما أن أنيتوس كما سيستخدم هذا الجراء سلاحا لنفيه. وبما أنه لم يستطع، فإنه حاول أن يحاكمه بتهمة غامضة هى عدم التدين واللاأخلاقية. وقد أقسم ميليتوس (Meletus) على كون سقراط مذنبا فى هذه التهمة، وشهد بأنه مذنب فى افساد الشباب. وكان العقاب المقترح هو «الموت». وبما أن عقوبة عدم التدين لم تكن ثابتة. وقد تُرك للمتهم أن يقترح عقوبة مقبولة فى المقابل، على أن يحدد المحلفون عندئذ الحكم. وكانت العقوبة التى توقعوا أن يقترحها سقراط هى النفى، وبدلا من ذلك قال أنه يظن نفسه جديرا بأسمى تشريف تمنحه الدولة، وهى كفالته مدى الحياة فى البرتانيوم (Prytanemeum)، وأخيرا اقترح غرامة تافهة أخبر المحكمة أن أصدقاءه سوف يدفعونها عنه. وقد صوت المحلفون البالغ عددهم ٥٠١ فردا بالإدانة بأغلبية ٢٨١ صوتا ضد ٢٢٠ صوتا. وبعد الاقتراح التافه الذى قدمه سقراط فى المقابل صوت المحلفون على عقوبة الموت وجاءت النتيجة هذه المرة ٣٦١ صوتا مقابل ١٤٠ صوتا.

وبعد ادانته تم تأجيل التنفيذ لمدة عدة أسابيع بسبب السفارة الأثينية المقدسة التى أرسلت إلى ديلوس، ولم يكن مسموحا بأية اعدامات فى أثناء هذه الفترة ووفقا لرواية أفلاطون لم تكن هناك حراسة مشددة على أرسطو وسنحت له الفرصة للهرب عدة مرات. وقد حرضه أصدقاؤه على ذلك، ولكنه رفض بشدة قائلا إن الموت أفضل من النفى بعيدا عن قبيلته ومدينته . ثم شرب السم ومات دون أن يكون هناك حل وسط من جانبه أو ما جانب الطرف الآخر.

كانت هناك تهمتان تستخدمان فى أثينا القرن الخامس ق.م . لمهاجمة أى عدو، هما الرشوة وعدم التدين. وربما كان الفيلسوف اناكساجوراس (Anaxagoras) قد حوكم بتهمة عدم التدين كجزء من الهجوم السياسى على بركليس . ويقال أن اسباسيا (Aspasia) عشيقة بركليس قد اتهمت بعدم التدين والدعارة ، على الرغم من أن هذه القصص يمكن أن تكون خيالية. وكانت تهمة سقراط على وجه الخصوص هى عدم الإيمان بآلهة المدينة والدعوة لآلهة جديدة. ومع هذا فإن كلا من أفلاطون واكسينوفون يصورانه رجلا عميق التدين كان من عادته مراعاة الطقوس وتقديم القرابين للآلهة وفضلا عن ذلك ، فلو أن الدعوة لآلهة جديدة كانت تعد جريمة فى أثينا لكان كثيرون من الأثينيين مذنبين . فقد كانت الدعوة للإله اسكليبيوس (Asclepius) الذى كان إلها اغريقيا ، من شأن الدولة، ولكن عبادات آلهة أجنبية كثيرة مثل كيبيلى (Cybele) الفريجية ، وبنديس (Bendis) التراقيه وغيرهما ، كان لها أتباع بالفعل فى أثينا . وكانت عبادة كثير من هذه الآلهة قد سمح بها فى أثينا أو شجعت بمرسوم من الدولة. ولم يكن سقراط متهما بممارسة الطقوس الأجنبية، وإنما اتهم بالإيمان بصوته الداخلى (daimonion) أى ضميره. وإذا وضعنا فى اعتبارنا المزاج الدينى فى أثينا، ، فإن هذا التأكيد أساسا واهيا للاتهام .

أما بالنسبة لتهمة «افساد الشباب» ؛ فمن المحتمل أنه كانت لسقراط علاقة جنسية شاذة ببعض تلاميذه ، بيد أن الاغريق نادرا ما كانوا يرفعون دعوى قضائية بسبب أعمال من هذا النوع ، إلا للمضايقة فقط. ولم يكن الافساد الفكرى جريمة فى أثينا، وهكذا فإنه مهما كان قصد المدعى «بافساد الشباب» ، فإنها كانت ثانوية إلى جانب تهمة عدم التدين.

وفى النظام القانونى الإغريقى لم يكن ثمة تمييز واضح ؛ بين مسائل الحقيقة والقانون وكان المحلفون يقررون كلا الأمرين- سواء كان القانون قد انتهك وسواء كان المتهم قد ارتكب التهمة بالفعل- وعادة ما كانوا يتعاملون معهما باعتبارهما موضوعا واحدا . وهكذا كان يمكن اتهام أى واحد تحت ظل أى قانون دون أن يكون هناك انتهاك واضح للقانون. وكان هذا يصدق بصفة خاصة على تهمة عدم التدين، لاسيما عندما لايكون ثمة فعل لانتهاك المقدسات قد حدث . وفى حالة سقراط كان الأمر متروكا للمحلفين أن يقرروا ما إذا كانت تلك الأفعال التى اتهم بها من قبيل عدم التدين. فإن هذه الأفعال التى كان الأثينيون يرتكبونها يوميا لم تكن تعتبر جرائم فى حق الدين إلا فى حالته هو فقط . وقد كان سقراط نشيطا على مدى عدة عقود فى أثينا وتعرض للهجوم علنا كما سخر منه كثيرا الكاتب المسرحى الكوميدى اريستوفانيس (Aristophenus)(*) (فى مسرحية السحب) فى أواخر عشرينيات القرن الخامس ق.م وايا كانت العداوة والكراهية تجاه سقراط، فإنها لم تكن كافية لتحريك الشعب لازاحته بوسائل قانونية حتى سنة ٣٩٩ ق.م. وفى هذا السياق كانت انحيازاته وتعاليمه الأوليجاركية تعتبر تهديدا للديموقراطية، كما أن ثمة حياة أخرى كانت تلوح فى خضم الصراع الأوليجاركى الديموقراطى.

كانت المصادمات التى حدثت فى أثينا القرن الخامس ق.م. عناصر فى الصراع الطبقى الذى برزت بنهايته الطبقات الوسطى والدنيا . إذ ربط كليستينيز نفسه بالتحالف مع الشعب لكى يكسب السلطة السياسية، ثم انطلق لكى يحطم قوة العشائر الارستقراطية القديمة من خلال اصلاحاته القبلية والدستورية . وفى ذلك الوقت برز حزبان هما، الديموقراطيون وهم الطبقات الأكثر فقرا فى المجتمع، والأوليجاركيون

(*) اريستوفانيس Aristophanes :

رائد الكوميديا القديمة وعميد الملهاة وأشعر شعرائها . بلغت مسرحياته نحوا من أربعين لم يبق لنا منها إلا إحدى عشرة مسرحية . فى ملهاة اريستوفانيس كان الخيال يمتزج بالحقيقة والفلسفة والسياسة بالخلاعة والمجون . كان معاصرا ليوربيديس ذى الأفكار التقدمية الذى كان يهدف من وراء مأساته إلى نقد العقائد مسفهًا التقاليد وناحيا إلى تحرير الفكر ، بينما كان أريستوفانيس يرمى من وراء فكاهته ومرحه وهزله إلى نقد الجيل التقدمى المنحل ورده إلى التمسك بالتقاليد والعرف السائد واحترام الآلهة وتقديسهم. فى مسرحية «السحب» ترك السياسة والنقد السياسى المباشر لينزل إلى خضم الفلسفة مستهدفًا تسفيه فلسفة السوفسطائيين وإن كان قد إختار لهم سقراط وهو ما يمثل اختيارا بعيدا عن التوفيق .

الذين كانوا تحالفا بين الطبقات الغنية فى المجتمع والأرستقراطية القديمة . وقد احتفظ الأرستقراطيون بقدراتهم على حكم الدولة لأنهم كانوا يقودون كلا من الحزبين. وكما لاحظنا ، فى خلال الحرب الفارسية وما نتج من تحول أثينا إلى قوة بحرية عظمى وسيدة حلف ديلوس، كانت مساهمة الأجراء العسكرية كبيرة لصالح الدولة ومن ثم حازوا حقوقا أكبر فى الحكم. لقد كانوا ديموقراطيين وأدت أهميتهم العسكرية إلى تقوية الحزب الديموقراطى، الذى كان قبل ذلك تحت سيادة المشاة ثقيلى التسليح. وحدثت أزمة فى الصراع سنة ٤٦٢ ق.م . حول سلطة مجلس الأريوباجوس ، خرج منها الديموقراطيون منتصرين . وفى غضون سنوات قليلة وسع الديموقراطيون قاعدة الحكم عن ذى قبل عندما سمحوا لفئة الحرفيين أن يتولوا منصب الأرخون فى سنة ٤٥٧ / ٤٥٦ ق.م، وحوالى هذا الوقت ابتكر بركليس دفع المرتبات للمحلفين وموظفى الدولة. وقبل هذا كانت وظائف الدولة تسبب صعوبات مالية، لأن متطلبات الوظيفة كانت تجبر من يتولاها على ترك مهنته المنتظمة إلى حين. وبما أن الحرفيين والعامة كانوا يوفون مطالب حياتهم بالكاد فإنهم لم يكونوا ليضحوا بما يكسبون منه عيشتهم لكى يخدموا كمحلفين، وكانت العناصر الأكثر ثراء هى التى تتجه نحو ادارة شئون الدولة . ومع تقديم المرتبات تمكنت العناصر الفقيرة من السكان من المشاركة فى حكم الدولة، حتى وإن لم تكن هذه المرتبات كافية .

واستمرت الصراعات والمنازعات الحزبية بين الأوليجاركيين والديموقراطيين فى أثينا. عندما كانت للديموقراطيين اليدْ العليا المهيمنة بزعامة بريكليس حتى وفاته سنة ٤٢٩ق.م . وبموت بركليس حدث تغير فى طريقة الحكم . إذ بدأت الطبقات الدنيا تمسك بزمام السيطرة على الجمعية بشكل مباشر واكتشفوا أنه يمكنهم حكم الدولة من خلال هذه الهيئة. وحتى سنة ٤٢٩ ق.م، كانت وسائل الوصول للسلطة تكمن فى تولى منصب القائد (Strategos) أو تولى قيادة احدى القبائل . وفى العديد من الدول، لاسيما الديموقراطية منها مثل أثينا، كان هناك خوف من أن يستخدم الموظف الرئيسى وظيفته كوسيلة لتأسيس حكم الطغاة. ولاتخاذ الحيطة ضد حدوث ذلك تم تحديد مدة شغل المنصب الذى يشغله القائد بسنة واحدة، وعندما يصير بالامكان شغل المنصب ثانية كان لابد من مرور فترة زمنية طويلة بين المرتين. وعلى أية حال ، كان لابد

من أن تكون الشئون العسكرية بأيدى العناصر الأساسية جدا بالمدينة. ومن ثم كانت الانتخابات السنوية فى أثينا أمرا شائعا (لشغل الوظائف العسكرية) . وكانت السيطرة الشعبية على الجمعية ، التى استغلها الديماجوجيون الأثينيون من أمثال كليون، وسيلة فعالة مزدوجة فى الوصول إلى السلطة؛ إذ لم تكن تستدعى اجراء انتخابات سنوية من جهة، كما أنها كانت تتحاشى العقاب إذا ما فشلت السياسات . إذ كان يمكن عقاب أى قائد عسكرى بالغرامة أو الاعدام بتهمة ملفقة إذا ما ساءت سياسته ولكن أى ديماجوجى فى الجمعية لايمكن أن يمس بطريقة قانونية إذا ما فشلت السياسة التى انتهجها. وفضلا عن ذلك ، كان بوسع الشعب آنذاك أن يمارس السيطرة المباشرة على السياسة بدلا من السيطرة غير المباشرة التى كان يمارسها من خلال الموظفين المنتجين، وكان ضعف هذا النظام ، بطبيعة الأحوال، يتمثل فى أن الديماجوجية يمكن أن تؤثر على السياسة المحددة. وفى ذلك الوقت بدأ الديموقراطيون الاستغناء عن قادتهم الارستقراطيين.

كان التوتر فى المدينة الدولة الاغريقية يتولد من تغير الظروف الاقتصادية والعسكرية والاجتماعية ، وهو ما أدى إلى تقويض الوحدة التى كانت قائمة على أساس من الديانة والتاريخ والعادات واللغة المشتركة وروابط القربى. وكانت التجارة والاستعمار فى أواخر القرن التاسع والقرن الثامن ق.م، هى التى هزت المجتمع الزراعى الراكد مثلما حدث نتيجة لظهور الجنود ثقيلى التسليح (hoplite) فى الشئون الحربية فى أواخر القرن الثامن أو مطلع القرن السابع ق.م، إذ بدأت العناصر غير الأرستقراطية ، التى كانت تتألف من الأغنياء الجدد والمشاة الثقيلة، تقاتل فى سبيل السيطرة على الدولة فى القرن السابع والقرن السادس، ق.م. وكان ذلك غالبا ما يتم بمساعدة الطغاة . وبحلول القرنين السادس والخامس ق.م، كان الصراع داخل المدينة الدولة قد تركز فيما بين الأوليجاركيين والديموقراطيين . وفى مدن مثل أثينا، عندما حاولت الطبقات الدنيا أن تتحرك من المشاركة فى الحكم إلى السيطرة على الدولة، تألمت المدينة من جراء الخيانة والمشاحنات القانونية ، وحالات النفى دون محاكمة والاغتيالات والحروب الأهلية.

خاتمة وتعقيبات

كانت حقوق المواطنة المقيدة فى المدينة الإغريقية ، والتى انعكست فى التفكك الداخلى، والتشرذم من خلال الاستعمار وعدم القدرة على استيعاب وضم المناطق المفتوحة ، عاملا أساسيا فى الفرقة وعدم الوحدة. وهذه الممارسات كان يدعمها، كما كان من أسبابها إلى حد ما، النظام القبلى وعلاقات القربى والصراع الطبقى. وفى المحل الأول، فإنه بسبب كون المدينة الدولة تنظيما قبليا مركبا لم يكن للمواطنين فى أية مدينة مركز فى إحدى العشائر أو علاقات قرابة فى مدينة أخرى. وبسبب الإحساس العام «بالاغريقية» ، فإنه كان بوسع أى اغريقى مواطن فى مدينة أن يعيش فى مدينة أخرى باعتباره مقيما أجنبيا. وقد أدى تطور المدينة الدولة فى القرنين التاسع والثامن ق.م، إلى إضعاف الولاءات القبلية بين الأقاليم كما أدى إلى دعم أهمية العشائر، والبطون والقبائل داخل المدن. وبينما تدهورت قوة نظام القرابة ، تراخت ممارسات تقييد حقوق المواطنة إلى حد ما . وقد رأينا أن أثينا كانت الأكثر تقدما بين الدول الإغريقية فى تحرير ممارستها فى مجال حقوق المواطنة. وقد بدأ هذا بإصلاحات كليستينيز فى نهاية القرن السادس ق.م، والتى أحلت محل القبائل الأربع القائمة على أساس القرابة باعتبارها أساس الإدارة السياسية عشر قبائل اصطناعية تم اختلاقها، وتقوم على أساس الولاء. وبذلك أصبح الالتحاق بإحدى هذه القبائل العشر أقل صعوبة نفسيا من الانضمام لواحدة من القبائل الأربع، إذ لم تكن ثمة روابط قرابة فى القبائل العشر. وعلى أية حال، لم يحدث قبل مرور قرنين على عهد كليستينيز ، أن انهارت الحواجز أمام الأجانب المقيمين فى أثينا، على الرغم من أنه كان قد تم حل مشكلات الصراع الطبقى إلى حد كبير فى القرن الرابع ق.م.

وقد انهارت المواقف التى فرضت ممارسات تقييد حقوق المواطنة بفضل الثورة الفكرية فى نهاية القرن الخامس وبداية القرن الرابع ق.م، وبفضل زعماء تلك الثورة، وهم السفسطائيين وأتباعهم ، وبفضل كثيرين ممن كرسوا أنفسهم لوحدة الاغريق . ففى القرن الرابع ق.م، كان العديد من الاغريق يفضلون الوحدة نظريا كما حاولوا تحقيقها على الصعيد المحلى. وكان مبدأ الاستقلال الذاتى للمدينة الدولة ما يزال

قائما، بيد أنه بدأ يفقد معناه تدريجيا بحيث لم يبق منه سوى الاسم . وعلى الرغم من النزعة المحافظة التى تميز نظرية أفلاطون السياسية، فإنه كان يحن إلى مدينة دولة مثالية، كما أنه اعترف بأن الدول الاغريقية كانت تشكل مجتمعا عاما. كما أن ايسوكراتيس ، نصير القومية الإغريقية العظيم، ، كان يحض الاغريق على أن يجدوا الوحدة فى التعليم المشترك والنمط العقلى المشترك بدلا من محاولة العثور عليها فى الدماء المشتركة، ثم يتحدون بعد ذلك فى مواجهة عدو مشترك هو فارس. وقد بذلت الجهود فى سبيل الوحدة فى القرن الرابع ببعض المناطق من قبل بعض الملوك، مثل ديونيسيوس (Dionusus) الأول ملك سيراكيوز، وأخيرا تم تحقيق الوحدة فى السنوات الأربعين الأخيرة على يد الملك فيليب (Philip) المقدونى والاسكندر (Alexander) وورثتهما .

ومع الانهيار العام للمدينة الدولة فى بواكير القرن الرابع ق.م، وفقدان الثقة فيها كمؤسسة قابلة للحياة ، برزت العصب الاتحادية باعتبارها القوة السائدة فى بلاد الاغريق . وقد أثبتت هذه العصب الاتحادية قوتها فى الوقت الذى كان العالم فيه يتغير إلى مدى غير معلوم على يد الاسكندر والملكيات الهللينستية التى جاءت بعده. ومن ثم فإن هذه الأحلاف بقيت صغيرة بالقدر الذى لايمكنها من النجاح سوى على المستوى المحلى .

وقد تطورت الدول الفيدرالية من الوحدات أو المجموعات القبلية. مثل البوئتيين (Boeotians) والآخيين (Achaeans) والأيتوليين (Aetolians)، أو الأركاديين (Arcadians) وكان الشعور برابطة القربى القبلية فى هذه المجموعات ، والذى ربما كان يتضمن على تقاليد التعاون فى الحرب أو عبادة خاصة يتغلب على علاقات القربى أو العلاقات العشائرية الضيقة. وبما أن هذه المناطق القبلية كانت أبطأ فى تحضرها من الأقاليم التى برزت فيها المدن الكبرى، فإن الشعور بعلاقات القربى القبلية استمر يحكم هذه المناطق حتى بعد أن طورت بعض المراكز التجارية والسياسية بها. ومن ثم لم تكن لدى العصبة القبيلة سوى موانع قليلة فى منح حقوق المواطنة لكافة الأعضاء فى منطقتها القبلية.

وكانت العصبة الفيدرالية تشبه فى بنائها مدينة دولة ضخمة. إذ عادة ما كان يجمع بين أعضائها المختلفين قانون مشترك، وأوزان ومكاييل مشتركة ، وعملات مشتركة ، وحكام مشتركون . وعلى خلاف المدينة الدولة، لم تكن للعصبة تحصينات مركزية لحماية كل سكانها كما كانت أكثر تحررا فى ممارستها فى مجال حقوق المواطنة . كانت المواطنة فى العصبة موجودة فى نفس الوقت مع المواطنة المحلية فى المجتمعات الأصغر، التى ربما كانت قبائل أو مدنا. وكان المواطنون خاضعين للسلطات الفيدرالية والسلطات المحلية على السواء. أما حقوق المواطنة المحلية، مثل التصويت وتولى الوظائف ، فلم يكن ممكنًا ممارستها إلا فى المدينة الوطن فقط. وكانت الحقوق السياسية فى الدول الفيدرالية تمارس من خلال التصويت فى مدينة ما لانتخاب من يمثلونها فى العصبة . هذا التطور كان يعكس الطريقة التى كان أعضاء أية مدينة دولة يصوتون بها على مستوى القبيلة لاختيار ممثليهم فى حكم المدينة. وفى الدولة الفيدرالية العادية كان باستطاعة المواطنين امتلاك الأرض فى كافة المدن الداخلة فى الاتحاد الفيدرالى. وبمؤازرة مؤسسة المدينة الدولة (Polis) ، كان لمعظم الاتحادات الفيدرالية مجلس (Boule) وجمعية (Ecclesia) . وعلى أية حال، فإن الجمعيات الفيدرالية كانت تجتمع بمعدل أقل كثيرا من اجتماعات جمعية المدينة الدولة، فعلى سبيل المثال كان الاجتماع مرتين سنويا فى الحلف الأيتولى (Aetolian League) وأربع مرات فى الحلف الآخى ومرتين فى جمعية أثينا. ولم تكن لبوئيتيا سوى مجلس (Boule) وبذلك تمتعت تماما بحكومة منتخبة . وكان الجيش مؤلفا من فرق من مختلف المدن، وكان الفرد يخدم مع الفرقة التى جاءت من المدينة التى يقيم بها بدلا من الخدمة مع فرقة البلد التى هو من مواطنيها . وكانت الوحدة الكونفدرالية تتطلب وجود عاصمة لتسهيل الأعمال، وعادة ما كانت تلك العاصمة فى أقوى مركز بالعصبة ، مثل طيبة فى بؤيتيا وميجالبوليس (Megalopolis) فى أركاديا .

وعلى عكس المدينة الدولة التى كان يديرها المجلس والجمعية، كانت العصبة الفيدرالية تحت رئاسة ربما تمثلت فى قائد عسكرى أحيانا، أو مجلس وزراء فى أحيان أخرى. وفى حالة الاتحاد البؤيتى، الذى كان أول عصبة من هذا النوع يصير قوة عظمى فى بلاد الاغريق فى القرن الخامس ق.م، كان يحكم مجلس من البوئيتيين مكونا

من قائد عسكرى وعدد من الحكام وقد أتبعت العاصمة الآخية الصيغة العادية بأن حكمها قائد عسكرى (وفى بعض الأحيان قائدان) ومعه مجلس استشارى من أعضاء العصبة. وقد تبنت العصب الفيدرالية الكثير من مؤسسات المدينة الدولة ، بيد أنها لم تبق على جمودها.

كانت العصبة الفيدرالية مختلفة بشكل واضح عن الحلف البلوبونيزى وحلف ديلوس الكبيرين فى القرن الخامس ق.م، إذ كان هذا الحلفان قائمين بين دول متساوية ، فقد كانا تحالفين فضفاضين بين مدن مستقلة لم تكن بينها حقوق مواطنة مشتركة ، ولم يكن بإمكان الأفراد أن يمتلكوا الأرض فى أية مدينة غير مدينتهم . وفى الأحلاف القائمة بين دول متساوية كانت الإدارة التنفيذية فى يد الدولة صاحبة الهيمنة والتى تقدم أى موظفين إداريين مستقلين ، مثل اسبرطة فى حلف البلوبونيز وأثينا فى حلف ديلوس ، والعصبة الأثينية الثانية.

وكان من الضرورى لتكوين الدول الفيدرالية التى تتمتع بقدر من الأهمية أن يتم اجتياز الحدود العرقية والاعتراف بأعضاء فى القبائل الأخرى. وربما يتضح هذا فى أجلى صورة فى العصبة الآخية، التى يحتمل أنها كانت أهم الدول الفيدرالية الاغريقية . ففى مرحلتها الأولى فى بداية القرن الرابع ق.م، اعترفت بحقوق المواطنة لغير الآخيين. وفقا لرواية بوليبيوس (Polybus) فقد تحولت أخيا (Achaea) من مملكة متحدة إلى جمهورية فيدرالية . وفى وقت ما قبل سنة ٣٨٩ق.م، تم وضع نظام المواطنة الفيدرالية عندما كسبت آخيا كاليدون (Calydon) وجعلت أهلها مواطنين آخيين . كذلك استولى الآخيون على ناوباكتوس (Naupactus) وأدمجوا مواطنيها فى المواطنين الآخيين. وعندما تفككت العصبة الآخية فى بواكير القرن الثالث ق.م، تم احياؤها مجددا سنة ٢٨١-٢٨٠ ق.م ومنذ سنة ٢٨٠ ق.م، حتى سنة ٢٥٥ ق.م، كانت الدول الأعضاء تنتخب سكرتيرا فيدراليا واثنين من القادة بنظام التناوب . وكان على المدينة التى يجئ دورها أن تقدم الموظف الرئيسى . وتحت حكم أراتوس (Aratus) صارت العصبة الآخية قوة عظمى فى البلوبونيز وفى بلاد الاغريق وبرزت باعتبارها العضو القائد فى العصبة الهللينسية التى نظمها انتيجونوس دوسون (Antigonus Doson) فى سنة ٢٢٤ / ٢٢٣ ق.م، وعندما تورط الرومان فى بلاد الاغريق سنة ١٩٨ ق.م .

انضم الآخيون إليهم . إذ أن العصبة الآخية وحدت شعوب البلوبونيز وأدمجتهم فى أمة واحدة . وأصبح اسم آخيا اسم البلوبونيز كما صار اسم الولاية الرومانية الرئيسية فى بلاد الاغريق.

كانت الاتحادات الفيدرالية عبارة عن صيغة كفء من صيغ الحكم وربما كان يمكنها أن تحقق قدرا من الوحدة فى بلاد الاغريق؛ بيد أنها فشلت لأنها ظهرت فى الوقت غير المناسب .

ونفس العامل الذى اتاح للاتحادات الفيدرالية أن تتطور لتكون قوى كبرى أى انهيار المدينة الدولة. هو الذى أتاح أيضا تشكيل عالم جديد تحت قيادة الأسكندر . وفى الوقت الذى ظهرت فيه الاتحادات الفيدرالية كان الوقت قد فات على فرصة وجود أى تأثير حقيقى لها على بلاد الاغريق . وإذ كانت العصبة الآخية قد وجدت فى القرن الخامس ق.م، فربما كان بوسعها أن توحد بلاد الاغريق ؛ بيد أن المؤسسات السياسية والاجتماعية فى ذلك العصر عرقلت وجودها وحالت دون أن تكون قوة واعدة.

لقد فشلت المدينة الدولة سياسيا. إذ أن خصوصيتها حالت دون الوحدة، كما شجعت الحرب داخل الدولة وفيما بين الدول وبعضها . وفى نهاية الأمر ساهمت فى خضوع بلاد الاغريق للملوك المقدونيين . لقد كان نظام المدينة الدولة انعكاسا للشخصية الاغريقية، بفرديتها ، واستقلاليتها، وانغماسها فى الذات؛ وفى الوقت نفسه كانت تغذى وتدعم هذه الاتجاهات.

لقد كانت الفرقة، كما رأينا ملمحا صامتا من ملامح المدينة الإغريقية فالوحدة على كل حال ليست هى المثال بالضرورة . إذ كانت الوحدة عادة ما تجلب الانسجام الداخلى والسلام ، ولكنها لم تكن تحقق البقاء، أو القوة أو الحيوية بالضرورة . فعندما هاجمت فارس بقيادة اكسركسيس بلاد الاغريق فى بدايات القرن الخامس ق.م. كانت امبراطورية موحدة، ومع هذا فإنها هزمت أمام تحالف قلق من المدن الدول الاغريقية التى كانت غير متحدة فى العادة. ومن ناحية أخرى ، فإن الامبراطورية المصرية المتحدة ، قد هزمت بسهولة على أيدى الفرس. وربما كانت بلاد الاغريق فى ظل وحدة يوتوبية تحقق وجودا سالما ولكن حيوية المدينة الدولة كانت ستتلاشى . وقد حقق

الاسكندر نوعا من الوحدة للعالم بفتوحاته ، مثلما فعلت روما بامبراطوريتها الشاسعة التى عاشت طويلا، ولكن روح الابداع فى كل من الامبراطوريتين لايمكن مقارنتها بروح الابداع فى المدينة الاغريقية الصغيرة . ويمثل القرنان السادس والخامس ببلاد الاغريق واحدة من أكثر الفترات حيوية وابداعا فى التاريخ. والعلوم والرياضيات ، على الرغم من أنها لم تكن من اختراع الاغريق ، قد أخذت قواعدها الحديثة فى هذه الفترة . وقد بدأ الفلاسفة الأيونيون من أمثال طاليس (Thales) دراستهم الرياضية التى وصلت الذرة فى القرن الخامس ق.م. بزعامة فيثاغورس (Pythagoras) وبعد ذلك فى القرن الثالث ق.م، بزعامة اقليديس (Euclid) كما أن النظرية الذرية قد تطورت فى أبديرا (Abdera) كذلك فإن هيبوقراطيس (Hippocrates) أبا الطب الغربى قد برز من مجتمع المدينة الدولة، كما أن أعماله وأعمال جالينوس (Galen) الذى عاش فى القرن الثانى الميلادى شكلت الأساس الذى قام عليه الطب حتى القرن الماضى . وكثير من موضوعات الأدب قد أخذت شكلها ، إذ لم تكن قد ابتكرت أصلا، على أيدى اغريق المدينة الدولة فالتراجيديا كتبها ايسخولوس وسوفوكليس ويوريبيدس ، والكوميديا عند اريستوفانيس الذى كان ناقدا سياسيا عبقريا لدرجة أنه حتى بعد ٢٤٠٠ سنة منعت الحكومة العسكرية فى اليونان الحديثة عرض الكثير من مسرحياته لأن تعليقاتها ما تزال لاذعة ذكية ، وقد بدأ علم التاريخ بهيرودوت وثوكيديديس . كذلك سقراط وأفلاطون ، اللذين كانا من مواطنى المدينة الدولة فى أثينا قد أرسيا أساس الفلسفة الغربية والنظرية السياسية الغربية . وكان الفن والعمارة والهياكل الكبيرة مجسدا فى فيدياس (Phidias) وبوليكليتوس (Polycleitus) وبراكسيتيليز (Praxiteles) كلها من نتاج المدينة الدولة. وباختصار فإن الكثير من الثقافة الغربية يدين بأساسه إلى عبقرية المدينة الدولة الاغريقية. ومن المهم أن نلاحظ فى ضوء أثينا القرن الخامس، أن السياسات القاتلة التى وضعها مكيافيللى فى كتابه «الأمير» وغيره كانت تعيش متزامنة مع ليوناردو، ومايكل أنجلو ورفائيل.

وفى الوحدة الثقافية والسياسية التى حققها الاسكندر لمعظم أرجاء العالم المعروف فيما بين مصر والهند بفضل غزواته، لم يكن ممكنا منافسة إنجازات المدينة الدولة.

فعلى الرغم من أنه تحت حكم الاسكندر وخلفائه انتشرت الفنون ، وازدهرت العلوم والآداب وتألفت المكتبات الهائلة، فإن تلك كانت ثقافة مدرسية ولم تكن هى روح الابداع التلقائى التى ميزت المدينة الدولة .

وليس من الضرورى أن تكون أكبر وحدة هى الأفضل سياسيا. فإن أية منظمة أو دولة تكبر تقدم وسائل الاستقرار لشعبها ، ولكنها كى تفعل ذلك تنقسم لكى تخلق وحدات ادارية صغيرة ، مثلما فعلت الامبراطورية الفارسية؛ ومع هذا التقسيم تبرز بيروقراطية كبيرة غالبا ما لاتكون على درجة من الكفاءة المناسبة فالوحدة والنظم السياسية الكبرى تصعد مستويات الحرب. فعندما استأصلت كروتون (Croton) جارتها سيباريس (Sybaris) فى جنوب ايطاليا أواخر القرن السادس ق.م، لم يفعل أهل مليسيا (Milesia) بآسيا الصغرى، الذين كانوا يجنون الكثير من تجارتهم الواسعة مع سيباريس ، شيئا سوى أن ذرفوا الدموع. ولكن عندما اشتبكت أثينا فى الحرب مع اسبرطة اصطدمت مجموعتان من القوى؛ وبدلا من الصراع بين مدينتين صغيرتين، وقف نصف الاغريق ضد نصفهم الآخر. لقد فشلت المدينة الدولة بمعنى أنها لم تخلق نظاما سياسيا مستقرا فى مواجهة التغيرات الاقتصادية والاجتماعية . وعلى أية حال، فإن العوامل التى سببت هذا الفشل هى التى جعلت من المدينة الدولة مركزا للانتاج الفكرى والثقافى والعبقرية الخلاقة التى لم تكن لتنضج أبدا فى أى مكان آخر .

محتويات الكتاب

صفحة

المشروع القومى للترجمة

اللغة العليا (طبعة ثانية)	جون كوين	ت : أحمد درويش
الوثنية والإسلام	ك. مادهو بانيكار	ت : أحمد فؤاد بلبع
التراث المسروق	جورج جيمس	ت : شوقى جلال
كيف تتم كتابة السيناريو	انجا كاريتنكوفا	ت : أحمد الحضرى
ثريا فى غيبوبة	إسماعيل فصيح	ت : محمد علاء الدين منصور
اتجاهات البحث اللسانى	ميلكا إفيتش	ت : سعد مصلوح / وفاء كامل فايد
العلوم الإنسانية والفلسفة	لوسيان غولدمان	ت : يوسف الأنطكي
مشعلو الحرائق	ماكس فريش	ت : مصطفى ماهر
التغيرات البيئية	أندرو س. جودى	ت : محمود محمد عاشور
خطاب الحكاية	جيرار جينيت	ت : محمد معتصم وعبد الجليل الأزدى وعمر حلى
مختارات	فيسوافا شيمبوريسكا	ت : هناء عبد الفتاح
طريق الحرير	ديفيد براونيستون وايرين فرانك	ت : أحمد محمود
ديانة الساميين	روبرتسن سميث	ت : عبد الوهاب علوب
التحليل النفسى والأدب	جان بيلمان نويل	ت : حسن المودن
الحركات الفنية	إدوارد لوسى سميث	ت : أشرف رفيق عفيفى
أثينة السوداء	مارتن برنال	ت : لطفى عبد الوهاب / فاروق القاضى / حسين الشيخ / منيرة كروان / عبد الوهاب علوب
مختارات	فيليب لاركين	ت : محمد مصطفى بدوى
الشعر النسائى فى أمريكا اللاتينية	مختارات	ت : طلعت شاهين
الأعمال الشعرية الكاملة	جورج سفيريس	ت : نعيم عطية
قصة العلم	ج. ج. كراوثر	ت: يمنى طريف الخولى / بدوى عبد الفتاح
خوخة وألف خوخة	صمد بهرنجى	ت : ماجدة العنانى
مذكرات رحالة عن المصريين	جون أنتيس	ت : سيد أحمد علي الناصرى
تجلى الجميل	هانز جيورج جادامر	ت : سعيد توفيق
ظلال المستقبل	باتريك بارندر	ت : بكر عباس
مثنوى	مولانا جلال الدين الرومى	ت : إبراهيم الدسوقى شتا
دين مصر العام	محمد حسين هيكل	ت : أحمد محمد حسين هيكل
التنوع البشرى الخلاق	مقالات	ت : نخبة
رسالة فى التسامح	جون لوك	ت : منى أبو سنه
الموت والوجود	جيمس ب. كارس	ت : بدر الديب
الوثنية والإسلام (ط٢)	ك. مادهو بانيكار	ت : أحمد فؤاد بلبع
مصادر دراسة التاريخ الإسلامى	جان سوفاجيه – كلود كاين	ت : عبد الستار الحلوجى / عبد الوهاب علوب
الانقراض	ديفيد روس	ت : مصطفى إبراهيم فهمى
التاريخ الاقتصادى لإفريقيا الغربية	أ. ج. هوبكنز	ت : أحمد فؤاد بلبع
الرواية العربية	روجر آلن	ت : د. حصة إبراهيم المنيف

الأسطورة والحداثة	پول . ب . ديكسون	ت : خليل كلفت
نظريات السرد الحديثة	والاس مارتن	ت : حياة جاسم محمد
واحة سيوة وموسيقاها	بريجيت شيفر	ت : جمال عبد الرحيم
نقد الحداثة	آلن تورين	ت : أنور مغيث
الإغريق والحسد	بيتر والكوت	ت : منيرة كروان
قصائد حب	آن سكستون	ت : محمد عيد إبراهيم
ما بعد المركزية الأوربية	بيتر جران	ت : عاطف أحمد / إبراهيم فتحى / محمود ماجد
عالم ماك	بنجامين باربر	ت : أحمد محمود
اللهب المزدوج	أوكتافيو پاث	ت : المهدى أخريف
بعد عدة أصياف	ألدوس هكسلى	ت : مارلين تادرس
التراث المغدور	روبرت ج دنيا – جون ف أ فاين	ت : أحمد محمود
عشرون قصيدة حب	بابلو نيرودا	ت : محمود السيد على
تاريخ النقد الأدبى الحديث (١)	رينيه ويليك	ت : مجاهد عبد المنعم مجاهد
حضارة مصر الفرعونية	فرانسوا دوما	ت : ماهر جويجاتى
الإسلام فى البلقان	هـ . ت . نوريس	ت : عبد الوهاب علوب
ألف ليلة وليلة أو القول الأسير	جمال الدين بن الشيخ	ت : محمد برادة وعثمانى الميلود ويوسف الأنطكى
مسار الرواية الإسبانو أمريكية	داريو بيانوبيا وخ. م بينياليستى	ت : محمد أبو العطا
العلاج النفسى التدعيمى	بيتر . ن . نوفاليس وستيفن . ج . روجسيفيتز وروجر بيل	ت : لطفى فطيم وعادل دمرداش
الدراما والتعليم	أ . ف . ألنجتون	ت : مرسى سعد الدين
المفهوم الإغريقى للمسرح	ج . مايكل والتون	ت : محسن مصيلحى
ما وراء العلم	جون بولكنجهوم	ت : على يوسف على
الأعمال الشعرية الكاملة (١)	فديريكو غرسية لوركا	ت : محمود على مكى
الأعمال الشعرية الكاملة (٢)	فديريكو غرسية لوركا	ت : محمود السيد ، ماهر البطوطى
مسرحيتان	فديريكو غرسية لوركا	ت : محمد أبو العطا
المحبرة	كارلوس مونييث	ت : السيد السيد سهيم
التصميم والشكل	جوهانز ايتين	ت : صبرى محمد عبد الغنى
موسوعة علم الإنسان	شارلوت سيمور – سميث	مراجعة وإشراف : محمد الجوهرى
لذّة النّص	رولان بارت	ت : محمد خير البقاعى .
تاريخ النقد الأدبى الحديث (٢)	رينيه ويليك	ت : مجاهد عبد المنعم مجاهد
برتراند راسل (سيرة حياة)	آلان وود	ت : رمسيس عوض .
فى مدح الكسل ومقالات أخرى	برتراند راسل	ت : رمسيس عوض .
خمس مسرحيات أندلسية	أنطونيو جالا	ت : عبد اللطيف عبد الحليم
مختارات	فرناندو بيسوا	ت : المهدى أخريف
نتاشا العجوز وقصص أخرى	فالنتين راسبوتين	ت : أشرف الصباغ
العالم الإسلامى فى أوائل القرن العشرين	عبد الرشيد إبراهيم	ت : أحمد فؤاد متولى وهويدا محمد فهمى
ثقافة وحضارة أمريكا اللاتينية	أوخينيو تشانج رودريجث	ت : عبد الحميد غلاب وأحمد حشاد

السيدة لا تصلح إلا للرمى	داريو فو	ت : حسين محمود
السياسى العجوز	ت . س . إليوت	ت : فؤاد مجلى
نقد استجابة القارئ	چين . ب . توميكنز	ت : حسن ناظم وعلى حاكم
صلاح الدين والمماليك فى مصر	ل . ا . سيمينوڤا	ت : حسن بيومى
فن التراجم والسير الذاتية	أندريه موروا	ت : أحمد درويش
چاك لاكان وإغواء التحليل النفسى	مجموعة من الكتاب	ت : عبد المقصود عبد الكريم
تاريخ النقد الأدبى الحديث ج ٢	رينيه ويليك	ت : مجاهد عبد المنعم مجاهد
العولمة : النظرية الاجتماعية والثقافة الكونية	رونالد روبرتسون	ت : أحمد محمود ونورا أمين
شعرية التأليف	بوريس أوسبنسكى	ت : سعيد الغانمى وناصر حلاوى
بوشكين عند «نافورة الدموع»	ألكسندر بوشكين	ت : مكارم الغمرى
الجماعات المتخيلة	بندكت أندرسن	ت : محمد طارق الشرقاوى
مسرح ميجيل	ميجيل دى أونامونو	ت : محمود السيد على
مختارات	غوتفريد بن	ت : خالد المعالى
موسوعة الأدب والنقد	مجموعة من الكتاب	ت : عبد الحميد شيحة
منصور الحلاج (مسرحية)	صلاح زكى أقطاى	ت : عبد الرازق بركات
طول الليل	جمال مير صادقى	ت : أحمد فتحى يوسف شتا
نون والقلم	جلال آل أحمد	ت : ماجدة العنانى
الابتلاء بالتغرب	جلال آل أحمد	ت : إبراهيم الدسوقى شتا
الطريق الثالث	أنتونى جيدنز	ت : أحمد زايد ومحمد محيى الدين
وسم السيف	ميجل دى ثرباتس	ت : محمد إبراهيم مبروك
المسرح والتجريب بين النظرية والتطبيق	باربر الاسوستكا	ت : محمد هناء عبد الفتاح
أساليب ومضامين المسرح الإسبانوأمريكى المعاصر	كارلوس ميجل	ت : نادية جمال الدين
محدثات العولمة	مايك فيذرستون وسكوت لاش	ت : عبد الوهاب علوب
الحب الأول والصحبة	صمويل بيكيت	ت : فوزية العشماوى
مختارات من المسرح الإسبانى	أنطونيو بويرو بابييخو	ت : سرى محمد محمد عبد اللطيف
ثلاث زنبقات ووردة	قصص مختارة	ت : إدوار الخراط
هوية فرنسا	فرنان برودل	ت : بشير السباعى
الهم الإنسانى والابتزاز الصهيونى	نماذج ومقالات	ت : أشرف الصباغ
تاريخ السينما العالمية	ديڤيد روبنسون	ت : إبراهيم قنديل
مساءلة العولمة	بول هيرست وجراهام تومبسون	ت : إبراهيم فتحى
النص الروائى (تقنيات ومناهج)	بيرنار فاليط	ت : رشيد بنحدو
السياسة والتسامح	عبد الكريم الخطيبى	ت : عز الدين الكتانى الإدريسى
قبر ابن عربى يليه آياء	عبد الوهاب المؤدب	ت : محمد بنيس
أوبرا ماهوجنى	برتولت بريشت	ت : عبد الغفار مكاوى
مدخل إلى النص الجامع	چيرارچينيت	ت : عبد العزيز شبيل
الأدب الأندلسى	د. ماريا خيسوس روبييرامتى	ت : د. أشرف على دعدور

صورة الفدائى فى الشعر الأمريكى المعاصر	نخبـة	ت : محمد عبد الله الجعيدى
ثلاث دراسات عن الشعر الأندلسى	مجموعة من النقاد	ت : محمود على مكى
حروب المياه	چون بولوك وعادل درويش	ت : هاشم أحمد محمد
النساء فى العالم النامى	حسنة بيجوم	ت : منى قطان
المرأة والجريمة	فرانسيس هيندسون	ت : ريهام حسين إبراهيم
الاحتجاج الهادئ	أرلين علوى ماكليود	ت : إكرام يوسف
راية التمرد	سادى پلانت	ت : أحمد حسان
مسرحيتا حصاد كونجى وسكان المستنقع	وول شوينكا	ت : نسيم مجلى
غرفة تخص المرء وحده	فرجينيا وولف	ت : سمية رمضان
امرأة مختلفة (درية شفيق)	سينثيا نلسون	ت : نهاد أحمد سالم
المرأة والجنوسة فى الإسلام	ليلى أحمد	ت : منى إبراهيم ، وهالة كمال
النهضة النسائية فى مصر	بث بارون	ت : لميس النقاش
النساء والأسرة وقوانين الطلاق	أميرة الأزهرى سنبل	ت : بإشراف/ رؤوف عباس
الحركة النسائية والتطور فى الشرق الأوسط	ليلى أبو لغد	ت : نخبة من المترجمين
الدليل الصغير فى كتابة المرأة العربية	فاطمة موسى	ت : محمد الجندى ، وإيزابيل كمال
نظام العبودية القديم ونموذج الإنسان	جوزيف فوجت	ت : منيرة كروان
الإمبراطورية العثمانية وعلاقاتها الدولية	نينل الكسندر وفنادولينا	ت: أنور محمد إبراهيم
الفجر الكاذب	چون جراى	ت : أحمد فؤاد بلبع
التحليل الموسيقى	سيدريك ثورپ ديڤى	ت : سمحه الخولى
فعل القراءة	ڤولڤانج إيسر	ت : عبد الوهاب علوب
إرهاب	صفاء فتحى	ت : بشير السباعى
الأدب المقارن	سوزان باسنيت	ت : أميرة حسن نويرة
الرواية الاسبانية المعاصرة	ماريا دولورس أسيس جاروته	ت : محمد أبو العطا وآخرون
الشرق يصعد ثانية	أندريه جوندر فرانك	ت : شوقى جلال
مصر القديمة (التاريخ الاجتماعى)	مجموعة من المؤلفين	ت : لويس بقطر
ثقافة العولمة	مايك فيذرستون	ت : عبد الوهاب علوب
الخوف من المرايا	طارق على	ت : طلعت الشايب
تشريح حضارة	بارى ج. كيمب	ت : أحمد محمود
المختار من نقد ت. س. إليوت (ثلاثة أجزاء)	ت. س. إليوت	ت : ماهر شفيق فريد
فلاحو الباشا	كينيث كونو	ت : سحر توفيق
مذكرات ضابط فى الحملة الفرنسية	چوزيف مارى مواريه	ت : كاميليا صبحى
عالم التليفزيون بين الجمال والعنف	إيڤلينا تارونى	ت : وجيه سمعان عبد المسيح
پارسيڤال	ريشارد ڤاچنر	ت : مصطفى ماهر
حيث تلتقى الأنهار	هربرت ميسن	ت : أمل الجبورى
اثنتا عشرة مسرحية يونانية	مجموعة من المؤلفين	ت : نعيم عطية
الإسكندرية : تاريخ ودليل	أ. م. فورستر	ت : حسن بيومى
قضايا التنظير فى البحث الاجتماعى	ديريك لايدار	ت : عدلى السمرى

صاحبة اللوكاندة	كارلوس جولدونى	ت : سلامة محمد سليمان
موت أرتيميو كروث	كارلوس فوينتس	ت : أحمد حسان
الورقة الحمراء	ميجيل دى ليبس	ت : على عبد الرؤوف البمبى
خطبة الإدانة الطويلة	تانكريد دورست	ت : عبد الغفار مكاوى
القصة القصيرة (النظرية والتقنية)	إنريكى أندرسون إمبرت	ت : على إبراهيم على منوفى
النظرية الشعرية عند إليوت وأدونيس	عاطف فضول	ت : أسامة إسبر
التجربة الإغريقية : حركة الاستعمار والصراع الاجتماعى	روبرت ج. ليتمان	ت : منيرة كروان

(تحت الطبع)

الشعر الأمريكى المعاصر
الجانب الدينى للفلسفة
الولاية
المدارس الجمالية الكبرى
مختارات من الشعر اليونانى الحديث
العلاقات بين المتدينين والعلمانيين فى إسرائيل
عدالة الهنود
چان كوكتو على شاشة السينما
الأرضة
غرام الفراعنة
نحو مفهوم للاقتصاديات البيئية والقوانين المعالجة
العنف والنبوءة
خسرو وشيرين
العمى والبصيرة (مقالات فى بلاغة النقد المعاصر)
وضع حد
التليفزيون فى الحياة اليومية
أنطوان تشيخوف
من المسرح الإسبانى المعاصر

تاريخ النقد الأدبى الحديث (الجزء الرابع)
حكايات ثعلب
شامبليون (حياة من نور)
الإسلام فى السودان
العربى فى الأدب الإسرائيلى
آلة الطبيعة
ضحايا التنمية
المسرح الإسبانى فى القرن السابع عشر
أيديولوجى
تاريخ الكنيسة
فن الرواية
ما بعد المعلومات
علم الجمالية وعلم اجتماع الفن
المهلة الأخيرة
الهيولية تصنع علمًا جديدًا
مدرسة فرانكفورت نشأتها ومغزاها
مختارات من النقد الأنجلو - أمريكى

طبع بالهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية

رقم الإيداع ١٥٠٦١ / ١٩٩٩

الترقيم الدولى (I. S. B. N. 977 - 305 - 184 - 6)